من سلسلة
المنشورات التاريخية
4

د. محمـــد دراج

الدخول العثماني إلى الجزائر

ودور الإخوة بربروس

(1543-1512)

تصدير: أ.د. ناصر الدين سعيدوني



الأصالة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك.: 978-9961-9963-4-8

رقم الإيداع : 2011-2580

شركة الأصالة للنشر والتوزيع

الجزائر العاصمة



تلفون : 021.762897 فاكس : 021.762157

E-mail : elassalah@hotmail.com

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION

ALGER - ALGERIE

من سلسلة المنشورات التاريخية (4)

د. محمد دراج

الدخول العثماني الى الجزائر

ودور الإخوة بربروس

(1512-1543)

تصدير :

أ.د ناصر الدين سعيدوني



الأصالة للنشر و التوزيع



أصل هذا الكتاب

رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي بعنوان:

Osmanlılar'ın Cezayir'e Girişi (1512-1543)

تقدّم بها المؤلف إلى جامعة مرمرة-إستانبول، ونوقشت سنة: 2006.

وقد طبعت النسخة التركية بإستانبول هذا العام.

مُحتويات الكِتاب

د. محمد دراج

الدخول العثماني إلى الجزائر

ودور الإخوة بربروس (1512-1543)

تصدير :

أ.د ناصر الدين سعيدوني



الأصالة للنشر و التوزيع

تصدير

بقلم أ.د. ناصر الدين سعيدوني

من المسائل الأساسية في التاريخ الجزائري الحديث، قضية التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ودور خير الدين باشا في تلك القضية. لارتباطها بإشكالية السيادة الجزائرية في العهد العثماني، وانعكاسها على تشكل الكيان السياسي للجزائر الحديثة، وعلى علاقات الجزائر مع الدول والبلدان الأخرى، بعد أن تعددت الآراء واختلفت المواقف حول طبيعة العلاقات الجزائرية - العثمانية.

فقد ذهب بعض من كتب حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني إلى اعتبار أن التحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان الإطار الأمثل لتشكّل كيان الدولة الجزائرية الحديثة في إطار الرابطة العثمانية، كباقي البلدان العربية آنذاك من تونس غربا وحتى العراق شرقا. كما أن البعض ممن عالج تاريخ الجزائر الحديث غالى في مواقفه المعادية للأتراك، فتجاوز الرابطة الدينية والظروف الخاصة للجزائر فاعتبر الحكم العثماني في الجزائر ذا طبيعة استعمارية. وهناك البعض ممن حاول اتخاذ موقف معتدل فاعتبر الوجود العثماني في الجزائر ضرورة تاريخية، واستجابة موفّقة سمحت بإحباط المشروع

الإسباني التوسعي في غرب المتوسط، وحال دون تكرار كارثة الأندلس ببلاد المغرب العربي. ولعل هذا الموقف أقرب إلى الحقيقة، لكون الكيان السياسي للجزائر كانت نتيجة ظروف القرن 16 ونتيجة لتطور الأوضاع المستجدة في غرب المتوسط طيلة العصور الحديثة..

لقد تعددت الدراسات، وكثرت اللقاءات العلمية حول هذه المسألة، واختلط فيها التوجه السياسي والقناعات الإيديولوجية بالحقائق التاريخية والنظرة الموضوعية. مما استوجب البحث عن النادر من الوثائق والجديد من المصادر خاصة العثمانية منها والعربية.

وفي هذا الإطار، وضمن هذا التوجه تندرج دراسة الأستاذ الدكتور محمد دراج حول: «**الدخول العثماني إلى الجزائر 1512-1543**» لتحتلّ مكانها ضمن المكتبة التاريخية العثمانية، لمنهجها الأكاديمي وطرحها العلمي وتناولها الموضوعي.

فقد تناول الباحث مسألة التحاق الجزائر بالدولة العثمانية ضمن مقاربة تاريخية، عرض فيها صورة متكاملة للخلفية التاريخية والظروف الدولية والأوضاع الداخلية التي ارتبطت وأثّرت على ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية في القرن 16. فتعرض في الباب الأول لأوضاع الجزائر قبل اتصالها بالدولة العثمانية من خلال الظروف التي صاحبت انهيار الدولة الزيانية واحتلال إسبانيا

للسواحل الجزائرية. وتناول في الباب الثاني حياة وجهاد الإخوة بربروس وبداية حركة الجهاد البحري في سواحل المغرب العربي، وما نتج عنها من مواجهة مع الإسبان، ووضع أسس الكيان السياسي للجزائر الحديثة، تقوم على علاقة تعاون مع الأهالي وبتأييد من شيوخ القبائل والزوايا. الأمر الذي سمح بتصفية القوى المناوئة التي عرف الإسبان كيف يستغلون طموحها وتطلعها للزعامة مثل: شيخ مدينة الجزائر سالم التومي وأمير كوكو ابن القاضي وبقايا الحكام الزيانيين بتنس وتلمسان.

إن القيمة العلمية لهذه الدراسة تعود إلى المعالجة الموضوعية لإشكالية الكيان السياسي للجزائر، انطلاقا من الظروف التي عرفتها الجزائر خلال القرن 16، وبالرجوع إلى الإخوة بربروس، ومساندة العلماء وشيوخ الزوايا وسكان المدن لعملية التصدي للهيمنة الإسبانية التي أكسبت الحكم العثماني في الجزائر طابعا شرعيا ساعد على تطور الكيان الجزائري، وتمايزه فيما بعد ثم استقلاله عن الدولة العثمانية في القرن 18.

إن قيمة هذا الجهد العلمي تؤكده العديد من المراجع العثمانية التي ظلت غائبة في أغلب الدراسات التي تعرضت لهذا الموضوع، والتي عرف الأستاذ الباحث محمد دراج كيف يستفيد منها ويوظفها في دراسته من خلال منهج يعتمد على المناقشة والمقارنة في استنتاج المعلومات وإثبات الاستنتاجات.

هذا؛ ولا يفوتنا في هذا التصدير الإشادة بلغة وأسلوب البحث. فهو يتميز بسلاسة العرض، ويجمع بين صحة المعنى وسلامة المبنى. فكان بحق ترجمة أمينة للنسخة الأصلية من الدراسة التي كتبت باللغة التركية، ونال بها صاحبها درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة مرمرة سنة 2006. وهو ما يجعلها ثمرة تفاعل ثقافي وتواصل علمي بين الثقافتين العربية والتركية، مما يؤهل صاحبها لمزيد من العطاء التاريخي الذي لا تزال المكتبة التاريخية للجزائر في حاجة ماسة إلى الجديد والمستجد من الدراسات العلمية والأطروحات الأكاديمية المعتمدة على وثائق الأرشيف العثماني.

الجزائر في 04 جويلية 2012



توطئة

يمثل النصف الأول من القرن 16م نقطة تحول تاريخية في غاية الأهمية، سواء بالنسبة للدولة العثمانية أو لأوربا أو للمسلمين في الأندلس والمغرب العربي، أو بالنسبة لكافة الولايات العربية التي شرعت تتابع في انضوائها تحت لواء الدولة العثمانية خلال هذه الفترة.

فالدولة العثمانية في عصر السلطان سليم الأول (1512-1520) شرعت تشقّ طريقها نحو الانفراد بزعامة العالم الإسلامي، منذ أن تمكنت من كسر شوكة الصفويين في معركة جالديران 1514م، والقضاء على دولة المماليك في مصر والشام، عقب الانتصار الساحق في معركة مَرَج دَابِق 1516م. فكان من أثر ذلك أن انفتح الطريق أمام العثمانيين لبسط نفوذهم على البلاد العربية وانتقال الخلافة الإسلامية إليهم.

وأما في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566)، فإن الدولة العثمانية بدأت تتجه نحو الزعامة العالمية. إذ استؤنفت الفتوحات العثمانية في شرق ووسط أوربا، لتبلغ مداها في حصار فيينا الأول 1529م. كما تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط بعد الانتصار الباهر الذي حققه الأسطول

العثماني على أساطيل التحالف الصليبي في معركة بروزة 1538م.

ولم يقتصر النفوذ العثماني على شرق أوربا والبحر المتوسط فحسب؛ بل امتد إلى البحر الأسود من خلال خانيّة شبه جزيرة القرم التي دخلت تحت حماية العثمانيين. كما تمكن العثمانيون من التصدّي للقراصنة البرتغاليين، الذين ما فتئوا يُغيرون على السواحل الإسلامية في شرق إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية، فضلا عن اعتراضهم للسفن التجارية وكذا سفن الحجاج القادمة من الهند. ولتأمين السواحل الإسلامية هناك قامت الدولة العثمانية بتأسيس ولايتَيْ الحبشة وعَدَن. فتسنّى للعثمانيين -على إثر ذلك- أن يسيطروا على مضيقي باب المندب وهرمز، وبعث تجارة الهند التي تعثرت منذ وصول البرتغاليين إليها.

وشهد هذا العصر أيضا توحّد أوربا تحت راية الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان الإمبراطور شارل الخامس، الشهير بشرلكان على رأسها. إذ تولى هذا الأخير زعامة أوربا وقيادتها للتصدي للعثمانيين في شرق أوربا وشمال إفريقيا.

وخلال هذه الفترة كان المغامرون الأوربيون المدعومون من قِبَل إسبانيا والبرتغال قد بلغوا السواحل الشرقية للقارة الأمريكية، ليؤسسوا في فترة لاحقة مستعمرات يتدفق منها الذهب على أسواق أوربا. كما كان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق إلى الهند، عبر الالتفاف حول السواحل الغربية لإفريقيا، مرورا برأس الرجال

الصالح. وذلك بغية السيطرة على تجارة التوابل القادمة من الهند، دون المرور على الموانئ الإسلامية التقليدية. الأمر الذي أفضى إلى فتح جبهات صراع على مناطق النفوذ بين العثمانيين والبرتغال في سواحل الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية.

وفي مطلع هذا القرن أيضا أدّى سقوط غرناطة في يد الإسبان إلى هجرة آلاف المسلمين إلى بلدان المغرب العربي خصوصا الجزائر، التي استقبلت مدنها الساحلية -لاعتبارات سياسية خاصة- أعدادا هائلة من المهاجرين. فقام الإسبان على إثر ذلك باحتلال معظم مدن وموانئ الجزائر الساحلية، مستغلين الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر خلال تلك الفترة. وذلك بغية قطع الطريق أمام مسلمي الأندلس، لكي لا يتمكنوا من العودة إلى وطنهم مرة أخرى. بالإضافة إلى أهداف استراتيجية واقتصادية أخرى كان الإسبان يهدفون إلى تحقيقها من وراء ذلك.

فكان من أثر ذلك أن قام علماء وأعيان المدن الجزائرية باستدعاء البحارَيْنِ التركييْنِ: عروج وخير الدين بربروس لقيادة حركة المقاومة الإسلامية لتحرير سواحل الجزائر، وتقديم الدعم اللازم لمسلمي الأندلس. فتمكن الأخوان بربروس بدعمٍ قويّ من القوى الدينية والشعبية في الجزائر من تحرير الموانئ الجزائرية، وإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية لضمان حمايتها من الاعتداءات الإسبانية. فأصبحت الجزائر منذ ذلك الحين أهمّ ولاية عثمانية في غرب البحر

المتوسط أُسنِدت إليها مهمة تأمين السواحل المغاربية، ومساعدة مسلمي الأندلس.

وهذه الدراسة تهدف بالدرجة الأولى إلى تسليط الضوء على الظروف والملابسات التي أحاطت بالوجود العثماني في غرب البحر المتوسط عامة -والجزائر خاصة- خلال النصف الأول من القرن 16، والنتائج التي ترتب عن ذلك.

ومن الناحية الزمنية فإن هذه الدراسة سوف تغطي الفترة الأولى من الوجود العثماني بالجزائر، والتي تمتد من 1512 إلى مغادرة خير الدين بربروس الجزائر واستقراره بشكل نهائي في إستانبول سنة 1543. وقد بدا لي أن أتوقف عند هذا التاريخ، وكلّي أمل أن أكون قد ساهمت في فتح الطريق للباحثين لتغطية الفترات اللاحقة من تاريخ الجزائر الحديث في دراسات مماثلة.

هذا؛ وأرى أنه من الجدير التنويه بأن هذه الدراسة سبق وأن صدرت باللغة التركية في إستانبول (أفريل 2012) بعنوان: **(Osmanlılar'ın Cezayir'e Girişi 1512-1543)** بالرغم من أنني كنت شديد الحرص على إصدارها باللغة العربية قبل أن تصدر الطبعة التركية. إلا أن تعديلات مهمّة رأيت من الضروري إدخالها على بعض مباحث الكتاب أدّت إلى تأخّر الطبعة العربية.

وأنتهز هذه الفرصة لأتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني الذي تفضّل -رغم مشاغله الكثيرة-

بتصفح الكتاب وتصديره للقارئ الكريم. كما أخصّ بالشكر صديقي الدكتور محمد نام *Mehmet Nam* الأستاذ المحاضر بقسم التاريخ بجامعة إستانبول، الذي يعود إليه الفضل في متابعة نشر الكتاب في نسخته التركية. وأشكر أيضا الأستاذ محمد بورويبة الذي تفضّل بتصفيف الكتاب ومتابعته تقنيا وفنّيا إلى حين صدوره في طبعته العربية.

كما لا يفوتني أن أشكر أمناء ومستخدمي مؤسسات البحث العلمي التي قدّمت لي مختلف أشكال الدعم والمساندة لإخراج هذا العمل. وأخصّ بالذكر أمناء ومستخدمي مكتبة ومركز الدراسات الإسلامية **İSAM** التابع لوقف رئاسة شؤون الديانة التركية، ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول **İRSİCA** التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، ومكتبة السليمانية، وأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، والمركز الوطني للأرشيف الجزائري، والمكتبة الوطنية الجزائرية، ومكتبة الأسد بدمشق.

فإلى هؤلاء جميعا وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم أحتفظ لهم بامتناني الكبير وشكري الجزيل..

د. محمد دراج

الجزائر في 05 جويلية 2012

مدخل

نظرة عامة على الأوضاع الدولية والإقليمية

في مطلع القرن السادس عشر

الأوضاع في الدولة العثمانية

أولا : الأوضاع الداخلية

عرفت الدولة العثمانية في مطلع القرن 16م تغييرات كبيرة في سياستها المحلية والإقليمية، خصوصا في عصر السلطان سليم الأول الذي كان لسياسته التي سلكها أبلغ الأثر ليس على الدولة العثمانية فحسب، بل على سائر الدول التي ارتبطت بها. فالدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها تعطي أولوية خاصة لآسيا وإفريقيا، وتجعل منهما ميدانا لتوسيع نفوذها بدلا من أوربا التي كانت مجالا للتوسع منذ تأسيس الدولة.

وعندما ندقق النظر في سياسة الدولة العثمانية في هذه الفترة نجد أن قسما منها يرجع إلى إعطاء السلطان ياووز سليم أولوية قصوى للوحدة الإسلامية تحت قيادة واحدة[1]. بينما يرجع قسم آخر من هذه السياسة إلى الظروف المحلية والدولية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في هذه الفترة. ذلك لأن أراضي الدولة العثمانية في أوربا، والتي وصلت إلى نهر التونا لم يعد فيها ما يدعو إلى الخطر[2]

---

(1) انظر: أحمد راسم، عثمانلى تاريخي، إستانبول 1326-1328، 1/ 17.

(2) كانت الدولة العثمانية قد عقدت معاهدة صلح طويلة الأمد استمرت عشرين سنة مع كل من المجر وفرنسا وإنكلترا وإسبانيا والبرتغال ونابولي ورودس. انظر: محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية** =

لقد كانت الظروف تقتضي تدعيم الوحدة الدينية والسياسية داخل الدولة، والتصدي للخطر الصفوي القادم من الشرق.

وهكذا فإن السلطان سليم الأول عندما جلس على عرش السلطنة خلفا لأبيه السلطان بايزيد الثاني (1481-1512)، جعل أول المهمات التي ينبغي عليه إنهاؤها هي تأمين الوحدة الداخلية ليتمكن من التفرغ لمواجهة الخطر الصفوي. فكانت أول عقبة اعترضت طريقه هي تنحية أخيه الأكبر الشهزادة أحمد الذي كان وليا للعهد، ولا زال يطالب بعرش السلطنة[1]. وعلى هذا فقد قام السلطان سليم في 1513 بإعدام أخيه الأكبر الشهزادة أحمد. ثم أعدم بعده بـ38 يوما أخاه الآخر الشهزادة قورقود **Korkut**[2]. ثم

= **العثمانية**، بيروت 1981، ص 188؛ Yılmaz Öztuna, ***Osmanlı Devleti Tarihi,*** *Ankara, 1998, I. s.143.*

(1) كان الشهزادة أحمد (ت: 1512) وليا للعهد بعد وفاة أخيه الشهزادة الكبير أولو شهزادة عبد الله (ت: 1483). لكن السلطان بايزيد الثاني قدم عليه أخاه الأصغر الشهزادة سليم الأول بضغط من الجيش. وذلك بعد تحقيقه لانتصارات كبيرة على الصفويين في حملته على جورجيا سنة 1508. حيث استطاع أن ينتزع منهم كلا من: بايبورت ***Bayburt***، وأرض روم ***Erzurum***، وقارس ***Kars***، وأرتوين ***Ertvin***، وأرزنجان ***Erzincan***، وكموش خانة ***Gümüşhane***. وهي مناطق تقع في الأراضي العثمانية في شرق وجنوب شرق الأناضول. فكان من أثر ذلك أن تضاعفت محبة الناس والجيش للسلطان سليم. انظر: *Öztuna, age, I.s.146-147.*

(2) bkn, *Ahmet Akgündüz ve Said Öztürk, Bilinmeyen Osmanlı,* =

أتبع ذلك بقتل جميع أبناء إخوته، ولم يستبق منهم سوى ابنه الشهزادة سليمان. بينما فرّ عدة أمراء إلى مصر وإيران. لقد كان السلطان سليم يريد أن يقطع الطريق على أي أمير من أبناء إخوته الذين يمكنهم أن يطالبوا بالعرش في أثناء خروجه لقتال الصفويين(1).

ثانيا : الصّدام مع الصفويين

أما على حدود الدولة العثمانية الشرقية، والجنوبية الشرقية، فقد كان الخطر الصفوي يهدد الدولة منذ عصر بايزيد الثاني(2). ولذلك كان لزاما على السلطان سليم أن يجعل حدا لهذا الخطر لكي يتمكن من تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة(3).

İstanbul, s.133.

=

(1) للتوسع في مسالة الصراع بين السلطان سليم ياووز وأخويه وقتله لهما انظر: Öztuna, *age, I.s.151-152 ;* Ziya Kazıcı, *İslam Tarihi, İstanbul, II. s. 185-193- ve konuyla İlgili kıymetli vesikalar için bk:* Uluçay Çağatay, *Yavuz Sultan Selim nasıl Padişah oldu?,* Tarih Dergisi, *II. bilhassa I.s. 56, 62, 64, 69 ve 76.*

(2) Tekindağ Şehabettin, *Yeni Kaynak ve Vesikaların ışığında Yvuz Sultan Selim'in İran seferi, Tarih Dergisi, İstanbul, S.22. (Mart, 1967) s.52.*

(3) كان السلطان سليم الأول يطمح إلى جمع المسلمين في العالم تحت قيادة سياسية واحدة. انظر: راسم تاريخي، مصدر سابق، 1/ 176. ويؤيد ذلك ما أشار إليه الباحث خليل إينالجيك من أن السلطان سليم أعلن=

فقد أسس الصفويون دولة قوية في إيران مكّنت الشاه إسماعيل الصفوي[1] في سنة 1501 من احتلال تبريز وجعلها عاصمة لدولته. ثم استولى عقب ذلك على سائر خراسان والعراق وديار بكر سنة 1508. ثم احتل بعد ذلك مدينة بغداد وأذربيجان وسائر بلاد فارس. وهكذا بسط الصفويون نفوذهم من خليج البصرة حتى بحر الخزر، ومن منابع الفرات إلى نهر أموداريا[2].

كانت الدولة الصفوية قد جعلت من التشيع مذهبا ورسالة لها[3]. ولذلك فقد شرع الصفويون في القيام بدعاية دينية وسياسية كبيرة للمذهب الشيعي والدولة الصفوية في الأناضول. الأمر الذي جعل كلا من العثمانيين والمماليك ينظرون بعين الريبة إلى هذه الدولة الطائفية، فالشاه إسماعيل الصفوي ما إن جلس على عرش الدولة الصفوية حتى قام بإجراءات قمعية كبيرة ضد المسلمين

= في إحدى رسائله التي بعث بها إلى طومان باي بأنه سيملك الشرق والغرب، ويوحد الدولة الإسلامية تحت قيادته. انظر: خليل إينالجيك، **العثمانيون النشأة والازدهار**، مقال منشور في كتاب **دراسات في التاريخ العثماني**، لسيد محمد سيد، القاهرة، 1996 ص 74.

(1) هو الشاه إسماعيل بن الشيخ حيد (1494-1524). ينتهي نسبه إلى صفي الدين بن جبرائيل العلوي الحسيني، المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية التي بلغت أوج قوتها في عصره.

(2) سعيد أحمد برجاوي، **الإمبراطورية العثمانية، تاريخها السياسي والعسكري**، بيروت، 1993، ص 91؛ محمد فريد، ص 189.

(3) لمزيد من التفاصيل عن الصفويين ونشأتهم انظر: Tahsin Yzıcı, Safeviler, *İslam Ansiklopedisi, İstanbul, X. 53-59.*

السنة في إيران، وقام بتحريف الأذان بإضافة عبارة: «**أشهد أن عليا ولي الله**». كما شرع الصفويون في لعن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان في المساجد[1]. وعندما استولوا على العراق أمر الشاه بهدم قبر أبي حنيفة وغيره من علماء أهل السنة[2]. لقد كانت الإجراءات التي قام بها الصفويون توحي بأنهم عازمون على تأسيس دولة طائفية مذهبية لن تتردد في اضطهاد المسلمين السنة متى تمكنت من ذلك.

وفي الوقت ذاته حاول الصفويون عقد تحالف بينهم وبين المماليك ضد الدولة العثمانية، لكن المماليك الذين كانوا يخشون من امتداد الخطر الصفوي إليهم قابلوا هذا العرض ببرودة[3]. كما سعوا إلى التحالف مع البندقية ضد الدولة العثمانية ليجعلوا هذه الأخيرة بين كفي كماشة، فيهاجمها الأوربيون من الغرب، الصفويون من الشرق، بينما يقوم المماليك بمهاجمتها من الجنوب. لكن البندقية التي كانت منهكة من الحرب، وتربطها بالعثمانيين معاهدة سلام لم تتجاوب مع هذا العرض[4].

---

(1) Tahsin *Yazıcı, age, İA, X. s. 53-59*

(2) انظر: شكيب أرسلان، **تاريخ الدولة العثمانية**، دمشق، 2001-1/ 140.

(3) انظر: شمس الدين بن طولون، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، القاهرة، 1964، 1/ 23؛ محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، مرجع سابق، ص 189؛ Öztuna, *Osmanlı Tarihi, age, s.145.*

(4) ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق=

لم يكتف الصفويون بالسعي لعقد تحالفات ضد الدولة العثمانية، بل سعوا إلى تأليب الأهالي والأمراء المحليين في الأناضول ضد الدولة. فقد قام وكيل الشاه المكلف بالدعاية الصفوية في الأناضول والملقب بـ«عبد الشاه» بقيادة حركة تمرد واسعة اهتزت لها الدولة من أنطاليا إلى سيواس. ولم يكتف بذلك بل قام بعمليات إبادة جماعية لأهالي تلك المناطق الذين لم يتجاوبوا مع حركته[1].

كانت هذه الحركات الخطيرة التي أقدم عليها الصفويون كافية لإثارة السلطان سليم الأول، الذي كان يرى بأن القضاء على الدولة الصفوية شرط ضروري لتثبيت استقرار الدولة العثمانية. ومن ثم لم يجد بُدًّا من المسير إليهم، بعدما اطمأن إلى سلامة الجبهة الداخلية.

ففي بادئ الأمر فرض على الصفويين حصارا شديدا، وأغلق الحدود مع إيران، ومنع الدخول والخروج منها وإليها. كما قطع جميع العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين. فكان من أثر ذلك أن انقطع الدعم العسكري عن شيعة الأناضول الذي كان يأتيهم من الصفويين. ثم استصدر من كبار علماء دولته[2] فتاوى

= محمد مصطفى، القاهرة، 1984. 4/ 194.

(1) انظر: Akgündüz, *age, s.135-137* .

(2) كان على رأس العلماء الذين أفتوا بقتل شيعة الأناضول الشيخ حمزة أفندي الذي كان من كبار علماء عصره. توفي بإستانبول سنة 1521. انظر ترجمته في: Bursalı Mehmet Tahir, *Osmanlı müellifler, İstanbul, 1333-1342 (1915-1924), I. s.341;*
وانظر نص الفتوى في تكين داغ، مرجع سابق، ص79. أما الفتوى=

تجيز له قتل الشيعة الصفويين واعتبارهم خارجين عن الإسلام[1]. فكان من أثر ذلك أن قام بإحصاء جميع شيعة الأناضول، ثم قام بمقتلة كبيرة فيهم راح ضحيتها آلاف العلويين اختلف المؤرخون في عددهم[2]. ثم سار بعد ذلك لقتال الشاه إسماعيل. فاشتبك العثمانيون مع الصفويين في ميدان جالديران في أوت 1514، حيث انكشفت المعركة عن انتصار العثمانيين وهزيمة الصفويين بينما لاذ

= الأصلية فهي محفوظة في أرشيف **متحف طوب قابي سرايي**، ر: 6401.

(1) من المفيد هنا التذكير بأن شيخ الإسلام ابن الكمال ألف رسالة بالعربية عنوانها «**رسالة في فكر الروافض**» بين فيها أن الشيعة الصفويين كفار خارجون عن الإسلام، ولذلك فإن قتالهم يعتبر جهادا في سبيل الله. والملاحظ هنا أنه ليس العثمانيون فقط الذين لجؤوا إلى استعمال سلاح الدين ضد خصومهم؛ بل إن الشاه إسماعيل الصفوي أيضا استعمل نفس السلاح. فقد استصدر هو الآخر من علماء الشيعة فتاوى بينوا له فيها أن قتال العثمانيين من أعظم الجهاد. انظر: إيفانوف **الفتح العثماني للبلاد العربية**، مرجع سابق، ص 60–60. وعن استعمال الدين كسلاح ضد الخصوم لتحقيق مكاسب سياسية، انظر الكتاب القيم الذي نشره المفكر الإيراني علي شريعتي بعنوان: «**دين ضد دين**» فهو من أحسن ما كتب عن الموضوع.

(2) هناك خلاف كبير بين المؤرخين المتقدمين والمحدثين حول العدد الحقيقي للقتلى، والفئة التي تم قتلها. لمزيد من التفاصيل انظر: خوجة سعد الدين أفندي، **تاج التواريخ**، 2/ 245؛ وانظر أيضا:
Uzunçarşılı, *Osmanlı Tarihi, II. 225 2231, 253-270;* Ahmet Akgündüz, *Bilinmeyen Osmanlı, age s.135-137,* Tekindağ, *age, s.55-56.*

الشاه إسماعيل بالفرار. ودخل العثمانيون مدينة تبريز عاصمة الصفويين في سبتمبر 1514.

ونظرا لحالة التذمر التي بدأت تظهر في أوساط الجيش العثماني، وخوفا من مهاجمة المماليك له من الخلف، أمر السلطان سليم الجيش بالانسحاب من مدينة تبريز. دون أن يتمكن من استثمار هذا النصر، وتتبع الشاه الهارب للقضاء على الدولة الصفوية، واكتفى بكسر شوكتها المادية والمعنوية[1].

لقد كان من نتائج هذه المعركة إضعاف الدولة الصفوية وزوال خطرها الذي أَقَضَّ مضجع الدولة العثمانية، واستخلاص ديار بكر، وبتليس، وأروفة، وماردين وما جاورها، وضمها إلى ممتلكات الدولة العثمانية. كما تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم على أقصى شرق، وجنوب شرق الأناضول عن طريق الإلحاق، أو بواسطة المعاهدات التي عقدتها الدولة مع الأسر الحاكمة، ورؤساء القبائل المتنفِّذة في تلك الجهات[2].

وبضم الدولة العثمانية هذه المناطق إلى ممتلكاتها، أصبحت تسيطر سيطرة تامة على طريق تجارة الحرير (تبريز حلب بورصة)، مما جعل هذه المراكز الغنية مصادر دخل عظيمة لخزينة الدولة على المدى الطويل. فقد كان دخل إيالة ديار بكر في عام 1528 يساوي

---

(1) خليل إينالجيك، مرجع سابق، ص 75.

(2) نفسه، ص75؛ وانظر أيضا: İsmail Hakkı Uzunçarşılı, *Osmanl Tarihi, Ankara, 1988, IV.271-276.*

مجموع الدخل العام للدولة الذي يدخل خزينتها من كافة ولاياتها في البلقان[1].

ثالثا : القضاء على دولة المماليك

عندما اطمأن السلطان سليم على الجبهة الصفوية، توجه إلى الشام للقضاء على دولة المماليك، مزيلا بذلك آخر عائق يحول بينه وبين جلوسه على سدّة الزعامة السياسية والروحية للعالم الإسلامي. فالتقى الجيشان العثماني والمملوكي في سهل مرج دابق شمال حلب في أوت 1516 واشتبكا في معركة كبيرة أسفرت عن انتصار العثمانيين وهزيمة المماليك، ومقتل السلطان المملوكي قانصو الغوري[2]. فدخل السلطان سليم مدينة حلب، ومنها سار إلى لبنان، ثم فلسطين، ومنها عبر إلى مصر عبر صحراء سيناء.

في الوقت الذي كان يسير فيه السلطان سليم إلى مصر انتخب المماليك طومان باي سلطانا عليهم في مصر. فقام هذا الأخير بالتصدي للجيوش العثمانية في ميدان الريدانية، إلا أنه مني بهزيمة كبيرة. وألقي عليه القبض، وتم إعدامه[3].

لقد كان لدخول العثمانيين إلى مصر آثار عميقة ليس على مصر فحسب؛ بل على كل المنطقة العربية التي كانت خاضعة لنفوذ

---

(1) المرجع السابق، ص 77.

(2) انظر تفاصيل معركة مرج دابق وما تبعها من حوادث في محمد فريد بك، مرجع سابق، ص 18؛ Uzunçarşılı, *age, IV*. 288-290 .

(3) عن إعدام طومان باي، انظر: Uzunçarşılı, *age, IV*. 291-292.

المماليك. ذلك لأن النفوذ العثماني شمل بالإضافة إلى مصر سائر بلاد الشام واليمن والحجاز والحبشة وشرق السودان وأريتريا والصومال، وجميع السواحل المطلة على البحر الأحمر، وانفتح لها الطريق إلى المحيط الهندي عن طريق البحر، فبلغت سواحل الهند في عصر القانوني. وسوف نرى في ثنايا هذا البحث امتداد النفوذ العثماني إلى شمال إفريقيا، انطلاقا من الجزائر التي صارت منطلقا للتوسع العثماني في المغرب العربي، فتمكنت من جعل البحر المتوسط بحيرة عثمانية[1].

ومن هنا فإنه يمكننا أن نستخلص النتائج المباشرة التي ترتبت عن دخول العثمانيين إلى مصر فيما يلي:

1. انتقال البلاد العربية التي كانت تحت نفوذ دولة المماليك إلى ممتلكات الدول العثمانية. مما ترتب عنه انتقال الإمكانيات الاقتصادية التي كانت تختص بها هذه المنطقة إلى الدولة العثمانية. الأمر الذي أَهَّلَهَا لأن تكون في موضع يمكِّنُها من فرض سيطرتها على المضايِق المائية الرئيسية (مضيق هرمز، باب المندب، مضيق جبل طارق).

وبالإضافة إلى سيطرتها على طريق تجارة الحرير (تبريز حلب بورصة)، فقد أصبحت تسيطر على طرق التجارة الدولية الأخرى، مثل: (طريق تجارة الهند التي تمر عبر البحر الأحمر إلى مصر ومنها

---

(1) Zuhuri Danişman, *Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, İstanbul,* *(thz), V. 24-246.*

إلى أوربا، وطريق تجارة الصحراء الكبرى الذي يمر عبر تلمسان وتونس ومنهما إلى أوربا) فكان لذلك أبلغ الأثر في دعم خزينة الدولة بموارد مالية كبيرة مكَّنتها من تمويل. نفقات الحملات العسكرية الكبرى التي قام بها السلطان سليمان في أوربا فيما بعد.

2. بدخول العثمانيين إلى مصر بدأت الشعوب الإسلامية والعربية تشعر بأنه يمكنها أن تحتمي بالسلطان العثماني لرد اعتداءات الإسبان والبرتغال. فبدأت الوفود تصل إلى السلطان منذ أن كان في مصر، ثم تتابعت في إستانبول عارضة تبعيتها للدولة العثمانية أو طالبة حمايتها مما تتعرض له من غزو مسيحي على سواحلها[1]. وكان من أشهر هذه الوفود وفد شريف مكة أبي البركات الذي أرسل بواسطة ابنه إلى السلطان سليم مفاتيح الكعبة والأمانات المقدسة معلنا تبعيته للدولة العثمانية[2]. وكذلك الوفد الذي أرسله

---

(1) فقد وصلت إلى إستانبول وفود من مكة، والهند، والعراق، والحبشة، والأندلس، وطرابلس الغرب، والجزائر ..وغيرها، وكلها تطلب حماية السلطان، أو تعرض تبعيتها للدولة العثمانية، أو تطلب منه ممارسة نفوذه السياسي لوقف الاعتداءات النصرانية على بلادهم. عن هذه الوفود انظر: ابن إياس، **بدائع الزهور** 5/ 189؛ إيفانوف، **الفتح العثماني للبلاد العربية**، ص 161-163.

(2) لمزيد من التفاصيل عن موضوع الأمانات المقدسة، انظر:
Danişmend, *İsmail Hami, İzahlı osmanlı Tarihi Kronolojisi, İstanbul. 1947-67, II. s.43.*

أهالي الجزائر لاحقا إلى إستانبول عارضين فيه تبعيتهم[1]. الأمر الذي ساهم بدوره في تسهيل بسط العثمانيين نفوذهم على سائر البلاد العربية.

3. من الآثار الدينية والسياسية الهامة الأخرى التي انعكست على مستقبل الدولة العثمانية نتيجة لفتح مصر، استصحاب السلطان العثماني للخليفة العباسي المتوكل على الله معه إلى إستانبول، وما تبع ذلك من انتقال الزعامة الروحية والسياسية إلى العثمانيين. إذ صار المسلمون منذ ذلك التاريخ ينظرون إلى السلطان العثماني على أنه خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين[2].



(1) سيأتي الحديث عنه في مبحث : التحاق الجزائر بالدولة العثمانية في هذه الدراسة.

(2) عن انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين انظر الدراسة القيمة «السلطان سليم والخلافة» **مجلة آراء وأبحاث**، الجامعة اللبنانية، بيروت 1976، ص16-17؛ وانظر أيضا: محمد فريد بك، ص94؛ سعيد برجاوي، **الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري**، ص 100-101.

الأوضاع في أوروبا

نظرا للصلة الوثيقة التي تربط الأحداث والمتغيرات التي كانت تجري في أوربا في مطلع هذا القرن بما كان يحدث في شمال إفريقيا عموما والجزائر خصوصا، أرى من الضروري أن نلقي نظرة عامة على الأوضاع في أوربا في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، لنتمكن من القراءة الشاملة لموضوع البحث من جميع جوانبه :

أ- الأوضاع السياسية.
ب- الأوضاع الاقتصادية.
ج- حركة الإصلاح الديني.

أولا: الأوضاع السياسية

1- إسبانيا :

في مطلع القرن 16م كانت أوربا تتعرض لتغيرات عميقة في جغرافيتها السياسية لم تعرفها من قبل. فأوربا منذ عهد شرلمان يعني منذ القرن 9م لم تعرف دولة مسيحية موحدة، باستثناء الإمبراطورية البيزنطية. وهكذا فإن تَوَحُّدَ أوربا تحت راية واحدة يعتبر في غاية الأهمية. كما أنه سوف يعرّض أكثر من دولة أوربية للخطر.

ففي سنة 1504 توفيت الملكة إيزابيلا ملكة إسبانيا، فانتقلت وراثة العرش بشكل تلقائي إلى حفيدها الملك الشاب شارل

الخامس الملقب بشارلكان[1]، وذلك نظرا لتعذّر تولي أمه جوانا العرش بسبب إصابتها بمرض عصبي[2]. وهكذا انتقل إليه عرش إسبانيا وما يتبعها من الممتلكات الأخرى في إيطاليا، والبحر المتوسط، وشمال إفريقيا.

كان شارلكان ينحدر من سلالة أرشيدوق هابسبورغ[3]. إذ كان والده فيليب الجميل الذي توفي بشكل مفاجئ سنة 1506 فانتقل إليه عرش سويسرا وبرغونيا والنمسا[4].

---

(1) تولى الحكم بعد والده فرديناندو في 1516. ثم انتخب إمبراطورا لإمبراطورية روما المقدسة. قضى فترة حكمه في محاربة أعدائه، إلى أن تنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني سنة 1556. اعتزل في معبد يوست ***Yuste***، وبقي معتكفا فيه إلى أن توفي في 1558. انظر: بلحميسي مولاي، **غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541.** مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد 8، السنة 2، شهر ماي، جوان 1972، ص 91.

(2) Ahmet Asrar, *Kanuni Sultan Süleyman ve İslam Alemi; Hilal Yayınları, İstanbul, s .52* .

(3) آل هابسبورغ أكبر وأقدم أسرة حاكمة في أوربا. أسست إمبراطورية روما المقدّسة ما بين 1273- 1438. ثم حكمت إسبانيا ومعظم ممالك أوربا ما بين 1516- 1700. يعتبر شارل الخامس الملقب بشارلكان أعظم أباطرة هذه الأسرة. إذ شمل نفوذها كامل أوربا تقريبا في عهده. انظر: جان بيرنجييه وزملاؤه، **تاريخ أوربا العام،** منشورات عويدات، بيروت 1995، 2/ 324-327؛ وانظر أيضا: Türk Ansiklopedisi. *M.E.B. XVIII. Ankara . 1970.s:264.*

(4) Ahmet Asrar. *Kanuni Sultan Suleyman ve İslam Alemi.* =

وفي نفس السنة توفي جده لأمه ملك قشتالة، نابولي، وصقلية، الملك فرديناندو[1]. وهكذا اجتمعت تحت سلطته أربع ملكيّات في وقت واحد. كما كانت تتبعه المستعمرات الأمريكية المكتشفة حديثا.

وفي عام 1519 انتخب الملك شارلكان إمبراطورا لإمبراطورية روما المقدسة في مكان أبيه[2]. فأصبح بهذه الحقوق الملكية إمبراطورا على النمسا، وألمانيا، بالإضافة إلى بلجيكا، وهولندا، اللتين كانتا تتبعان التاج الإسباني. كما أن سردونيا، ولكسمبورغ، وبرغونيا، والألزاس، واللورين، ومناطق مختلفة من شمال إيطاليا دخلت تحت سلطة شارلكان في فترات مختلفة. إضافة إلى ذلك فإن زواج أخته إيزابيلا بملك الدنمارك جعل نفوذه يمتد إلى البلاد الإسكندنافية[3] وعليه فإنه من الطبيعي أن نجد دولا أوربية كبرى مثل فرنسا وإنجلترا تعيشان تحت هاجس الشعور بوجود خطر حقيقي يهدد استقلالهما[4].

وهكذا أصبحت إسبانيا في مطلع القرن 16م أقوى دولة مسيحية في أوربا. وبتوحّدِها مع ألمانيا تضاعفت قوتها، فباتت

= *ayn.s.52.*

(1) بيرجينييه، 2/ 327.

(2) انظر: رولان موسنييه. **تاريخ الحضارات العام**، ترجمة: يوسف أسعد داغر، منشورات عويدات، بيروت 1994. 4/ 196.

(3) *Asrar, s.52*.

(4) Yilmaz Öztuna. *Büyük Türkiye Tarihi. Ötüken Yayınevi. İstanbul. 1977. III.s.312.*

تشكل خطرا كبيرا على الدول المجاورة.

ومن الجدير بالذكر أن مملكة قشتالة والأرغون توحّدتا عن طريق الزواج[1]. وبهذه الصورة تم توحيد إسبانيا المسيحية. لقد كانت هذه الوحدة سببا مباشرا في إنهاء الوجود الإسلامي من الأندلس الذي كان قد انحصر في عاصمة بني الأحمر: غرناطة. ففي 25 نوفمبر 1491 دخلت قوات الأراغون وقشتالة الموحدة مدينة غرناطة، لتبدأ بعد ذلك مرحلة أخرى من مراحل سياسة إنهاء الوجود الإسلامي من الأندلس الذي دام 781 عاما، والتي أطلق عليها اسم: «حروب الاسترداد»[2]. وقد نُفِّذت هذه السياسة على مدى قرن ونصف ونظرا لصلة هذه المسألة بموضوع بحثنا فإننا سوف نعود إليها عند الحديث عن أوضاع المسلمين في الأندلس.

وباستثناء السواحل البرازيلية التي وطئها البرتغاليون، فإن

---

(1) عن توحد مملكة قشتالة والأرغون، انظر: شكيب أرسلان، **تاريخ الأندلس**، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983، ص 160-162.

(2) حروب الاسترداد: هي الحروب التي أعلنتها إسبانيا على المسلمين في الأندلس بغية استعادتها منهم، ثم توسعت بعد ذلك لتشمل تنصير المسلمين في شمال إفريقيا كله. للتوسع انظر:

Frend Broudel, *Les Espagnols et Afrique du Nord de 1492 à 1577 en revue Africaine .1928.P.199.*

وانظر أيضا: عبد الجليل التميمي. **الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن** 16. بحث ألقي في المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية، زغوان، تونس 1990.

السواحل الواقعة شمال ووسط أمريكا، وجزر الأنتيل كانت خاضعة للنفوذ الإسباني. وبعد ذلك سوف يشهد هذا القرن بداية التّوغّل الإسباني في عمق القارّة الأمريكية الجنوبية، حيث تقف ممالك الهنود الحمر عاجزة عن مقاومة الأسلحة النارية الإسبانية.

وبالإضافة إلى إسبانيا، فقد كانت ثمة ممالك أوربية تشهد هي الأخرى تغيرات جيوسياسية لا تقل عمقا عما كان يحدث في إسبانيا، وإن كان بشكل آخر، منها: المجر، فرنسا، إنجلترا، البندقية، البرتغال، إيطاليا، ألمانيا.

2- المجر:

كانت المجر تشمل في هذا العصر: ترانسلفانيا، سلوفينيا، سلوفاكيا، مورافيا، بولونيا، روتينيا وجميع المناطق الواقعة شمال يوغسلافيا. وعلى هذا فقد كانت تعتبر أقوى دولة مسيحية بعد الإمبراطورية الإسبانية - الألمانية. وبالرغم من قوتها فقد شهدت سنة 1521 سقوط قلعة بلغراد على يد السلطان سليمان القانوني، والتي كانت تمثل البوابة الرئيسية لأوربا الوسطى[1].

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن سقوط قلعة بلغراد، انظر: **نتائج الوقوعات**، دار الطباعة العامرة، إستانبول 1293هـ، 1/ 108؛ وانظر أيضا: Tavarihi Ali-Osman. *Hazırlayan: Şarefeddin Turan, T.T.K, Ankara. (bakın: hazırlayanın önsözü);* İsmaıl Hakkı Uzunçarşılı. *Osmanlı Tarihi, T.T.K. Basımevi, Ankara. 1988, C.I. s.310-312.*

وبسبب الضربات القوية التي تلقتها من العثمانيين انقطعت صلتها تماما بالبحر الأسود. أما الخيط الحريري الرفيع الذي كان يربطها ببحر الأدرياتيك فقد كان يتعرض لتهديد البندقية. وهكذا تحولت المجر إلى دولة معزولة عن العالم الخارجي، تنتظر سقوطها في أيدي العثمانيين بين آونة وأخرى. وتحت الضغط الخارجي وجدت نفسها مضطرة إلى عقد تحالف مع الإمبراطورية الإسبانية - الألمانية الموحّدة. خصوصا وأن ملك المجر لويس الثاني كان صهرا للإمبراطور شارلكان، إذ كان متزوجا بأخته الدوقة ماريا. وعلى هذا فمن الطبيعي أن تمثل المجر الجناح الشرقي للإمبراطورية الإسبانية - الألمانية المواجهة للعثمانيين في أوربا.

3- فرنسا :

أما فرنسا فقد كانت تتطلع إلى الاستيلاء على شمال إيطاليا، فحدودها في هذا الوقت كانت أكثر ضيقا من ذي قبل. وكثير من ولاياتها الشمالية - خصوصا الشمالية الشرقية منها - كانت تحت حكم الألمان. وبسبب الاختلافات المذهبية، وتولّي شارلكان زعامة أوربا، فإن الملك الفرنسي فرنسوا الأول كان يعتبره عدوه الأخطر. ولأجل ذلك عقد عدة تحالفات عسكرية مع العثمانيين[1].

---

(1) بخصوص التحالفات التي عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا انظر: كاتب جلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، المطبعة البحرية، إستانبول 1329هـ ص 59، وانظر أيضا:
=İsmail Soysal, *Türk-Fransız Diplomasi Münasebetlerinin*

4- إنجلترا :

كانت إنكلترا تسير بخطى وئيدة لتكون دولة بحرية، وتصل إلى مستوى جيد من الرّقي والتقدم. كما أنها كانت تتوجّس خيفة من النفوذ الإسباني، ومن ثم فقد وجهت اهتماماتها إلى النشاط البحري. وبسبب حرب المئة سنة مع فرنسا[1]، فقدت قوتها وفقدت في الوقت ذاته الأراضي الفرنسية التي كانت تحتلها؛ بينما خرجت فرنسا أكثر قوة منها، وأكثر قدرة على مقاومة نفوذ شارلكان[2].

5- البندقية :

لم تعد البندقية القوة البحرية الأولى كما كانت من قبل، فقد حلّ العثمانيون محلها منذ مدّة طويلة. لكنها احتفظت بنفوذ محدود في بحر إيجة. أما جزيرتي قبرص وكريت، فقد كانتا تابعتين لها.

وعلى صعيد النشاط البحري، فإنه لم يكن ثمة داع لاصطدام البنادقة بالبرتغاليين والإسبان الذين تحولوا إلى قوة بحرية في مطلع هذا العصر؛ ذلك لأن نشاط البرتغاليين كان عموما خارج البحر المتوسط، وتحديدا: في المحيط الأطلسي، والهندي، ومضيق هرمز، والبحر الأحمر. أما الإسبان فإن نفوذهم البحري كان في السواحل الأمريكية المكتشفة حديثا، وفي سواحل شمال إفريقيا. وهي كما يبدو

= *İlk Devresi. Tarih Dergisi, Eylül 1951, Mart 1952.*

(1) بخصوص حرب المائة سنة بين فرنسا وإنكلترا، انظر: جان بيرنجييه وزملاؤه، **تاريخ أوربا العام**، مرجع سابق، 2/ 132 – 133.

(2) Yılmaz Öztuna, *Büyük Türkiye Tarihi, III.s.31* .

مناطق بعيدة عن نشاط البنادقة. وهكذا أصبح البحر المتوسط في مطلع القرن 16 م تتنافسه ثلاث قوى رئيسة : البندقية، والإسبان، والعثمانيون الذين سيطروا عليه سيطرة شبه تامة ابتداء من معركة بروزة في 1538[1].

6- البرتغال :

باكتشاف الرحالة البرتغالي فاسكو دي غاما لطريق الهند الشرقية بدأت مملكة البرتغال تحقق نجاحات بحرية عادت عليها بأرباح هائلة، أهلتها لأن تأخذ مكانتها اللائقة ضمن الدول الأوربية الكبرى. إلا أن قوتها العسكرية الناشئة لم تكن تؤهلها لتجعل منها دولة منافسة لإسبانيا.

ونظرا للنجاحات التجارية التي حققها الإسبان باكتشافهم لأمريكا، والبرتغاليون في المحيط الهندي، حيث اكتُشفت طرق جديدة للتجارة العالمية، فإن البندقية بدأت تفقد أهميتها كوسيط تجاري بين الشرق والغرب، وإن كانت لم تفقد قيمتها كدولة قوية شرق البحر المتوسط، والبحر الأدرياتيكي.

7- إيطاليا :

كانت مملكة هولندا وبلجيكا المتّحدتين، وقسما مهمّا من إيطاليا تحت الحكم الإسباني، أو تحت نفوذه. أما شمال إيطاليا فقد تكونت

---

(1) سيأتي الحديث عن بسط النفوذ العثماني على البحر المتوسط أثناء التطرق إلى معركة بروزة ***Preve*** من هذه الدراسة.

فيه عدد من الدويلات الصغيرة. وأما روما التي تقع في وسط إيطاليا، فقد كانت تابعة للبابا الذي وجد نفسه هو الآخر خاضعا لنفوذ شارلكان[1].

8- ألمانيا :

كان فيها نحو 500 دويلة صغيرة، كلها خاضعة للإمبراطورية الألمانية التي عاصمتها الرسمية فيينا.

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية

وأما على الصعيد الاقتصادي فقد شهدت نظم أوربا الاقتصادية بداية تحوّل من اقتصاد «عيني» كان سائدا في القرون الوسطى، إلى اقتصاد «نقدي». كما أخذ الفكر الاقتصادي يشهد استقلالا عن المفاهيم الدينية التي كانت سائدة من قبل .فأقيمت المصارف، وظهر الرأسمال الربوي، وانتشر التعامل بالصكوك، والعقود المكتوبة، ووُضِعت قوانين اقتصادية تحدد علاقة المواطن بالدولة. وأصبحت التحالفات والمنازعات الدولية تقوم على أساس المصلحة الاقتصادية دون مراعاة للمذهب الديني. كما ساهمت حركة الكشوف الجغرافية في تنشيط الحركة التجارية الاستعمارية، ففُتحت أمام الأوربيين أسواق جديدة تدفّقت منها أموال إضافية. فامتلكت بفضلها دول أوربية كميات وافرة من الذهب والفضة.

---

(1) Öztuna, *Büyük Türkiye Tarihi, III. s: 317*.

كان لها دور كبير في نمو البرجوازية فيما بعد[1].

كما لعبت الكشوف الجغرافية في مطلع القرن 16م دورا كبيرا في تبديل أوضاع المجتمع الأوربي؛ حيث أدى إلى انتعاش الطبقة البرجوازية التجارية من جرّاء تراكم الأرباح في أيديها وسيطرتها على مقاليد الاقتصاد.

إضافة إلى ذلك فقد ساهمت أي الكشوف الجغرافية إلى حدٍّ بعيد في ظهور الإنتاج الرأسمالي الضخم، الأمر الذي أدّى إلى الإقبال على استعمار البلاد المُكتشَفَة واستغلال ثروات شعوبها بأشدّ الطرق قسوةً ووحشيةً. وذلك لتصريف الصناعات التي فاضت في الأسواق الأوربية.

وأدت الكشوف الجغرافية أيضا إلى انتقال مركز التجارة إلى البحار الغربية الجنوبية، فأنهت عهد البحر المتوسط، وانتقلت الزعامة إلى دول أوربا الغربية. وفقدت الموانئ الإيطالية أهميّتها بعد سيطرتها على التجارة الأوربية منذ القرن العاشر الميلادي.

كما تدفقت المعادن الثمينة على أوربا -خاصة الذهب والفضة-، حيث تم اكتشاف مناجم الذهب في البيرو والمكسيك، ومناجم الفضة في بوليفيا، فأدّى توفّر النقد إلى زيادة وارتفاع الأسعار نحو أربعة أضعاف[2].

---

(1) انظر: وول ديورانت، **قصة الحضارة**، مرجع سابق، 20/ 35.

(2) رولان موسنييه، **تاريخ الحضارات العام**، مرجع سابق، 2/ 117.

ثالثا: حركة الإصلاح الديني

في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوربا حركة تحول سياسي واقتصادي بفضل بروز القوتين الناشئتين: الإسبانية والبرتغالية، وبفضل حركة الكشوفات الجغرافية، وانتقال مركز التجارة العالمية إلى أوربا الغربية، كانت تشهد في الوقت نفسه حركة نهضة فكرية ودينية تولّدت عنها أزمة دينية عنيفة لم تعرفها الكنيسة الكاثوليكية من قبل. هذه الأزمة أحدثت بدورها انقلابا كبيرا في التفكير الديني، وانقساما خطيرا داخل الكنيسة نفسها. ويمكن تلخيص أسباب هذه الأزمة فيما يلي:

1. مفاسد رجال الدين، وانهماكهم في الشهوات، وتملقهم للأغنياء، واتخاذهم الدّينَ وسيلة لاكتساب المال. إذ كانوا يشترطون لمغفرة الذنوب وقبول التوبة، أن يعترف المذنب أمام القسيس. كما احتكروا فهم الإنجيل وتفسيره، بالإضافة إلى عبثهم بأموال الكنائس والأديرة. حتى بات رجال الدين لا يختلفون عن الأمراء وفي ترفهم[1].

2. ساهم نمو الشعور القومي في هذا العصر في دفع الصراع ضد الكنيسة كمؤسسة عالمية. فقد اتخذه الأمراء أول الأمر سلاحا ضد البابا، ورجال الدين الذين كانت تتدفق عليهم

---

(1) وول ديورانت، **قصة الحضارة**، 22/ 69-71. وعن مفاسد رجال الكنيسة انظر: موسينييه، 4/ 77.

أموال الضرائب، وصكوك الغفران، وأوقاف الكنائس والأديرة من سائر أنحاء العالم المسيحي.

3. ساعد اكتشاف الطباعة على انتشار حركة التنوير واطلاع العامة على أفكار المصلحين الدينيين، وعلى نشر ما كان يوجَّه إلى الكنيسة من نقد. كما يسّرت الطباعة للعامة أيضا إمكانية الاطلاع على الكتاب المقدّس، وتفسيراته المتعددة، وجعلت ملكيته شائعة بين الناس، يعودون إلى قراءة نصوصه متى شاءوا. وهكذا قضت الطباعة على احتكار رجال الدين للتعليم والتربية اللذَيْن طالما بقيا في أحضان الكنيسة حتى هذا العصر.

4. تعتبر بدعة «صكوك الغفران» التي رَوَّجَها البابوات عن طريق رجال الدين، من العوامل الأساسية التي أثارت استياء جميع المصلحين. وهي ضريبة غير مباشرة تحولت مع مرور الزمن إلى مورد مالي كبير سهل المنال. وأصلها أن أيَّ إنسان ارتكب خطيئة، وتاب منها واعترف بها أمام القسيس كان عليه أن يكفر عنها بالصلاة والصوم، ثم اسْتُعِيضَ عنها بالحج إلى روما، وأخيرا بشراء «صكوك الغفران». وهكذا أصبح بإمكان المُذنب شراء «صكوك الغفران» للحصول على المغفرة بدل خطيئة ارتكبها، أو يمكن أن يرتكبها في المستقبل. مما يعتبر تحريضا على الانغماس في الخطايا، طالما أن مرتكبيها قد دفعوا المال بدلا عنها[1].

والحقيقة أن حركة الإصلاح الديني انطلقت بصوت خافت

---

(1) للتوسع انظر: وول ديورانت، :22/ 50.

في وقت مبكر نسبيا. فقد هاجم ويكلف ***wycleffe*** (1320-1384)[1] في كتاباته عن مفاسد رجال الدين. وانتقد انهماكهم في جمع الأموال، واتهمهم بأنهم يبيعون دم المسيح بدنس الأموال. كما أنكر إرسال الأموال إلى روما، وطالب بفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية.

كما ندد جان هاس ***Jean Hess*** (1410-1370) بمفاسد رجال الدين، ونزع عن أوامر البابا صفة القداسة[2].

لكن أشهر من تزعم حركة الإصلاح الديني وتصدى لمقاومة مفاسد المؤسسة البابوية هو مارتن لوثر ***Luther*** (1546-1484)[3] إذ هالته مظاهر فساد وانحلال رجال الدين، وهاجم بدعة صكوك الغفران، معتبرا أن الله يغفر الذنوب جميعا إذا تاب الإنسان المؤمن

---

(1) **ويكلف *wycleffe*** زعيم الحركة الإصلاحية في إنجلترا، تعمق في الدراسات الدينية في جامعة أكسفورد، ثم اتخذها فيما بعد منبرا لبث أفكاره. انظر: محمد مخزوم، **مدخل لدراسة التاريخ الأوربي**، دار الكتاب اللبناني . بيروت .ص 106.

(2) انظر: محمد مخزوم، ص 107؛ وس. درسون، **الحركة الإنسانية والنهضة**، ترجمة عمر شخاشيرو، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972، ص85.

(3) **مارتن لوثر *Luther*** (1546-1484) مصلح ألماني، تأثر بكتابات القديس أوغسطين، ودرس القانون في جامعة أرفورت ***Erfurt***. كما درس اللاهوت في جامعة وتنبرغ ***Wittenburg*** ثم صار أستاذا لعلم اللاهوت. يعتبر أشهر مؤسسي الكنيسة البروتستانتية.

إليه. ومن أهم المبادئ التي دعا إليها لوثر:

- وجوب إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية، وإعطاء الإمبراطور والأمراء سلطة تفوق سلطة الكنيسة.
- الكتاب المقدس هو قانون الإيمان الوحيد. وليس لأحد حتى البابا نفسه الحق في احتكار تفسيره. إذ يحق لكل إنسان عاقل قراءة نصوص الكتاب المقدس، وتفسيرها وفق مفاهيمه.
- إباحة الزواج والطلاق لجميع المسيحيين، بمن فيهم القساوسة، وتحريم التبتل والنذور.
- إزالة التماثيل والصور، وعدم تقديس القديسين؛ لأنه نوع من عبادة الأوثان.

كما دعا لوثر إلى العودة بالمسيحية إلى عصورها الأولى. وأكد على وجوب الاستسلام والطاعة للسلطة الزمنية. كما أحيا بترجمته الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية الشعور القومي ليس في ألمانيا فحسب بل في أوربا كلها. كما أنه ساهم في تطور الفكر الأوربي الحديث، وذلك بالدعوة إلى الرجوع إلى النصوص والاحتكام إلى العقل، والدعوة إلى التخلي عن الأوهام والعادات التي استطاع رجال الدين على مر العصور إلصاقها بالمسيحية، خدمة لأغراضهم الشخصية[1].

هذا وقد أدت حركة الإصلاح الديني التي تزعمها لوثر في

---

(1) مخزوم، مرجع سابق، ص 126.

ألمانيا إلى انقسام حادّ في المجتمع الألماني، بل وفي أوربا المسيحية كلها[1]. حيث اندلعت الحرب الأهلية بين قوات الإمبراطور شارل الخامس والبروتستانت في 1545، انتصر فيها البروتستانت. وانتهت بإقرار كل إقليم في اختيار المذهب الديني الذي يريد[2].

كما اشتعلت الحرب الأهلية في سويسرا بين الكاثوليك، والجيوش البروتستانتية في كابل ***Cappel*** سنة 1532 انهزم فيها البروتستانت، وانتهت بعقد صلح تعهد فيه الطرفان بأن يترك كل منهما الآخر يعيش في سلام، معتنقا العقيدة التي يختارها على أن تلتزم المقاطعات البروتستانتية بدفع نفقات الحرب، وإعادة الأراضي الكاثوليكية المصادرة.

وفي الوقت ذاته دخلت أوربا في حركة اضطهاد ديني عنيف لم تعرفه من قبل. ففي إنجلترا اعتنق الملك هنري الثامن المذهب البروتستانتي، معلنا استقلاله عن روما، وجعل من نفسه حاميا للكنيسة. فضم بذلك إلى نفسه السلطة الدينية بالإضافة إلى سلطته الزمنية[3]. ثم قام بحملة إرهاب ديني ذهب ضحيتها كثير من المعارضين الذين رفضوا الموافقة على أداء قسم يعترفون فيه بهنري

---

(1) انظر: رولان موسينييه، **تاريخ أوربا العام** .2/ 260- 270.

(2) عبد العزيز الشناوي، **أوربا في مطلع العصور الحديثة**، دار المعارف بمصر، القاهرة 1969. ص 381؛ وانظر أيضا: رولان موسينييه، المرجع السابق:2/ 314.

(3) أي سلطته السياسية المتعلقة بالأمور الدنيوية.

الثامن رئيسا للكنيسة الإنجليزية.

كما تأسست المحاكم الدينية في فرنسا لملاحقة البروتستانت في عهد الملك فرنسوا الأول (1515-1547) ازدادت شدة وعنفا في عهد الملك هنري الثاني (1547-1559). فحدثت مذابح رهيبة، ذهب ضحيتها آلاف الفرنسيين البروتستانت. ثم اندلعت الحرب الأهلية بتشجيع من الدول الأجنبية. فأخذ البروتستانت يتلقون المساعدات من أمراء ألمانيا اللوثريين، ومن الملكة الإنجليزية إليزابيت. كما أن الكاثوليك حصلوا على المساعدة من ملك إسبانيا فيليب الثاني ومن البابوية أيضا[1].

هكذا كانت أوربا تشهد تغييرات عميقة في جغرافيتها السياسية وتكوينها الديني والثقافي، لعب فيه الصراع السياسي بين الأسر الحاكمة، والزعامات الدينية دورا أساسيا. انعكست نتائجه ليس على أوربا فحسب؛ بل تعدّت ذلك إلى العلاقات السياسية الخارجية بين بعض هذه الدول من جهة، وبين الدولة العثمانية من جهة ثانية.



(1) مخزوم، المرجع السابق، ص :146.

أوضاع المسلمين في الأندلس

أوّلا : أوضاع المسلمين بعد سقوط غرناطة

حافظت غرناطة على استقلالها مدة طويلة، دامت قرابة قرنين ونصف إلى أن انتهى حكم النصريين[1] بسبب ضعفهم الداخلي، وصراعهم على السلطة؛ في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة النصارى بعد زواج الملك فرديناندو **Ferdinand** (1452-1516) -الذي اعتلى عرش أرغون **Aragon** سنة 1479م- بالملكة إيزابيلا التي جلست على عرش قشتالة سنة 1474[2].

فبعد حصار دام سبعة أشهر، سقطت آخر مدينة إسلامية في الأندلس. ووقّع ملك غرناطة أبوعبد الله الغرناطي على معاهدة تسليم المدينة، مقابل تعهد الملك فردیناندو بحماية ممتلكات المسلمين، وعدم التعرض لأي منهم. واحترام دينهم وثقافتهم

---

(1) بنو نصر، أو النصريون: ويعرفون أيضا ببني الأحمر آخر أسرة عربية حكمت غرناطة من سنة 629هـ/ 1232م، إلى أن سقطت على يد القشتاليين **Kastilliler** سنة 808هـ/ 1492م.
انظر: كريزر **Klaus Kresier** وزملاؤه، **معجم العالم الإسلامي**، ترجمة جميل كثورة، بيروت 1991، ص246-247.

(2) انظر: مونتغمري وات، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**. ترجمة: محمد رضا المصري، بيروت 1994، ص159.

إلى غير ذلك من بنود المعاهدة التي تحولت بعد دخول الإسبان المدينة إلى حبر على ورق، كما سنرى فيما بعد[1]. وعُيّن الكونت دي تانديا ***Kont di Tandia*** حاكما عليها، وإيزناندو طلبيرة ***İznando Tolbira*** مطرانا لها. وأوصاهما بالرفق بأهل غرناطة،

---

(1) تضم معاهدة التسليم هذه وثيقتين رسميتين. **الأولى**: ما يزال يُحتفظ بها في دار المحفوظات العامة في «سيمانقا» ***Arhivo General De Simanca*** تحت رقم: ***P.R.11.207*** ضمن مجموعة «معاهدات المسلمين» ***Capitulacion on Moros***.

أما **الثانية** : فما يزال يُحتفظ بها في بلدية غرناطة ضمن مجموعة **«فرديناندو نافارا»**. أمين الملكين الكاثوليكيين الذي نيطت به مهمة التفاوض مع الجانب المسلم.

وقد نشر هذه الوثيقة **ميجيل جريدو آثيزا** ***Miguel Jarrido Atienza*** في كتابه: **«وثائق تسليم غرناطة»** **Lcapitulaciones Para la Entegre de Garnata. 1910.PP.26929**. وقام بترجمتها إلى العربية كل من الدكتور محمد عبده حتاملة والدكتور عبد الله محمد جمال الدين.

انظر نص المعاهد في: علي المنتصر الكتاني، **انبعاث الإسلام في الأندلس**، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد باكستان 1992.ص549-560، وعبد الله محمد جمال الدين في كتابه: **«المسلمون المنصرون»** القاهرة 1991، ص21-22.

كما نشرت بعض فقرات هذه المعاهدة في مؤلف مجهول عاصر سقوط غرناطة بعنوان: **«أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر»**. تحقيق الدكتور حسين مؤنس، بيروت 1991، ص118. وأشار المقّري إلى بعض فقرات هذه المعاهدة في كتابه **«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»**، 4/ 523- 526.

والتقريب بين سكانها. واحترام بنود معاهدة التسليم الموقعة بينه وبين أبي عبد الله الغرناطي آخر ملوك المسلمين في الأندلس. وبدا وكأن كُلا من الملك فرديناندو وزوجه الملكة إيزابيلا عازمان على احترام تعهداتهما[1].

وفي 1493 غادر أبو عبد الله الغرناطي الأندلس برفقة أهله وحاشيته إلى ميناء مليلة بالمغرب، ومنه إلى حاضرة فاس. وكان عدد من هاجر معه إلى فاس 1132 شخصا[2]. كما هاجر في السنوات الأولى لسقوط غرناطة عدد ضخم من كبار أهلها وقوادها وفقهائها وعلمائها وساداتها وأعيانها.

هذا؛ وقد كانت الكنيسة منزعجة من سياسة الاعتدال التي كانت تتبعها الدولة نحو المسلمين. كما كان الرهبان يتأججون حقدا على الوجود الإسلامي في الأندلس. فعملوا على إقناع الدولة بضرورة تنصير المسلمين طوعا وكرها[3].

ومن ثم فإنه لم تمض سوى سنوات قليلة على سقوط غرناطة، حتى بدت أهداف الدولة الإسبانية، والكنيسة الكاثوليكية على حقيقتها. فكان أول الغدر تحويل عدد من المساجد إلى كنائس. ثم نظمت الكنيسة في السنوات الأولى فرقا تبشيرية من رهبان وراهبات

---

(1) انظر: مؤلف مجهول، **أخبار العصر**، ص69- 70؛ الكتاني، **انبعاث الإسلام** ص69؛ عبد الله محمد جمال، **المسلمون المنصرون**، ص 34.

(2) مؤلف مجهول، **أخبار العصر**، ص69-70.

(3) الكتاني، ص71.

لتنصير المسلمين. وكان ظنها أن مهمتها ستكون سهلة؛ خصوصا بعد أن هاجر زعماء المسلمين، وارتد الكثير من كبارهم، أمثال الأميرّين: سعيد ونصر ابنا السلطان أبي الحسن، أخي أبي عبد الله الغرناطي، ومنافسه على العرش.كما ارتد ابن عمه الأمير يحيى التبار، والوزير يوسف بن كماشة الذي أصبح راهبا.. وغيرهم كثير[1].

وعندما لم تأت سياسة الترغيب بما كانت ترجوه الكنيسة من تنصير الأندلسيين، أخذت الدولة تفكر في تغيير سياستها من اللين إلى العنف، ملغية كل بنود المعاهدة واحدة تلو الأخرى[2].

وهكذا تغيرت سياسة الدولة فجأة. فبدأ التركيز على المسلمين من أصول نصرانية. فشرعت الكنيسة تلاحق العائلات المسلمة من أصل نصراني والزج بها في السجون، رجالا ونساء وأطفالا، إن هم رفضوا التنصير[3]. فثار المسلمون لأجل ذلك في غرناطة في 18 ديسمبر 1499[4]. ثم اندلعت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات. لكن الإسبان تمكنوا من قمع الثورة واسترقاق جميع

---

(1) المقري، نفح الطيب، 4/ 527؛ «أزهار الرياض في أخبار عياض»، الرباط 1978، 1/ 68.

(2) المقري، المصدر السابق، 4/ 527؛ أزهار الرياض، 1/ 68.

(3) المقري، المصدر السابق، 4/ 527.

(4) المقري، نفسه، 4/ 517؛ وانظر أيضا: أنطونيو دو مونقير هورتز، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمة: عبد العال صالح طه، بيروت 1988، ص22.

الثوار. وعندما ثار المسلمون في المريّة في شهر نوفمبر 1500 أرسل إليهم الملك جيشا كبيرا، فقاتله المسلمون قتالا شديدا. لكنهم لم يتمكنوا من الصمود طويلا. فحكم عليهم الملك بقتل جميع الرجال، وسبي النساء والأطفال. ثم ثارت مدينة عُذرة، فهاجمها الجيش وحاصرها طويلا حتى تمكن من دخولها. فاسترقّ جميع أهلها[1].

هذا؛ وقد أشار المقري إلى مقاومة المسلمين الباسلة، وإكراه النصارى لهم على اعتناق المسيحية بقوله:

«... وبالجملة يعني أهل غرناطة تنصروا عن آخرهم، بادية وحاضرة. وامتنع قوم عن التنصر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك. وامتنعت قرى وأماكن كثيرة منها يلفق، وأندرش، وغيرهما. فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلا، وسبيا. إلا من كان في جبل الْمَلِنْقة (فليوليخا)، إلا أن الله تعالى أعانهم على عدوهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، مات فيها صاحب قرطبة. وأُخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم، وما خفّ من أموالهم، دون الذخائر. ثم كان بعد ذلك كله أنّ من أظهر التنصر يعبد الله خفية ويصلي. فشدّ عليهم النصارى في البحث عنهم، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك. ومنعوهم من حمل السّكّينة الصغيرة، فضلا عن غيرها من الحديد... وأقاموا في بعض الجبال على

---

(1) انطونيو دو منيقير هورتز، تاريخ مسلمي الأندلس، ص22.

النصرانية، ولم يقيّض الله لهم ناصرا»[1].

وفي هذه الأثناء تابعت الكنيسة سياسة التنصير القسري لمسلمي الأندلس. ففي أواخر 1500 ذهبت الملكة إيزابيلا إلى غرناطة للإشراف على عمليات التنصير. ووقّعت مع جميع قراها ومدنها مراسيم تجبر أهلها على التنصّر مقابل معاملتهم ماليا مثل معاملة النصارى القدامى. وبموجب هذه المواثيق منع المسلمون المنَصَّرون من الذبح على الطريقة الإسلامية، ومن أن يلبس رجالهم ونساؤهم اللباس الإسلامي، وأجبروا على تغيير أسمائهم، وممارسة تقاليدهم وعاداتهم الإسلامية. كما أُجبروا على أن تترك أبوابهم مفتوحة أيام الجُمَع والأعياد، وخلال حفلات الزواج، لمراقبة ما يحدث داخل بيوتهم[2].

ثم صدر قرار بتحويل المساجد إلى كنائس، ومصادرة الكتب الإسلامية والعربية فأحرقت آلاف الكتب العلمية والأدبية والدينية التي تمثل خلاصة جهود ثمانية قرون من الإشعاع العلمي والمدني الذي قدمه المسلمون للبشرية[3]. فكانت هذه الجريمة من أكبر

---

(1) المقري، **نفح الطيب**، ص2/ 616-617.

(2) انظر مونتغمري وات، **تاريخ إسبانيا المسلمة**، ص162.

(3) اختلف المؤرخون كثيرا في تقدير عدد الكتب التي تم حرقها عقب سقوط غرناطة. إذ تراوحت تقديراتهم ما بين خمسة آلاف إلى مليون كتاب وأثر علمي. انظر: محمد زروق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 الميلاديين**، الدار البيضاء، المغرب =

وأسوء جرائم الكنيسة والدولة الإسبانية في حق الحضارة الإنسانية.

ثم تبع ذلك مراسيم منع الحديث، والقراءة، والكتابة باللغة العربية في السر والعلن. وبطلان العقود المكتوبة بها. ثم صدر قرار آخر يمنع المسلمين من حمل السلاح وامتلاكه[1].

وأرى أنه من المفيد أن ننقل بعضا مما أورده مصدر معاصر للمأساة، مصورا فيها ما كان يعيشه المسلمون المنصرون من قهر وإكراه وذلك تأييدا وتأكيدا لما سبقت الإشارة إليه. يقول صاحب أخبار العصر:

«... ثم دعاهم -أي فرديناندو- إلى التنصر، وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسعمائة (1500م) فدخلوا في دينه كرها. وصارت الأندلس نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها بقلبه وفي خيفة من الناس. وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم من عين باكية، وقلب حزين. وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارا، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا. ينظرون إلى أولادهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون

= 1987، ص58 (الهامش 23)؛ وانظر أيضا: صلاح فضل، **ملحمة المغازي الموريسكية**، القاهرة 1979، ص23-24.

(1) الكتاني، ص72- 73؛ صلاح فضل، ص23-24.

الخنزير، والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم، ولا على نهيهم، ولا على زجرهم. ومن لم يفعل ذلك عوقب أشد العقاب وعُذّب أشد العذاب.. فيالها من فجيعة ما أمرها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها»[1].

ثم شرعت محاكم التفتيش[2] في مراقبة ضمائر الناس ومعتقداتهم فكانت تصدر أحكاما بسجن المتهم، ومصادرة أمواله، وتعذيبه بوحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا. فقد كان التعذيب يتراوح بين الإغراق، والجرّ، وسحق العظام، وسلخ الجلود، وتمزيق الأطراف.. إلى غير ذلك مما لا يخطر على عقل إنسان.

كما كانت أحكام الإعدام حرقا كثيرة. وتتم في مهرجانات عظيمة يتفرج عليها القساوسة ورجال الكنيسة، والأهالي. كما كان يتفرج رعاع روما على النصارى الأوائل الذين كانوا يرمى بهم إلى الأسود الجائعة في حفلات كبيرة. وكثيرا ما كان يحضر حفلات الحرق هذه الملك نفسه، وكثير من رجال الدولة. وفي بعض الأحيان كان يحرق المتهمون جماعيا في مواكب الموت. وأحيانا تحرق أسر

---

(1) **أخبار العصر**، مصدر سابق، ص118.

(2) تأسست محاكم التفتيش في القرن 13 م لمراقبة الأفكار المخالفة لتعاليم الكنيسة. وطبقت أولا في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، قبل أن تنتقل إلى إسبانيا حيث تحولت إلى أداة قهر واضطهاد للمسلمين بعد سقوط غرناطة.

بأكملها من أب وأم وأطفال. وكان الملك فرديناندو من عشاق التفرج على المسلمين وهم يحرقون.

وتحت ضغط الإرهاب النفسي والبدني لجأ مسلمو الأندلس إلى التقية يحتمون بها للمحافظة على دينهم، مسترشدين بآراء فقهاء المغرب الذين كانوا ينجدونهم بالفتاوى التي تبين لهم كيفية التعامل مع هذا الوضع الغريب!!

وبين أيدينا نموذج للفتاوى التي كان فقهاء المغرب يزودون بها أهالي الأندلس يبينون لهم فيها كيفية التعامل مع ظروف القهر والاضطهاد في ضوء أحكام الضرورة الشرعية. والفتوى عائدة للشيخ أحمد بن محمد بن بوجمعة المغراوي[1] مفتي مدينة وهران بالجزائر، أرسلها إلى أهل الأندلس سنة 910هـ/ 1504م[2].

كتب الشيخ المغراوي لأهل الأندلس:

«..وإن أكرهوكم في وقت الصلاة على السجود للأصنام، أو حضور صلاتهم، فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم

---

(1) أحمد بن محمد بن بوجمعة المغراوي مفتي وهران وعالمها. كان متضلعا في علوم اللغة العربية وآدابها، والحساب والرياضيات والفلك. توفي سنة 1504. انظر يحيى بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، بيروت 1995، 1/ 208-209.

(2) الفتوى موجودة في مكتبة الفاتيكان ***(Barginao Arabo)***، تحت رقم: 171 من الورقة 2 إلى 4. وقد قام الكتاني بنشر الفتوى بأكملها في كتابه **انبعاث الإسلام في الأندلس**، ص86-88.

المشروعة، وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله. وإن أجبروكم على شرب الخمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيرا، فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم معتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم. وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه. وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قدرة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام، فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس لكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي إن تبتم إلى الله»[1].

وفي هذه الظروف القاهرة، وجد المسلمون أنفسهم مكرهين على التظاهر بقبول دين النصارى، يقومون بما يُجبَرون عليه من التردد على الكنائس، وتعميد أطفالهم، لكنهم ظلوا مسلمين سرا، يقومون بشعائر الإسلام من صلاة وصيام وتحاشي المنكرات. فكانوا يغسلون أطفالهم من التعميد، ويربون أبناءهم سرا على الإسلام، ويعملون جهدهم للتكيف مع هذا الوضع الشاذ.



(1) المرجع السابق، ص86-88.

ثانيا: مواقف ملوك وسلاطين الممالك الإسلامية من مأساة الأندلس

- **موقف سلاطين المغرب**

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب، لا سيما ملوك بني مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها.

فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور (ت:815/ 1286م) مثلا، عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها. ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة. بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس. فساهم بذلك في إنقاذ غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة والأرغون[1].

لكن رغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة، كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك. والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية فقط، بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله.

---

(1) انظر: الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب**، القاهرة 1994، 3/ 232؛ محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، بيروت، ص 244-245.

ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا بدور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة، وضد جيرانهم من جهة ثانية. بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص، والتي حالت دون تمكن المرينيين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس، بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني والبرتغالي.

يقول المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي زار شمال إفريقيا في مطلع القرن 16، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة:

«...ووقع بفاس وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد. وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العدوة. مثل طنجة، وأصيلا وغير ذلك.. ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا...»[1].

ومنذ أن كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الإسبان ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب[2]، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون

---

(1) عبد الباسط بن خليل الحنفي، **الزهر الباسم**، ص55-56.

(2) انظر مثلا: رسائل ابن الخطيب في استنهاض ملوك المغرب في **نفح** =

جدي لمسلمي الأندلس. يقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة:

«إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم، فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا؛ وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا...»[1].

- **موقف سلاطين تونس**

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجؤون إلى ملوك بني حفص. خصوصا عندما لا يجدون من ملوك المغرب أذانا صاغية. فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة والمدد. وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * إن السبيل إلى منجاتها قد درسا[2]

ولم تكن بلنسية وحدها هي التي بايعت أبا زكريا الحفصي،

= **الطيب**: 4/ 411، 4/ 415، 4/ 424، 4/ 338، 4/ 444، 4/ 445، 4/ 529 — 529.

(1) **نبذة العصر**، مصدر سابق، ص39.

(2) انظر القصيدة بأكملها في: المقري، **أزهار الرياض**، 3/ 207-208؛ وانظر أيضا: **نفح الطيب**، 4/ 457-460.

وطلبت منه المدد. بل قد بايعه كذلك أهل إشبيلية، وأهل المريَّة[1]. إلا أن موقف أبي زكريا الحفصي من استنجاد أهل الأندلس لم يكن يتناسب مع خطورة الوضع. ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف وهو ما لم يكن يقدر عليه أبو زكريا الحفصي. ولذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام والسلاح والمال. لكن هذا المدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية. كما أرسل بمدد آخر أثناء حصار إشبيلية، لكن المدد استولى عليه العدو، كما استولى على إشبيلية فيما بعد[2].

وأثناء حصار غرناطة، أو بعد سقوطها لم نجد فيما رجعنا إليه من المصادر ما يدل على أن أهل الأندلس استغاثوا بأمراء بني حفص. ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيامها، ولم يكن بمقدور أمرائها أن يقدموا أي جهد جدي لدعم مسلمي الأندلس. خصوصا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني. أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم يعتبر من أفضل جيوش شمال إفريقيا، قد تحلل وأصبح عاجزا عن مقاومة أي عدو. بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادا في البوادي، وأطراف

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت 1956، 6/ 613-616.

(2) المصدر السابق، 2/ 604.

المدن[1]، الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين والإسبان والزنوج وغيرهم[2].

- **موقف سلاطين بني زيان بتلمسان**

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان. ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجؤون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل. فمن ذلك أنه عندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة استصرخ ملكها أبو عبد الله بأبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها:

هل من مجيب دعوة المستنجد * أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير لسان ابن الخطيب يذكر فيها أنهم:

«... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقا أشدّ مما هم عليه الآن. وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية. وأنهم قاموا بإحراق الزروع. والمسلمون ليس لهم مغيث يلجؤون إليه -بعد الله- سوى إخوانهم في الدين. وذكر بأنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة. وأنهم لا يملكون غير

---

(1) انظر: نيقولا إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية** (1516-1574)، ترجمة: يوسف عطا الله، بيروت 1988، ص177-182.

(2) نفسه، ص177-182.

أنفسهم، وقد بذلوها في سبيل الله. وهم ينتظرون نجدتكم»[1].

فقام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة، والخيل، والطعام. وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

وكما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين لا تؤهلهم للدفاع عن بلادهم، فضلا عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة. ولذلك تعذر على ملوكها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة أو غيرها. وسوف يتبين لنا لاحقا أن المملكة الزيانية كانت أضعف من أن تساهم في إنقاذ الأندلس.

- **موقف سلاطين دولة المماليك في مصر**

في أواخر القرن الخامس عشر، أرسل مسلمو غرناطة إلى الملك الأشرف قايتباي (1468-1496) سلطان المماليك بمصر، يرجونه التدخل لإنقاذهم من ظلم ملوك المسيحيين[2]. فاكتفى الأشرف بإرسال وفود إلى البابا، وإلى ملوك أوربا يذكرهم بأن المسيحيين في دولته يتمتعون بكافة الحريات، بينما إخوته في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لشتى ألوان الاضطهاد. وهدد على لسان مبعوثيه بأنه

---

(1) انظر نص الرسالة والقصيدة في: أبي زكريا بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، الجزائر 1910، 2/ 167-174.

(2) انظر: المقري، **نفح الطيب**، 2/ 702.

سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهي التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكفَّ ملوك إسبانيا عن اضطهاد المسلمين. وطالب بعدم التعرض لهم، ورد ما أُخِذ من أراضيهم[1].

لكن الملك فرديناندو، والملكة إيزابيلا لم يريا في مطالب سلطان المماليك وتهديده ما يحملهما على تغيير خطتهما في الوقت الذي كانت فيه قواعد الأندلس تسقط تباعا في أيديهما. إلا أنهما بعثا إليه رسالة مجاملة ذكرا فيها:

«أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين، والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب. وأن المسلمين إذا شاءوا الحياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية..»[2].

ولم يتمكن الباحثون من معرفة مصير هذه الرسالة، كما أنه لا يلاحظ في سياسة مصر المملوكية نحو الرعايا المسيحيين في مصر، أو في القدس ما يدل على أن السلطان المملوكي قد نفذ تهديده[3].

---

(1) انظر ابن إياس، **بدائع الزهو في وقائع الدهور**، 2/ 246؛ وانظر أيضا: عبد الجليل التميمي، **«رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1551»** المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد:3، يناير 1975، ص37-46.

(2) محمد عبد الله عنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين**، القاهرة 1949 ص169.

(3) نفسه، ص169.

ويبدو أن السلطان قايتباي لم يتمكن من إغاثة مسلمي الأندلس بسبب انشغاله بتحركات بايزيد ورد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية. بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور هنا وهناك[1]. ومن ثم فإن الجهود المصرية وقفت عند الاكتفاء بالجهود الديبلوماسية. وتركت الأندلس تواجه قدرها بنفسها.

وقد كرّر الأندلسيون استغاثتهم بالملك الأشرف قانصو الغوري (1501-1516) سلطان مماليك مصر والشام. داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين (فرديناندو وإيزابيلا) لاحترام معاهدة الاستسلام، ووقف أعمال الاضطهاد ضدهم. فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين. فأرسل إليه الملكان سفيرا أقنعه بأن المسلمين يعاملون معاملة حسنة. وأن لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الإسبان[2].

وهكذا خابت آمال المسلمين الأندلسيين في تلقي أي دعم أو مدد من سلطان المماليك قانصو الغوري، الذي يبدو أنه كان مشغولا هو الآخر بحروبه مع العثمانيين[3]،إضافة إلى كونه لم يكن يملك

---

(1) نفسه، ص 169.

(2) نفسه، ص 233.

(3) **محمد عبده حتاملة، مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة عام 1492.** بحث القي في ندوة الأندلس التي نظمتها جامعة الإسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية (13-15 أفريل=

أسطولا قويا يمكّنه من مواجهة الإسبان[1].

- **موقف سلاطين الدولة العثمانية**

أ. موقف السلطان محمد الفاتح

أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 أي قبل سقوط غرناطة بـ14 عاما سفارة إلى إستانبول. وجّهوا فيها نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم. إلا أن هذا الأخير كان في حكم المستحيل أن يستجيب لهذه الاستغاثة. لأنه كان هو الآخر مضطرا إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع (1471-1484)، وجنوة ونابولي والمجر وترانسلفانيا وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية[2].

= 1994)، ص 511؛ وانظر أيضا: عنان، **نهاية الأندلس**، ص 233؛ وانظر أيضا: Uzunçarşılı, *İsmail Hakkı Osmanlı Tarihi, TTK Ankara, 1988. II.s.200.*

(2) انظر: عبد الجليل التميمي، **رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني** سنة 1551، ص37-46. ولمعرفة ظروف التحالف الصليبي ضد الدولة العثمانية في عصر الفاتح انظر: عبد العزيز الشناوي، **أوروبا في مطلع العصور الحديثة**، ص 660-666؛ وانظر أيضا:
Özdemir Mehmet, *Endülüs Müslümanları, Ankara, 1994. s.219.*

ب. موقف السلطان بايزيد الثاني

ثم استنجد الأندلسيون مرة أخرى بعد وفاة الفاتح بابنه السلطان بايزيد الثاني (1480-1511)، حيث أرسلوا إليه رسالة مع الشاعر أبي البقاء صالح بن شريف الرندي الذي ألقى بين يدي السلطان قصيدته مرثية الأندلس الشهيرة، والتي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان * فلا يغتر بطيب العيش إنسان[1]

إلا أن السلطان بايزيد كانت قد تزاحمت عليه أزمات داخلية وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها: صراعه مع أخيه جم (1481-1495)، وحربه مع المماليك في أدنة خلال (1485-1491)، بالإضافة إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر، والبندقية. ثم تكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا جيل الثاني، وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا. وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت إلى تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم. وانتهى حكم السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه،

---

(1) انظر نص الرسالة في: المقري، **أزهار الرياض**، 1/ 108-109، والنسخة الخطية لهذه الرسالة موجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية برقم: 1620، وعنوانها: «رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفرة على جميعها للسلطان بايزيد». انظر صورة من الرسالة المذكورة في قسم الملاحق. هذا؛ وقد ذكر الدكتور محمد أوزدمير أن ملك غرناطة أبو عبد الله الصغير هو الذي أرسل الرسالة المذكورة إلى السلطان بايزيد الثاني. انظر: *Özdemir, s.219*.

أفضى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة[1].

لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة. فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة، والتضييق عليهم[2]. وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رئيس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486. فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا[3]. وحسب رواية أخرى لم نتمكن من

---

(1) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الأزمات الداخلية التي واجهها السلطان بايزيد الثاني، انظر: نشا نجي محمد باشا، **نشا نجي تاريخي**، ص187-190؛ فريدون بك، **مجموعة منشئات السلاطين** 1/ 290-292؛ محمد البكري الصديقي، **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**. ص55-56.

(2) .Ziya Paşa, *Endülüs Tarihi .İstanbul, 1276, III. s.357-358*

(3) انظر: عبد الجليل التميمي، **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين**. بحث منشور في المجلة التاريخية المغربية، العددان: 23-24. ص 191؛ وانظر أيضا: نيقول إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية**، ص 95-96؛ وانظر أيضا:

Süleyman Nutki, *Muharebat-ı Bahriye Osmaniyye .Deniz =Kuvvetleri kumutanlığı, İstanbul 1891. s.19-23;* Uzunçarşılı,

أفضى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة[1].

لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة. فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة، والتضييق عليهم[2]. وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رئيس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486. فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا[3]. وحسب رواية أخرى لم نتمكن من

---

(1) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الأزمات الداخلية التي واجهها السلطان بايزيد الثاني، انظر: نشا نجي محمد باشا، **نشا نجي تاريخي**، ص187-190؛ فريدون بك، **مجموعة منشئات السلاطين** 1/ 290-292؛ محمد البكري الصديقي، **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**. ص55-56.

(2) Ziya Paşa, *Endülüs Tarihi .İstanbul, 1276, III. s.357-358*.

(3) انظر: عبد الجليل التميمي، **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين**. بحث منشور في المجلة التاريخية المغربية، العددان: 23-24. ص 191؛ وانظر أيضا: نيقول إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية**، ص 95-96؛ وانظر أيضا:
Süleyman Nutki, *Muharebat-ı Bahriye Osmaniyye .Deniz =Kuvvetleri kumutanlığı, İstanbul 1891. s.19-23;* Uzunçarşılı,

التأكد من صحتها فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، تم عقد اتفاق آخر على تحالف بين الحفصيين والعثمانيين والمماليك لدعم مسلمي الأندلس. وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولا إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إلهاء الإسبان؛ بينما يستغل الفرصة ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال إفريقيا إلى الأندلس لنجدة المسلمين هناك[1].

وهكذا بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنها كمال رئيس على السواحل الإسبانية لم تثن الملكين الإسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من إسبانيا المسيحية.

= *Osmsnlı Tarihi, TTk, Ankara 1988, II.s200; Özdemir, s.219.*

(1) Şekib Benhafiri, *Endülüs'te Son müslüasn Kalıntısı oriskoların Cezayir'e Göçü ve Osmanlı Yardımı, Ankara 1989, (Basılmamış Y.Lisans tezi), s.43.*

ثالثا : نتائج سقوط غرناطة على الجزائر

كانت لسقوط غرناطة في 2 جانفي 1492 آثار بالغة الأهمية ليس على مستقبل الوجود الإسلامي في الأندلس فحسب بل على المستقبل السياسي لدول شمال إفريقيا كلها، وعلى الجزائر بصفة خاصة. ولذلك فإنه كما كان سقوط غرناطة بداية لتاريخ إسبانيا الحديث؛ فإنه يمكن اعتباره أيضا بداية لتاريخ الجزائر الحديث. وذلك بالنظر إلى النتائج التي ترتبت عن هذا الحدث.

وبناء على ما سبق؛ يمكننا أن نستنتج آثار سقوط غرناطة على الجزائر فيما يلي:

1. نظرا لتوجه السياسة الإسبانية بدعم وتحريض من الكنيسة الكاثوليكية إلى تنصير المسلمين وإنهاء الوجود الإسلامي، وتحت ظروف القهر والإرهاب الذي كان يعيشه المسلمون في الأندلس؛ اضطرّ عدد كبير منهم إلى مغادرة الأندلس، والهجرة إلى بلدان شمال إفريقيا، والاستقرار بها. خصوصا الجزائر التي كانت تعيش أوضاعا خاصة شجعت أعدادا كبيرة منهم على الهجرة إليها والاستقرار بها. بينما لم تكن ظروف تونس في أواخر العهد الحفصي تساعد على استقطاب أفواج المهاجرين، إلا بعد استقرار العثمانيين بها. وأما المغرب، فبالرغم من علاقاته التاريخية وروابطه البشرية وقربه الجغرافي من الأندلس؛ فإنه لم يعرف هجرة جماعية تماثل ما حدث في الجزائر.

فقد استوطن عددٌ كبير من مهاجري الأندلس المدنَ الساحلية الجزائرية، مثل: تنس وبجاية والجزائر ووهران. وكذلك الداخلية:

مثل المسيلة وتلمسان[1]. كما أدت الهجرة الأندلسية إلى نشوء مدن جديدة ذات طابع أندلسي. مثل مدينة بجاية التي توافدت عليها أعداد كبيرة من أهالي الأندلس حتى كونوا بها طائفة على غاية كبيرة من الأهمية، وهاجر إليها عدد كبير من العلماء[2]. وكذلك البليدة والقليعة، اللتان أقطع خير الدين بربروس أراضيهما لمهاجري الأندلس. كما فرضوا على المدن التي شكلوا فيها أغلبية سكانها الصبغة الأندلسية، خصوصا في الجزائر والبليدة ودلس والمدية وقسنطينة وتلمسان والجزائر.. وغيرها.

وهكذا؛ فإنه باستيطان العنصر الأندلسي في مدن شمال إفريقيا والجزائر خاصة يكون قد تمت إعادة تشكيل الخريطة الديموغرافية لهذه المدن التي عرفت بتمدنها، وتطورها الفني والعمراني. مقارنة مع غيرها من المدن الأخرى.

كما تضاعف سكان المدن التي استقر بها الأندلسيون حتى شكّلوا أغلبية سكانها مثل: مدينة الجزائر وتلمسان ومستغانم وعنابة وأرزيو وتنس ودلس وجيجل. فمدينة شرشال على سبيل المثال بلغ عدد البيوت الأندلسية فيها 12.000 بيتا[3]. كما تحولت

---

(1) انظر: المقري، **نفح الطيب**، 2/ 217.

(2) الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء بجاية**، تحقيق محمد بن شنب، الجزائر 1910، ص 171.

(3) من خلال هذا العدد الذي أورده المقري، لو افترضنا أن متوسط عدد أفراد كل بيت 5 أشخاص لكان عدد الأندلسيين الذين استقروا في=

سهول متيجة المحيطة بمدينة الجزائر إلى مناطق أندلسية[1].

2. احتلال المدن الساحلية لبلدان شمال إفريقيا من طرف الإسبان والبرتغال. بغية قطع طريق العودة على الأندلسيين الذين جعلوا من هذه المدن قواعد ينطلقون منها للانتقام من الإسبان. وقد أدّى اشتداد الصراع بين المسلمين، والإسبان في سواحل شمال إفريقيا إلى جذب عدد كبير من البحارة الأتراك إلى هذه المنطقة الذين قدموا لمساعدة إخوانهم. فانتعشت حركة الجهاد البحري، أو القرصنة كما يسميها بعض الباحثين بتضافر جهود هؤلاء البحارة مع جهود الأندلسيين الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات الدقيقة عن الشواطئ الإسبانية، ومواطن الضعف فيها. كما كانوا ينظمون حملات انتقامية من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم[2]، ولإنقاذ من بقي من إخوانهم ونقلهم من سواحل إسبانيا إلى شمال إفريقيا. فقد قام عروج وخير الدين بربروس في الفترة بين (1518-1528) بشن ثلاثة وثلاثين غارة على سواحل إسبانيا، تم خلالها نقل 70.000 مسلم أندلسي إلى الجزائر[3].

= هذه المدينة يكون قد بلغ 60.000 فردا. وهو عدد كبير بالنسبة لمدن ذلك العصر.

(1) انظر المقري، **نفح الطيب**، 6/ 280.

(2) انظر: **لوثروب ستودار *Lothrop Stodard***، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عادل نويهض، بيروت 1974، 1/ 23.

(3) انظر: مؤلف مجهول، **غزوات عروج وخير الدين**، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر 1934 ص48-82؛ وانظر أيضا: =

3. ساهم الأندلسيون في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر، وشكّلوا الحليف الأول للأتراك العثمانيين. سواء في مواجهة الإسبان، أو في القضاء على حركات التمرد التي كان يقودها الزعماء المحليون ضد الوجود العثماني في الجزائر، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقا في ثنايا هذه الدراسة.

4. انتعاش الحركة الاقتصادية والزراعية والفنية والعمرانية في المدن التي استقر بها الأندلسيون. حيث قام المهاجرون الأندلسيون باستصلاح مساحات واسعة في نواحي متيجة والمرتفعات الساحلية وشرشال وتلمسان ووهران وعنابة[1].

وأما في المجال الصناعي فقد تمكنوا من إقامة المصانع لمزاولة المهن كالحدادة، والخياطة والنجارة ومعالجة الخزف والجلد والحرير. واشتهرت مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقليعة وشرشال[2]. كما يعود إليهم الفضل في تحسين صناعة البارود وتطوير صناعة السفن بموانئ الجزائر وشرشال.

= Haëdo. *histoire des Rois d' Alger .1881.p.38.*

(1) Devoulx *(s), La Bettrie de Andalous en revue Africaine année :16,1872. p.340-342.*

(2) Haëdo. *Topographie et Histoire general d'Alger, tra. Monnerean et Berbugger en Revue Africaine N 14-1870. p, 495. Dapper description de l Afrique, Amsterdam. 1686 .p.175.*

الأوضاع في المغرب

أوّلا : الأوضاع السياسية

لم يكن الوضع في المغرب يختلف عما كان عليه في بقية بلدان الشمال الإفريقي الأخرى. فقد كان هو الآخر يعيش فترة من أصعب فترات تاريخه. وذلك نتيجة لضعف الوطاسيين[1] وعجزهم عن توحيد المغرب تحت سلطتهم. فأصبحت البلاد مجزّأة إلى وحدات سياسية صغيرة خاضعة لزعامات قبلية، أو دينية، أو مجالس محلية متنافسة ومستقلة تماما عن الإدارة المركزية، أو تابعة لها اسميا[2].

ذلك لأن الدولة كانت قد ضعفت سيطرتها على المناطق الداخلية، وغابت تماما عن المناطق الجبلية والنائية في الجنوب[3]. فكانت البلاد تدار بواسطة زعماء القبائل، أو الأمراء المحليين الذين

---

(1) الوطاسيون: فرع من بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية. تأسست عام 1471. قضى عليها بيلرباي الجزائر صالح رايس سنة 1554. انظر: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، المغرب 1955، 4/ 96-97، 118-119.

(2) انظر مثلا ما ذكره الوزان عن منطقة سغمة وجبال داداس في الجنوب المغربي والتي لم تكن تخضع لسلطة أي أمير. وصف إفريقيا، ص193، 195-196.

(3) نفسه، ص 193.

لا تكاد الحروب بينهم تتوقف إلا لتبدأ من جديد.

وبسبب غياب السلطة وانعدام الأمن، وجد التجار أنفسهم مرغمين على دفع إتاوات للزعماء المحليين ليتمكنوا من المرور بالمناطق الخاضعة لهم وتسويق بضاعتهم[1]. أما قطاع الطرق فإنهم لم يكونوا يترددون في قتل أي شخص وسلب أمواله دون أن يخشوا عقابا من أحد[2].

ونتيجة للحروب الأهلية وانعدام الأمن، أصبحت ممارسة أي نشاط تجاري أو زراعي يمكنه أن يساهم في ترقية أهالي هذه المناطق أمرا مستحيلا. فتعرضت مدن بأكملها إلى الخراب بسبب اضطرار أهلها إلى الهجرة إلى مناطق أكثر أمنا، وأنسب لممارسة نشاطهم الزراعي والتجاري[3].

وقد أغرى ضعف الدولة وانقسامها كلا من الإسبان والبرتغال بغزو سواحل المغرب واحتلال مدنه[4]، والهجوم على ما جاورها من المناطق الداخلية لتحقيق جملة من الأهداف السياسية والاقتصادية

---

(1) نفسه، ص 193.

(2) نفسه، ص195-196.

(3) انظر ما ذكره الوزان عن هجرة أهالي مدينة القصر الكبير وجبل عنجرة لبلادهم، ص 323 - 324.

(4) انظر ما أورده الوزان في رحلته عن استغلال البرتغاليين للخلافات بين أهالي مدينة آسفي ليقوم باحتلالها بدعم بعض أطراف النزاع، وتعيين أحد زعمائها حاكما عليها وخاضعا للبرتغال، الوزان، ص 259-261.

والدينية التي سوف نفصل الحديث عنها في المبحث المتعلق بأسباب الاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا عموما والجزائر خصوصا.

وهكذا؛ فقد تمكن الإسبان من احتلال مدينة مليلة في 1497، وغساسنة في 1504، وحجر باديس في 1508 على سواحل البحر المتوسط. بينما احتل البرتغاليون مازكان في 1502، وأغادير في 1505، وآسفي في 1508، وآزمور في 1513. وكل هذه المدن تقع على سواحل المغرب الأطلسية. كما كانوا قد تمكنوا من احتلال عدد من المدن الساحلية في القرن الخامس عشر مثل: سبتة 1415، والقصر الكبير في 1458، وطنجة، وآصيلا في 1471. وكل هذه المدن تقع على المضيق الذي يفصل بين المغرب وإسبانيا.

وبسبب ازدياد الخطر الأجنبي على المغرب، وعجز الوطاسيين عن حماية البلاد، وفرض سيطرتهم على كل أجزاء المغرب؛ تحركت القوى الدينية والسياسية المحلية المؤلفة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، والأشراف لحمل لواء الجهاد، وتعبئة الناس لهذه الغاية. فكانوا يقومون بجمع المال لافتداء الأسرى، وإنشاء الزوايا لتعليم الدين وغيره. كما كانوا يتدخلون للفصل بين المتنازعين، ويفرضون الأمن في مناطق نفوذهم[1].

ولكن رغم إيجابيات هذه القوى إلا أنها بدلا من أن تستعمل نفوذها لدعم السلطة المركزية راحت تنشئ لنفسها إمارات مستقلة

---

(1) ابن عسكر، دوحة الناشر، فاس 1307هـ، ص 24.

هنا وهناك في مختلف أنحاء المغرب[1]. بحيث صارت كل زاوية تمثل إمارة مستقلة في منطقتها. فساهمت بذلك في زيادة تفتيت السلطة المركزية.

وهكذا وجدت كل منطقة نفسها تواجه مصيرها بنفسها. فقامت الإمارات المحلية التي تأسست في مختلف المناطق المغربية بتدبير أمورها الخاصة، دون الرجوع الإدارة المركزية في فاس. وأما تلك التي تقع على السواحل، والتي كانت دائما عرضة للغزو الإسباني أو البرتغالي، فقد كانت تقوم بالتصدي للغزو بما في أيديها من إمكانيات محلية[2]. كما تزعم المهاجرون الأندلسيون حركة المقاومة للاحتلال الإسباني في مدينة تطوان[3]. وأما القبائل التي

---

(1) بالإضافة إلى الإمارات التي أشرنا إليها آنفا، ظهرت إمارات كثيرة في شتى أنحاء المغرب، منها: إمارة دبدو التي لجأ إليها بعض الأمراء المرينيين بعد إزاحتهم عن العرش، واستمروا في إدارتها مستقلين عن الوطاسيين إلى أن قضى عليها السعديون. كما ظهرت إمارات بربرية في جنوب وشرق المغرب مثل: إمارة هنتاتة التي كانت تعترف اسميا بسلطة الوطاسيين. انظر: الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب، مرجع سابق، ج: 3، القسم 6: ص24-28.

(2) انظر: انظر ما ذكره القاضي محمد الكراسي في منظومته المسماة بعروسة المسائل لما لبني وطاس من الوسائل، والتي قام بنشرها والتعليق عليها محمد داود في كتابه تاريخ تطوان، مرجع سابق، المغرب 1959، 1/ 144-155 . حيث أشار إلى بعض صور المقاومة الشعبية التي كانت تقوم بها المدن الساحلية ضد الاحتلال البرتغالي والإسباني.

(3) نفسه، 1/ 85.

لم تكن قادرة على مواجهة الاحتلال، فقد اضطرت إلى مهادنة المحتلين، بل عقدت معهم معاهدات تعلن فيها تبعيتها للمحتلين. وذلك لضمان سلامتها وسلامة تجارتها[1].

أما أشهر القوى الدينية التي لعبت دورا كبيرا في التصدي للغزو الإسباني والبرتغالي، فهي الأسرة السعدية التي بايعتها قبائل السوس في الجنوب المغربي سنة 1510 على قيادة حركة الجهاد ضد البرتغاليين والإسبان، وتمكنت فيما بعد من تأسيس دولة حملت اسم الدولة السعدية، بعدما أطاحت بالوطاسيين الذين أثبتت الأحداث أنهم قد فقدوا أسباب البقاء[2].

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

نظرا لتشابه الظروف السياسية التي كانت تعيشها دول شمال إفريقيا في مطلع القرن 16م، فإنه من الطبيعي أن يكون هناك تشابه في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعيشها شعوب هذه البلاد. فبالنظر إلى ما أورده الحسن الوزان في رحلته التي قام بها غداة الدخول العثماني إلى الجزائر فإنه يمكننا تلخيص هذه

---

(1) انظر: مثلا الرسالة المرسلة من طرف أهالي مدينة آسفي إلى الملك البرتغالي عمانويل الأول بتاريخ 1509 في **المصادر الأصلية للتاريخ المغربي**، المجموعة الأولى، البرتغال 1/ 177؛ وكذلك الرسالة المرسلة من طرف أهالي مدينة ماسة إلى الملك المذكور بتاريخ 1510. المصدر نفسه، 1/ 233.

(2) انظر: حسين مؤنس، **المغرب الكبير**، بيروت 1981. 3/ 23- 33.

الأوضاع اعتمادا على مشاهداته التي أوردها في رحلته، وعلى ما أوردته مصادر أخرى لم تختلف في تصويرها كثيرا عما ذكره الوزان.

فقد تركت حالة الانقسام، والفتن، والحروب الأهلية التي كانت تسود هذا العصر، وكذلك الاحتلال الإسباني والبرتغالي آثارا سيئة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب. فالمغرب فقد دوره كوسيط تجاري مهم بين دول أوربا ودول الصحراء الكبرى، وإفريقيا الغربية. لأن اكتشاف طرق جديدة للتجارة الدولية بفضل حركة الكشوفات الجغرافية، جعلت البرتغاليين والإسبان يسعيان للوصول إلى مصادر الثروة دون الحاجة إلى وساطة التجار المغاربة. وهو ما يفسر لنا بعض الأسباب المهمة التي دفعتهما إلى احتلال السواحل الأطلسية والمتوسطية للمغرب[1].

كما أن التجارة المحلية بين المدن الداخلية، وكذا النشاط الزراعي والصناعي أصابهما التدهور والركود بسبب الحروب الأهلية التي كانت تقع بين المتنازعين على العرش أو بين القبائل. كما أن غياب السلطة وفقدانها للسيطرة على مقاليد الأمور أغرى قطاع الطرق بالسطو على التجار والمزارعين والصنّاع وسلبهم ممتلكاتهم وقتلهم. فاضطر هؤلاء البؤساء إلى هجر مزارعهم ومصانعهم. بينما انتقل من استطاع منهم إلى أماكن أكثر أمنا لممارسة تجارته أو صناعته. فكان من أثر ذلك كله خراب مدن وقرى بأكملها كما ذكر

---

(1) عبد الكريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، الرباط، 1977، ص1.

الوزان في مواضع كثيرة من رحلته[1]. يستثنى من ذلك بعض المدن الساحلية والقبائل التي كانت توجد على مقربة من مراكز الاحتلال الإسباني أو البرتغالي، ورضيت بتبعيتها لهما، فأخذت تمارس تجارتها تحت حمايتهما[2]، وبالتالي استمرار الحركة التجارية سواء مع الإسبان والبرتغال، أو مع غيرهما من تجار أوربا الذين كانوا يترددون على هذه المدن. فقد ذكر الوزان أن التجار البرتغاليين كانوا يفدون كل سنة على مدينة أزمور لشراء كمية كبيرة من السمك، ويدفعون رسوما جيدة[3]. كما ذكر بأن مدينة تفزة وأيت عتاب يقصدهما عدد كبير من التجار الأجانب لشراء الملابس بغرض إعادة بيعها في أسواق إيطاليا وإسبانيا[4]. وعن مدينة سلا التي تقع على الساحل الشمالي من المحيط الأطلسي ذكر بأن الكثير من التجار

---

(1) انظر: الوزان، ص 193-195، 323، 373.

(2) بعد احتلال البرتغال لمدينة سبتة والقصر الصغير، حصل اتفاق بين البرتغال والقبائل المجاورة لهاتين المدينتين يسمح بموجبه بالتجارة مع هاتين المدينتين مقابل السماح بمرور القوات البرتغالية بالأراضي المجاورة لهاتين المدينتين، وإجراء التدريبات العسكرية. انظر: **المصادر الأصلية للتاريخ المغربي، المجموعة الأولى، البرتغال، المجلد الأول. أوائل الاحتلال البرتغالي**. وانظر أيضا نموذجا من الرسائل التي كانت تتبادل بين زعماء قبائل الجنوب والسلطات البرتغالية بخصوص تأمين تجارتهم في نفس المصدر 1/ 177، 1/ 233.

(3) الوزان، ص 167.

(4) نفسه، 184، 191.

الجنويين يقصدونها، ويعقدون فيها صفقات هامة، ويلقون من الملك اهتماما خاصا، لأن تجارتهم تحقق له موارد مالية كبيرة. ولهؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فاس وسلا[1].

وما ذكرناه من ركود اقتصادي عم المدن الساحلية المغربية إبان هذه الفترة، لا يمنع الباحث من استثناء بعض المدن الداخلية القليلة التي حافظت على انتعاش تجارتها وصناعتها لاعتبارات محلية. كقربها من العاصمة فاس، أو لوجود حاكم قوي متمكن من فرض النظام، وتحقيق الأمن، مثل: منطقة هسكورة التي كان يفد عليها تجار فاس[2]، وكذا مدينة الجمعة وبزو، اللتان كانتا تربطهما علاقات تجارية وثيقة مع الصحراء الكبرى[3].

وأما من الناحية الاجتماعية فإن الأغلبية العظمى من سكان المغرب في هذا العصر كانوا يعيشون في البادية، حيث يسود نظام العشيرة والقبيلة. لكن مدينتا فاس وتطوان كانتا تعيشان في مستوى حضاري متقدم نسبيا، نظرا لكون فاس تمثل العاصمة السياسية منذ عهد المرينيين. وأما تطوان، فقد استفادت من مهاجري الأندلس الذين نقلوا إليها من وطنهم مختلف مظاهر الحضارة والمدنية. وتأتي

---

(1) نفسه، ص 214. وانظر أمثلة أخرى أوردها عن مدينة جبل بني زكار، ص 322، ومدينة بادس، ص 329.

(2) نفسه، ص 171.

(3) نفسه، ص 176-177؛ وانظر أمثلة أخرى ذكرها عن مدينة فاس، ص 250، ومدينة أقزة، ص 190.

بعد هاتين المدينتين، مدينة مراكش التي كانت تحافظ على بقايا مجد غابر ورثته عن المرابطين والموحدين. أما بقية المدن الأخرى فقد كانت تعيش في حالة ركود عام كما أسلفنا بسبب الحروب الأهلية، والاحتلال الأجنبي. وبإزاء هذا، كانت البادية تمثل القسم الأعظم من بلاد المغرب في هذا العصر، حيث تسود حياة القبيلة والعشيرة. مما يحول دون قيام ترابط اجتماعي واسع بين السكان.

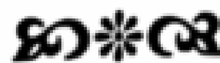
وأما من الناحية الدينية فقد نقل إلينا الشيخ الهبطي المعاصر للفترة موضوع البحث في أرجوزته[1] ما يدل على شيوع الانحراف عن الإسلام بين الناس، وشيوع البدع وشرب الخمر والغش في المعاملات. وذكر أن ذلك لم يكن شائعا في العوام فحسب؛ بل انتقل إلى المتنسبين إلى العلم والزهد والتصوف والأمراء والفقهاء. وأيد ذلك الوزان بما ذكره من مظاهر الانحراف التي شاهدها في رحلته[2].

---

(1) **الهبطي**: هو الشيخ أبو محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي، المعروف بالهبطي. كان من أكابر علماء المغرب في عصره. له أرجوزة من ألف بيت. بين فيها مظاهر الفساد في الحياة الاجتماعية في المغرب. توفي سنة 1555. انظر ترجمته في محمد الفاسي، **مرآة المحاسن**، مخطوط بدار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط، رقم د 567. وقد نقل عبد الكريم عبد الكريم فقرات نموذجية من الأرجوزة. انظر: **المغرب في عهد الدولة السعدية**، ص 20، نقلا عن مخطوط **ألفية الهبطي**، العائدة للأستاذ النوني، المغرب.

(2) انظر: الوزان، ص237، 250 –251، 254، 266، 271–275.

وأما الحياة العلمية والثقافية فقد ذكر الوزان بأنه كانت فيها بقية حياة في مدينة فاس خاصة، بفضل التقاليد العلمية التي درجت عليها، حيث كان بها 11 معهدا[1]، بالإضافة إلى جامع القرويين الذي كان لا يزال حتى هذا العصر يؤدي رسالته العلمية بكفاءة عالية[2]. كما بدأت مدينة تطوان تتبوأ مكانا علميا وسياسيا منذ أن بدأ المهاجرون الأندلسيون يتوافدون عليها. أما غير هاتين المدينتين فإننا لا نكاد نجد مركزا علميا آخر غير الزوايا الصوفية التي كانت منتشرة في شتى أنحاء المغرب. إلا أن تسرب الانحرافات إليها أبعدها عن رسالتها العلمية والتربوية التي أسست من أجلها[3].



---

(1) المصدر السابق، ص 231.

(2) نفسه، ص 229- 230.

(3) عبد الكريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، مرجع سابق، ص 20.

الأوضاع في تونس وليبيا

أولا : الأوضاع السياسية

1. الأوضاع في تونس

في مطلع القرن 16م، كان نفوذ الدولة الحفصية يمتد من طرابلس شرقا (ليبيا) إلى قسنطينة غربا (شرق الجزائر). بعد أن اتخذت من مدينة تونس عاصمة لها[1]. إلا أن الدولة في هذا العصر كانت قد بلغت مرحلة متقدمة من التقهقر والانهيار.

فقد تفوق البدو على الحضر من حيث العدد[2]، حتى صاروا

---

(1) بلغت تونس أوج قوتها في عهد أبي زكريا الحفصي (1228-1249) الذي تمكن من الاستيلاء على قسنطينة وبجاية والجزائر. كما أخضع ساحل طرابلس لسلطته. بل أعلنت الدولة الزيانية في تلمسان والمرينية في فاس وبنو الأحمر في غرناطة تبعيتها له عندما أعلن نفسه خليفة للمسلمين سنة 1253. وذلك عقب مقتل آخر خليفة عباسي المعتصم بالله على يد التتار وشغور منصب الخليفة. فاعترف بخلافته مماليك مصر، وأشراف مكة سنة 1259. انظر: ابن دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، تونس 1993، ص155-156؛ ومحمد بن محمد ابن السراج الأندلسي، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، بيروت 1984، 1/ 140-146.

(2) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر،** =

يعتبرون أنفسهم أصحاب تونس الحقيقيين. ومن ثم فقد كانوا يتدخلون في سياسة الدولة، ويقفون في صف من يدفع لهم أكثر ممن يطالب بالعرش، ويحافظ لهم على امتيازاتهم[1]. فوجدت الحكومات الحفصية نفسها مضطرة إلى أن تدفع لهم إعانات لكسبهم إلى صفها[2]. كما كانوا يقومون بالثورة والشغب ضد كل من يحاول حرمانهم من امتيازاتهم.

وقد حاول السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد الخامس (1494 - 1526) أن يتخلص من وصاية البدو، لكنه مني بهزيمة كبيرة قرب القيروان[3]. فكان من أثر هذه الهزيمة أن تشتتت القوى المركزية، وتحولت الدولة إلى إقطاعيات متفرقة، يحكمها شيوخ القبائل[4].

ولم يعد أمراء الدولة الحفصية في قسنطينة وعنابة، وبجاية

= المغرب) من الفتح الإسلامي إلى 1830، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، تونس 1985، 2/ 221.

(1) نيقولا إيفانوف، «القبائل الحرة والمترحلة في شمال إفريقيا في القرن 14» مقال منشور في كتاب تاريخ البلدان العربية، موسكو 1963، ص 152-192.

(2) السراج، 1/ 204.

(3) انظر: احمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس 1999، 1/ 195؛ ابن أبي دينار، المؤنس، مصدر سابق، ص182، 184؛ السراج، 1/ 204.

(4) ابن أبي دينار، ص 182.

يعترفون بخضوعهم للسلطة المركزية[1]. وبعد وفاة السلطان عثمان رفض سكان جربة الاعتراف بسلطة الحفصيين، وشكّلوا جمهورية مستقلة[2] وحذا سكان طرابلس حذوهم، فتخلصوا من الحفصيين، والتحقوا بسلطة المرابط المحلي[3].

وأما الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم من أفضل جيوش إفريقيا الشمالية فقد أصبح عاجزا عن مقاتلة أي عدو بسبب قلة عدده وعدته. إذ كان يتشكل من المرتزقة النصارى والعبيد السود والأتراك[4]. وفوق هذا؛ فإن تجهيز الجيش لم يكن في مستوى العصر. إذ بقي مسلحا بالأقواس والحراب، مفتقرا إلى الأسلحة النارية التي كانت تلعب دورا حاسما في تقرير نتائج الحروب في ذلك العصر. وأما القلاع فقد كانت تفتقر إلى الكثير من ضروريات الدفاع[5]. وعليه فإنه من الطبيعي أن يظل الجيش الحفصي عاجزا حتى عن التصدي للقراصنة الأوربيين الذين لم يتوقفوا عن تدمير سواحل

---

(1) وانظر أيضا: إتوري روسي «*İttore Rossi*» ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي، بيروت 1974. ص125- 126.

(2) انظر: الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص 467؛ وانظر أيضا: Piri reis, *Kitab-ı bahriyye (Haz), Yavuz; Sanamoğlu, İstanbul, hzn, s.186.*

(3) السراج، ص182.

(4) الوزان، ص 453، السراج، مصدر سابق، 1/ 209.

(5) إيفانوف، الفتح العثماني، مرجع سابق، ص 180.

المغرب الشرقية. ففي سنة 1510 استولى الإسبان دون صعوبة على مدن الجزائر وبجاية وطرابلس الغرب، وهاجموا جربة. ولم يتمكن أبو عبد الله محمد الخامس من القيام بأي عمل لاستعادة المدن المحتلة. بل جاءت المقاومة الوحيدة من طرف سكان المدن والقرى المجاورة[1].

ب. الأوضاع في ليبيا

وبخصوص ليبيا فإنها كانت قبل عام 1498 جزءا من الدولة الحفصية ثم خرجت من أيديهم في بداية حكم أبي عبد الله محمد الخامس الحفصي. وأسست دولة أشبه بجمهورية مستقلة يحكمها رجال الطرق الصوفية الذين كانوا يعرفون بالمرابطين. ولكن القسم الشرقي من البلاد ويسمى برقة، فقد كان خاضعا لسلطة المماليك. غير أن السلطة الحقيقية كانت في يد البدو الذين ظلوا يمثلون القوة الحاسمة في برقة، وطرابلس، وفزان. ذلك لأنه منذ القرن 12م انساحت أعداد كبيرة من البدو في مختلف المناطق الداخلية لليبيا. فأتت على آخر الحدائق والبساتين. فلم يحل القرن 14م حتى كانت المدن الممتدة على ساحل برقة قد تحولت إلى أطلال[2].

وفي أواخر القرن 15م أسس المهاجرون الأندلسيون مدينة بنغازي التي حلت بها جماعات المهاجرين القادمين من طرابلس،

---

(1) نفسه، ص177-182. إتوري، مرجع سابق، ص 148-149.

(2) الوزان، ص 439.

وبلدان الشرق الأدنى. فتحولت المدينة إلى ملجأ للبحارة والتجار المسافرين عبر البحر من الإسكندرية إلى المغرب وبالعكس[1].

ويمكننا أن نقول بأن طرابلس كانت هي المدينة الوحيدة المزدهرة بفضل قيامها بدور الوسيط التجاري، لا سيما مع البلدان الإفريقية[2]، وذلك بفضل تشكيل أهاليها لنظام شبه جمهوري مستقل عن السلطة المركزية في تونس[3].

وفي 1510 احتل الإسبان مدينة طرابلس وقتلوا قرابة 6.000 من سكانها، وأخذوا 10.000 أسيرا، بيعوا بالمزاد في أسواق باليرمو بإيطاليا. وهرب الباقون إلى مدينة تاجوراء، وجبال غريا ومسلاتة[4] التي جعل منها الأهالي قاعدة لمقاومة الاحتلال. قبل أن يرسلوا وفدا إلى إستانبول مستنجدين بالسلطان العثماني، عارضين عليه في الوقت نفسه رغبتهم في إلحاق بلدهم بالسلطنة العثمانية[5].

ثانيا : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

أشار الرحالة الوزان في رحلته إلى أن سكان المدن التونسية قد

---

(1) إيفانوف، **الفتح العثماني**، ص 215.

(2) نفسه، ص215-216.

(3) إتوري، ص 125-126.

(4) ابن غلبون، أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار**، تحقيق أيمن البحيري، بيروت 1998، ص 98.

(5) نفسه، ص 100؛ وانظر أيضا: *Piri Reis, s. 193*.

انخفض كثيرا، وبعضها هجرها أهلها لأسباب مختلفة. فمدينة سوسة مثلا خلت من سكانها بسبب ظلم الملوك، ولم يبق منها سوى خمس بيوتها، ولا يوجد فيها أكثر من خمس أو ست دكاكين[1]. واندثرت أطلال المدن والقرى التي ذكرها الرحالة في مطلع القرن 12 م، فأصبحت أثرا بعد عين[2]. أما التي بقيت فقد تحولت إلى خرابات متصدعة أو شبه منهدمة، بعد أن كانت تمثل أروع نماذج الحضارة والمدنية[3].

كما زالت معالم الحياة الزراعية إلا في نواحي المدن الساحلية، والقرى الجبلية الكبيرة. وأما السهول فقد استحالت إلى بقاع مهجورة بسبب أعمال السلب التي كان يقوم بها الأعراب[4].

ونظرا لعجز السلطة المركزية عن توفير الأمن لرعاياها، فقد كان الأهالي يحمون أنفسهم بأنفسهم. فيقيمون المنشآت الدفاعية يحتمون بها من هجمات البدو[5]. ويدفعون مبالغ كبيرة لشيوخ القبائل مقابل ضمان حمايتهم[6].

وكان الحضر يكرهون البدو، ويعتبرونهم خارجين عن الدين.

---

(1) الوزان، ص 456.
(2) نفسه، ص39 .
(3) انظر ما ذكره الوزان عن مدينة قرطاج في ص 440-442. وكذلك مدينة القيروان، ص 443.
(4) نفسه، ص 448.
(5) نفسه، ص 439.
(6) انظر : إيفانوف، الفتح العثماني، ص 178.

ولذلك فقد كانوا يرون قتالهم جهادا. ونظرا لشدة فساد هؤلاء الأعراب، فقد أصدر فقهاء تونس في ذلك العصر فتاوى اعتبروهم فيها مارقين من الدين لا يجوز بيع السلاح لهم[1].

وفي ظل ضعف السلطة وعجزها، كان السكان يعيشون في أسوء مظاهر البؤس والمسغبة. حتى دفعت الفاقة نساءهم إلى سلوك طريق الفاحشة لتأمين لقمة العيش، والشباب إلى التخنث والفجور لتأمين لقمة عيشهم[2]. ومن كان محظوظا منهم فقد كان يقوم بأعمال بسيطة لتأمين قوته كدباغة جلود الأغنام، وبيع الثياب الجلدية، وصباغة الأقمشة، والصيد، وبيع الفحم.. وغير ذلك من الأعمال التي لا تكاد تحقق لهم الاحتياجات الضرورية اليومية[3]. ويستثنى من هذه الظروف الصعبة، أهالي مدينة تونس الذين كانوا يحيون حياة أفضل. فقد ذكر الوزان أنها كانت مدينة مزدحمة بالسكان، الذين كان أغلبهم يشتغل بصناعة وتجارة الأقمشة. كما أن بها عدد كبير من التجار والصناع المهرة[4]. ولا غرابة في ذلك نظرا لكونها عاصمة الدولة، ومن الطبيعي أن تكون لها ولسكانها ظروف خاصة تجعلها تعيش في وضع أفضل من غيرها من المدن

---

(1) ابن أبي دينار، ص 183؛ السراج، 1/ 208.

(2) الوزان، ص 450.

(3) انظر ما ذكره الوزان عن سكان مدينة الحمامات في ص455، وكذلك وصفه لمدينة القيروان في ص 464.

(4) نفس المصدر، ص 447.

كما كان الشأن في عاصمة الزيانيين تلمسان، وعاصمة المرينيين، ثم الوطاسيين فاس.

وبالرغم من ظروف الفقر الشديد، والتدهور الشامل لكل أوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي في تونس الحفصية، فإن سلاطين هذه المملكة لم يكونوا يتورعون عن إرهاق رعاياهم بمزيد من الضرائب والغرامات التي ضاعفت من بؤسهم وفقرهم حتى اضطر الكثير منهم إلى هجر أراضيهم، ومدنهم فرارا من هذه الضرائب والإتاوات[1]. وأما عن سلوك الملك أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي، فقد أشار الوزان إلى أنه كان بارعا في استخلاص المال من رعاياه. فيعطي قسما منه للأعراب تفاديا لثورتهم وأما الباقي فينفقه على بناء القصور، حيث يحيا حياة كلها ميوعة وشهوانية بين الموسيقيين والمطربين والمطربات، بينما شعبه يتضور جوعا[2].



(1) نفس المصدر، ص438، 442، 465.

(2) المصدر السابق، ص454؛ وانظر أيضا: أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر 1984، ص 229.

الباب الأول

الجزائر قبيل الدخول العثماني

الفصل الأول: انهيار الدولة الزيانية في الجزائر

الفصل الثاني: الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

الفصل الأول
انهيار الدولة الزيانية في الجزائر

التنافس الحفصي المريني على الجزائر وأثره في انهيار الدولة الزيانية

عقب انهيار دولة الموحدين، وانقسام المغرب العربي والأندلس إلى دويلات صغيرة أسس يغمراسن بن زيان (1236- 1283) سنة 1235 دولة اتخذت من تلمسان عاصمة لها عرفت بدولة بني عبد الوادي أو بني زيان[1]. إلا أن هذه الدولة لم تعرف الاستقرار إلا في فترات قصيرة من تاريخها، ذلك بسبب موقعها الذي فرض عليها أن تكون محصورة بين الحفصيين والمرينيين[2] الذين ما فتئوا يتطلعون لبسط نفوذهم على حسابها.

فالمرينيون كانوا يرغبون في التوسع شرقا على حساب الزيانيين

---

(1) عن تأسيس دولة بني زيان انظر: ابن خلدون ، **العبر**، 6/ 257؛ 7/ 177، وما بعدها.

(2) نلاحظ أن الوطاسيين الذين خلفوا المرينيين على فاس لم تختلف سياستهم عن سياسة أسلافهم المرينيين في السعي إلى بسط النفوذ على حساب مملكة بني زيان، والعمل على إضعافها على الأقل.

الذين كانوا يطمحون إلى فك الحصار المفروض عليهم من الشرق والغرب. ولإشغال الخصوم لم يكن الزيانيون يترددون في دعم الطامعين في العرش في البيت المريني، ومهاجمة المدن المرينية ملحقين بها أكبر قدر من الخراب والتدمير. ومن ثَمّ فمن الطبيعي أن يعتبر المرينيون الدولة الزيانية مصدر إزعاج وفتنة بالنسبة لهم، ولذلك فقد قاموا بغزو تلمسان عدة مرات بغية تقويض العرش الزياني. إذ قاموا باحتلالها لمدة 12 عاما (1337-1348). لكن الزيانيين سرعان ما تمكنوا من إنقاذ دولتهم من المرينيين في عصر عثمان الثاني (1348-1352). إلا أن هذا الاستقلال لم يعمَّر طويلا، إذ تمكن المرينيون من احتلال تلمسان مرة أخرى سنة 1352 فانقطعت بذلك الدولة الزيانية للمرة الثانية. واستمر ذلك إلى 1358 حيث أعاد أبو حمو موسى بن يوسف (1359- 1389) إحياء الدولة الزيانية من جديد. وفي سنة 1388 أعاد المرينيون احتلال تلمسان، وقرئت الخطبة باسمهم على منابرها في 1392.

ولم تكن العلاقة الزيانية الحفصية أحسن حالا من العلاقة الزيانية المرينية. فقد كانت العلاقة بين الدولتين تسودها الريبة والتوجس. إذ أن كلا منهما كان يتربص بالآخر لحظة ضعفه ليعمل على توسيع مناطق نفوذه على حساب الآخر. ففي عهد ابن تاشفين الأول (1318- 1337) تمكن الزيانيون من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط كله واحتلوا تونس. فاستنجد بنو حفص بالمرينيين، فأجابهم أبو حفص المريني إلى ذلك، وحاصرت القوات الحفصية

المرينية المتحالفة تلمسان سنة 1334[1]. وفي عهد أبي حمو الثاني (1359 – 1389) امتد سلطان الزيانيين إلى بجاية[2]. إلا أنهم تلقوا هزيمة ثقيلة سنة 1366. وفي عهد السلطان الحفصي أبي فارس (1394 – 1434) وعثمان (1435–1488) تمكن الحفصيون من الانتصار على الزيانيين، وإجلاس سلطان تابع لهم على العرش الزياني[3].

لقد كان الموقع الجغرافي لبني زيان في المغرب الأوسط بين كتلتين سياسيتين متحاربتين: الحفصيين والمرينيين، ثم الحفصيين والوطاسيين فيما بعد قد جعلهم دائما في حالة حرب مستمرة مع الدولتين المجاورتين. ومع باقي قبائل وسكان المغرب الأوسط. الأمر الذي حرم الدولة الزيانية من البروز كقوة دولية في المنطقة. فلم تكن لها قوة كبرى في مجال الجهاد الإسلامي والصراع الدائر على أرض الأندلس، ومياه البحر المتوسط. بل لم تزد عن أن كانت قوة عشائرية ذات كيان سياسي محدود، ومحصور بين قوتين متنافرتين.

إن الوضع الصعب الذي وجد الزيانيون فيه أنفسهم، جعلهم يخضعون للحفصيين حينا وللمرينيين حينا آخر. بينما يستقلون

---

(1) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، القاهرة 1994، 3/ 141 – 143.

(2) نفسه، 3/ 141 143.

(3) لمزيد من التعرف على حروب الزيانيين مع جيرانهم، انظر: الغنيمي، 3/ 117 – 119، 121 – 122، 126 – 127.

عنها عندما تواتيهم الظروف[1]. ولم يكونوا يترددون في الاستعانة بالحفصيين ضد المرينيين، أو العكس. كما كانوا يستغنون عنهما عندما يشعرون بضعفهما. ثم لا يلبثون أن يعودوا لمداراتهما، وذلك تبعا لما تفرضه عليهم مصالحهم السياسية[2].

كما فرض الوضع الجيوسياسي الصعب على الدولة الزيانية أن تكون في حالة استعداد دائم للحرب، وأن تعمل باستمرار على كسر الطوق الذي يفرضه عليها جيرانها. ولذلك فقد سعت إلى توسيع حدودها الشرقية على حساب الحفصيين، والغربية على حساب المرينيين كلما وجدت الفرصة مواتية لذلك[3].

فيغمراسن مؤسس الدولة خاض 72 غزوة ضد جيرانه[4]. وهذه الحروب إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الأخطار التي كانت تهدد على الدوام استقرار الدولة بل وجودها بالكامل.

ونظرا لتكافؤ القوة بين دول المغرب، فإن حدود هذه الدول لم تعرف الثبات والاستقرار. بل كانت تتسع وتضيق تبعا لقوة الدولة

---

(1) انظر: ابن خلدون، 7/ 210؛ وانظر أيضا: المرجع السابق، 3/ 116؛ الطمار، ص 125، 140.

(2) انظر: الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، مرجع سابق، 2/ 77.

(3) **تاريخ إفريقيا العام**، مرجع سابق، 4/ 107؛ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب) من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830**، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، تونس 1985، ص 201– 202.

(4) الغنيمي، 3/ 116.

وضعفها. فجيوش المرينيين وصلت إلى تونس والزاب وقسنطينة. كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان[1].

ومن جهة أخرى، فقد كانت الدولتان المجاورتان تعملان كل ما في وسعهما للإبقاء على الدولة الزيانية ضعيفة، ليتسنى لهما اتخاذها درعا يحتمي به كل منهما ضد خصمه . كما كانا يشجعان أطراف الصراع في البيت الزياني، ويقدمان الدعم لمن يبدي لهما استعداده لأن يكون تابعا لهما وراعيا لمصالحهما. وكثيرا ما كان أمراء البيت الزياني يلجؤون إلى تونس أو فاس مستنجدين بهما ضد منافسيهم على العرش[2].

وقد لخص الوزان وضع الدولة الزيانية بقوله:

«... وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس الذين دخلوا مملكة تلمسان عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل، أو الأسر، أو الفرار عند جيرانهم الأعراب. وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قِبَل ملوك تونس الحفصيين. غير أنهم كانوا يستردون السلطة دائما، واستطاعوا أن يستمتعوا بها مدة 130 سنة تقريبا – أي منذ انهيار سلطة المرينيين في نهاية القرن 14م– بدون أن يتعرضوا لأذى من أي ملك غريب، إلا من أبي فارس ملك تونس

---

(1) انظر: ابن خلدون، العبر،1/ 276، 7/ 81.

(2) انظر: الطمار، ص 201.

ومن ابنه عثمان. فهذا الأخير فرض على تلمسان دفع جزية لتونس مدة من الوقت استمرت حتى وفاته سنة 1488..»[1].

وقد كان من أثر الظروف الصعبة التي عاشتها الدولة الزيانية طيلة تاريخها ذلك نتائج خطيرة انعكست على حاضرها ومستقبلها أهمها:

أولا: حرمان الإمارة الزيانية من البروز كدولة قوية مستقلة يمكنها أن تلعب دورا مهما في استقرار دول المغرب العربي، ومساندة مسلمي الأندلس الذين كانوا يعيشون أيامهم الأخيرة في غرناطة.

ثانيا: حرمت الدولة الزيانية من قاعدتها البشرية المستقرة بفعل الهجرة الداخلية المستمرة التي فرضتها الحروب المتكررة مع الجيران، الأمر الذي كان يجبر الأهالي على النزوح بحثا عن أماكن أكثر أمنا. وقد ترك ذلك آثارا سلبية انعكست على النمو الاقتصادي للدولة، التي كانت تعتمد على عائدات التجارة مع السودان، والتجارة الخارجية عبر موانئ المرسا الكبير ووهران وهنِّين. هذه الموانئ التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني منذ مطلع القرن 16م، فأصيبت الدولة الزيانية بالاختناق. واضطرت إلى فرض مزيد من الضرائب على الأهالي الذين كانوا يعانون أساسا من الفقر والحاجة فزادت النقمة الشعبية على الدولة.

---

(1) الوزان، مصدر سابق، ص380، وانظر أيضا: محمد زروق، دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص 49.

وهكذا نستطيع أن نقول إن بقاء هذه الدولة كل هذه المدة يعتبر معجزة تاريخية. ولا شك أن طول حياتها إنما هو ثمرة من ثمرات الأوضاع المتناقضة التي مرّت بها المنطقة منذ سقوط دولة الموحدين. بالإضافة إلى السياسة البارعة التي انتهجها بعض ملوكها الأكفاء الذين كان من أكثرهم توفيقا مؤسسها يغمراسن وأبو حمو الثاني.



الصراع على العرش بين أفراد البيت الزياني وأثره في انهيار الدولة الزيانية

لم يكن التنافس الحفصي المريني هو السبب الوحيد الذي أدى إلى إضعاف الدولة الزيانية، بل إن الصراع على العرش بين أفراد البيت الزياني لعب دورا خطيرا في التعجيل بانهيار الدولة، خصوصا في مطلع القرن 16م. ففي 1503 جلس السلطان الزياني أبو زيان المسعود خلفا لأبيه أبي عبد الله محمد الثالث (1490-1503). فثار عليه عمه أبو حمو الثالث، واستولى على الحكم، وسجن السلطان الشرعي أبا زيان المسعود؛ بينما فرَّ أخو هذا الأخير السجين المدعو يحيى الثابتي إلى فاس محتميا بالملك الوطاسي محمد البرتغالي (1500 - 1525)[1].

استدعى أهالي تنس يحيى الثابتي ونودي به ملكا[2]. ثم لم يلبث أن أعلن الثورة على عمه المغتصب للعرش الزياني بتلمسان بتحريض من الإسبان الذين كانوا قد احتلوا المرسا الكبير، ومدينة وهران سنة 1509[3]. فجهز أبو حمو الثالث (السلطان المتغلب) جيشا لقتال ابن أخيه الثابتي المتحصن بتنس كما استعد هذا الأخير لقتال عمه السلطان أبي حمو، والتقى الجمعان إلا أن المعركة انتهت دون

---

(1) الوزان، **وصف إفريقيا**، ص 406- 407.

(2) نفسه، ص 406- 407.

(3) الطمار، ص 227-228.

أن تسفر على انتصار أيٍّ منهما، فرجع أبو حمو بجموعه إلى تلمسان.

حارب أبو حمو الثالث الإسبان مرارا لكنه عندما لم يتمكن من الانتصار عليهم وجد نفسه مضطرا في النهاية إلى مهادنتهم، بل والاحتماء بهم محافظة على عرشه المتهاوي[1]. فصالح الإسبان على أن يدفع لهم سنويا 12.000 دوقة[2]، و12.000 فرسا، و6 بُزاة[3].

وعندما علم أهل تلمسان بهذه المعاهدة ثاروا عليه لإهانته الإسلام وأهله، وإثقاله لكواهلهم بما يفرضه عليهم من ضرائب. فأرسلوا وفدا من العلماء والأعيان إلى الجزائر يطلبون من عروج القدوم عليهم وتخليصهم من تسلط أبي حمو[4]. فهرب أبو حمو عند ذلك إلى وهران، ومنها ذهب إلى الملك شارلكان طالبا منه العون ضد بني ملته.

بعد هروب أبي حمو نودي بأبي زيان المسعود ملكا. ولما توجس هذا الملك خيفة من الإسبان، تحالف مع عروج الذي وصل إلى تلمسان مع جنوده.

---

(1) نفسه، ص 207-209.

(2) دوقة: عملة ذهبية كانت تصدرها جمهورية البندقية ويتم التعامل بها في أوربا والولايات العثمانية خلال الفترة موضوع الدراسة. انظر: Mehmet Zeki Pakalın, *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü*, İstanbul 1993, I.479.

(3) نفسه، ص 227-228.

(4) كان عروج قد دخل الجزائر بدعوة من أهالي الجزائر الذين طلبوا منه القدوم إليهم لتخليصهم من الإسبان، كما سيأتي توضيح ذلك مفصلا في موضعه من هذه الدراسة.

مناطق النفوذ في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر

وفي مطلع القرن 16م كان الزيانيون يسيطرون على القسم الغربي من الجزائر، إلا أنهم عمليا لا يحكمون إلا تلمسان وضواحيها، وساحل البحر إلى مقربة من مدينة الجزائر. بينما كان الحفصيون يسيطرون على القسم الشرقي من الجزائر حيث كانوا يحكمون نظريا بجاية وقسنطينة وبلاد الزاب. أما بقية البلاد فقد كانت مجزأة إلى وحدات سياسية صغيرة متنافرة لا يسودها الوئام. فأغلب المدن الساحلية كوهران وتنس وشرشال والجزائر ودلّس وبجاية والقلّ وغيرها، كانت إما تحت حكم أمير زياني منشق عن الدولة الزيانية كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس، أو عن الدولة الحفصية كعبد الرحمن الحفصي في بجاية. أو كانت خاضعة لسلطة مجلس منتخب من سكان المدينة كوهران، أو شيخ قبيلة كسالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر.

وكانت كل المناطق الجبلية في المناطق ذاتها مستقلة تماما. وتأسست في بعضها إمارات ذات أصل طرقي أو شريفي، من أهمها: إمارة بني عباس في جبال القبائل جنوب بجاية، وإمارة كوكو الواقعة إلى الغرب من جبال القبائل ذاتها.

واستقلت المناطق الداخلية والجنوبية عنهما تحت حكم بعض

الأسر، كأسرة بني الجلاّب في توقرت، وعلاهم في جنوب الجزائر، وبني ورجلان في ورقلة التي كان يتولى إمارتها شيوخ الإباضية. ويمتد سلطانها إلى قرى وادي ميزاب غربا وإلى المنيعة جنوبا.

وسادت القبائل في المناطق السهلية، كقبائل الذواودة في القطاع القسنطيني وبلاد الزاب والحضنة، وبعض جهات الصحراء[1].

وأما في الغرب، فقد استوطنت قبائل بني عامر العربية التي كان يغمراسن قد أقطعها الصحراء المحيطة بوهران وتلمسان ليحتمي بها من مهاجمة خصومه المعاقيل المقيمين بسهول متيجة. كما كان قد استقدم قبيلة حميان الهلالية فأقامها بصحراء تلمسان، جاعلا منها حصنا منيعا بينه وبين بني مرين. كما أسكن فريقاً آخر من القبائل العربية كقبيلة عكرمة في جبال كركرة، وجعل منها حواجز بشرية لحماية عاصمته.

والملاحظ هنا أن جميع هذه القبائل كانت مستقلة في إدارة شؤونها، ولم تكن تخضع لأي سلطة سياسية[2]، وإن كانت تتبع إسميًا هذه الإمارة أو تلك. وقد كان لهذه القبائل دور كبير في

---

(1) انظر هذه الوحدات السياسية في: جوليان، ص321؛ المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص93- 95، 338؛ عمار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب** (1517- 1659). رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ 1985 ص 20؛ المدني؛ **كتاب الجزائر**، مرجع سابق، ص 125- 145.

(2) الطمار، **تلمسان عبر العصور**، مرجع سابق، ص 29.

زعزعة الاستقرار الداخلي للجزائر. كما أنها لعبت دورا فعالا في إثارة القلاقل أثناء الفترة الأولى من الدخول العثماني للجزائر كما سيتضح ذلك لا حقا. وهكذا استمر الصراع على العرش الزياني بين الإخوة مستعينين بالإسبان تارة، وبالأتراك تارة أخرى إلى أن قرر صالح رئيس القضاء نهائيا على الدولة الزيانية، وإلحاق تلمسان بإيالة الجزائر العثمانية سنة 1554. بعد أن أفتى علماء تلمسان بخلع آخر أمراء بني زيان الذي خرج منها ولجأ إلى إسبانيا ومات بها[1].



---

(1) المدني، كتاب الجزائر، ص 32- 34.

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

وبالرغم من سوء الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها المملكة الزيانية في مطلع القرن 16م، فإن مدينة تلمسان كانت تمثل مركزا تجاريا هاما بالنظر إلى موقعها الجغرافي. ولم ينقطع عنها التجار حتى في الأوقات العصيبة. فقد كان التجار يتزودون منها بمنتوجات بلاد السودان مثل العاج، والذهب، والعبيد[1]. ويرسلون سلعهم منها إلى ما وراء الصحراء عن طريق سجلماسة. حيث تلتقي قوافل المغرب الأوسط بقوافل المغرب الأقصى وتتجه جميعا إلى تنبكتو ثمّ إلى غانا. وقوافل أخرى تخرج من سجلماسة وتقصد موريتانيا ثمّ السنغال ومالي وغانا وغينيا[2].

ولم تقتصر حركة تجار تلمسان على جهات الصحراء فقط، بل كانت تقوم بدور الوسيط مع الأسواق الأوربية عبر موانئ المرسا الكبير[3] وميناء وهران وهنين، التي لعبت دورا كبيرا في إنعاش الحركة التجارية بهذه المملكة. فقد ذكر الوزان أن هذه الموانئ كان

---

(1) جوليان، ص 201- 202.

(2) الغنيمي، 3/ 170؛ الطمار، ص205، الجيلالي، **تاريخ إفريقيا العام**، 4/ 108- 109.

(3) ذكر الوزان أن المرسا الكبير كان لا يوجد له مثيل في العالم قاطبة، إذ تستطيع مائة سفينة أن ترسو فيه بكل راحة في مأمن من العواصف. ومن عادة السفن البندقية أن تلجأ اليه عند هياج البحر، فترسل بضائعها إلى وهران بالقوارب. انظر: الوزان، ص 400.

يقصدها عادة كثير من التجار الجنويين والبنادقة، الذين كانوا يزاولون تجارتهم عن طريق المقايضة[1]. فالسفن كانت تشحن بالسلع المحلية التي ترسل إلى الأندلس ومارسليا وبيزا وجنوة، ثم ترجع منها مشحونة بسلع تلك البلاد[2].

وبسبب انتعاش الحركة التجارية فقد كانت الدولة تجني من الضرائب التي تفرضها على السلع المستوردة أو المصدَّرة عائدات كبيرة. وعندما كانت وهران تابعة للمملكة الزيانية كانت هذه الأخيرة تجني أرباحا تبلغ 300.000 إلى 400.000 دينارا[3].

ولم يكن الانتعاش التجاري مقتصرا على موانئ الغرب الجزائري فحسب، بل إن الموانئ الأخرى في شرق الجزائر والتي كانت خاضعة للأمراء الحفصيين المحليين كانت تعيش نفس النشاط. فموانئ القالة، وعنابة، وسكيكدة كانت تستقبل السفن القادمة من جنوة، وتونس، وجربة. فتصدَّر من خلالها الجلود، والقمح، والسمن. وتستورد الأقمشة ومنتوجات أوربية أخرى[4]. كما كانت تقوم مدن منطقة ميزاب الواقعة على أبواب الصحراء بدور الوسيط التجاري بين مدينة الجزائر، وبجاية وبين تجار بلاد السودان[5].

---

(1) نفسه، ص 380.

(2) نفسه، ص 386؛ وانظر أيضا: الطهار، ص 205.

(3) المصدر السابق، ص 393- 394.

(4) نفس المصدر، ص426، 446-427، 433-434؛ وانظر أيضا: *Piri Reis, II,s.169.*

(5) الوزان، ص 507.

وما يقال عن تلمسان يمكن قوله عن جيجل، وهنّين. بل يكاد أن يكون هذا الانتعاش قاسما مشتركا بين المدن الساحلية التي كانت تستفيد من موقعها في التبادل التجاري مع تجار أوربا قبل الغزو الإسباني لسواحل الجزائر ابتداء من بداية القرن 16 م[1].

لكن رغم الانتعاش الاقتصادي الذي كانت تعيشه المدن الساحلية التي كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين أوربا وإفريقيا. إلا أن المناطق الداخلية والبعيدة عن المناطق الحضرية للجزائر كانت خارجة عن سيطرة الدولة. فهي إما خاضعة لسيطرة القبائل، أو لا تخضع لأحد. الأمر الذي جعلها مجالا خصبا لقطاع الطرق وعصابات البدو القادمين من الجنوب[2]. فقد ذكر الوزان أن غرب مملكة تلمسان كان موحشا جافا. تعيش فيه عصابات من اللصوص من الأعراب الذين يقومون بقطع الطرق واغتيال الناس بلا رحمة. كما ذكر بأنه نادرا ما يفلت التجار من أيديهم. ونفس الأمر ينطبق على أهالي جبال قسنطينة الذين لم يكونوا يستطيعون مزاولة تجارتهم في السهل خوفا من الأعراب، ولا في المدن خوفا من ظلم الأمراء[3]. كما أشار إلى أن الأراضي الزراعية في ضواحي عنابة هجرها أهلها بسبب اعتداءات البدو[4].

---

(1) انظر ما ذكره الوزان عن سكان بجاية في رحلته، ص 423، وعن جيجل، ص 424.

(2) **تاريخ الجزائر العام**، 4/ 108- 109.

(3) المصدر السابق، ص 382.

(4) نفسه، ص 476.

الفصل الثاني
الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

شجع الانحلال الذي كانت تعيشه بلدان المغرب العربي كلا من الإسبان والبرتغال على العمل لاحتلال المناطق الساحلية منه، لتحقيق جملة من الأهداف الاستراتيجية التي كانا يطمحان إليها. فقد لاحظ أحد كتاب البلاط الإسباني هذا الانهيار، وعبر عنه بقوله:

«إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار يحمل على الاعتقاد بأن الله أراد أن تكون هذه البلاد في متناول صاحب الجلالة»[1].

وهكذا، ففي سنة 1494 عقدت البرتغال وإسبانيا اتفاقية لتقسيم مناطق النفوذ بينهما. وقد عرفت هذه الاتفاقية بـ: «اتفاقية توردي سلاس ***Tordesillas***». تم بموجبها تقسيم المستعمرات، بحيث كانت الأقاليم الشرقية من نصيب البرتغال، والغربية من

---

(1) جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، مرجع سابق، 3/ 323؛ بسام العسلي، **خير الدين بربروس والجهاد البحري**، بيروت، 1986، ص 56.

نصيب إسبانيا. أما بالنسبة لشمال إفريقيا، فقد أضيفت لها اتفاقية أخرى سنة 1509 عرفت بمعاهدة «فيلا فرنكا». تم بمقتضاها جعل المستعمرات الإسبانية في الشرق (الجزائر، تونس، طرابلس)، والمستعمرات البرتغالية في الغرب أي في المغرب[1].

والجدير بالذكر أن إسبانيا شرعت منذ عقد اتفاقية «توردي سلاس» في تموز 1494 في العمل على احتلال سواحل الجزائر، وتونس، وليبيا. حيث تمّ احتلال ميناء المرسا الكبير، وميناء وهران قبل عقد الاتفاقية المتمِّمَة في 1509 التي باركها البابا إسكندر بورجيا[2] ***ALEXANDDRE VI BORGIA***، معطيا بذلك الصبغة الدينية والرسمية لما جاء بعدها من حملات استعمارية لمدن الساحل الشمال إفريقي[3].

---

(1) انظر الظروف والأسباب التي أدَّت إلى عقد هذه الاتفاقية في: الغنيمي، 3/ 79–81 (القسم السادس)؛ وانظر أيضا: العسلي، ص 58.

(2) إسكندر بورجيا ***ALEXANDRE VI BORGIA*** تولى البابوية من سنة 1492 حتى سنة 1503. لعب دورا كبيرا في التحريض على إنهاء الوجود الإسلامي من الأندلس، وتوجيه الحملات الصليبية لاحتلال سواحل الجزائر. انظر : العسلي، ص 59، وانظر أيضا: *Grolier Internaional Americana Encyclopedia* ,Istanbul, (thz) I. s.244.

(3) بلقاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر وهيبتها العالمية قبل 1830**، الجزائر 1985، 1/ 56– 57.

فقد ذكر بعض الباحثين[1] أن الملكة إيزابيلا كلفت اثنين من اتباعها بمهمة استطلاعية سرية في مملكة تلمسان تمهيدا لاحتلالها. فتنكر المبعوثان في زي التجار، وأمضيا سنة في مملكة تلمسان حيث حصلا على كل المعلومات اللازمة لمشروع الغزو الذي كان يجري الإعداد له. كما استعان الكاردينال خمينيس[2] ***Ximenes de Cineros*** بأحد العارفين بالساحل الجزائري من جمهورية البندقية. وبناء على المعلومات المتوفرة قررت الملكة مهاجمة تلمسان. فأعدت قوة كبيرة بقيادة حاكم غرناطة الذي مول الحملة. إلا أن موت الملكة سنة 1504 أخَّر الحملة التي كانت حلم حياتها. لكنها لم تهمل أن تطالب في وصيتها بعدم التوقف عن فتح إفريقيا[3].

وكان الملك فرديناند يرغب في تأجيل هذه الحملة، لكن انتصاره على الفرنسيين[4]، وجرأة البحارة المسلمين الذين كانوا

---

(1) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 13.

(2) خمينيس ***Ximenes*** واسمه: ***Francois Jimenesde*** كاردينال، ولد في قشتالة (1463-1517). تم تعيينه أمينا لسر الملكة الإسبانية إيزابيلا، ثم كاهنا لطليطلة سنة 1465، ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة إيزابيلا سنة 1504. ثم عين رئيسا لمحاكم التفتيش (1506-1516). تولى قيادة الحملة على وهران سنة 1509. اشتهر بقسوته في إبادة المسلمين. وكان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب بغية تنصير أهله. انظر: العسلي، هامش 1 ص 45.

(3) دوغرامون، المصدر السابق، ص 4؛ وانظر أيضا: عامر، ص 13.

(4) كانت إسبانيا وفرنسا تتنازعان النفوذ على إيطاليا، حيث أن كلا منهما=

يغيرون على سواحل إسبانيا انطلاقا من السواحل الشمال إفريقية انتقاما لإخوانهم في الأندلس، دفعت فرديناند إلى التعجيل بتنفيذ مشروع الحملة[1].

وهكذا شرعت إسبانيا في الإعداد لهذه الحملة التي وضع البابا من أجل إنجاحها كل الإمكانيات البشرية والمادية تحت تصرف إسبانيا. فجمع القساوسة والرهبان كنوز الكنائس الثمينة لتزويد جيوش الحملة الصليبية على سواحل المغرب الإسلامي[2].

أ- احتلال المرسا الكبير (1505)

نظرا للأهمية الاقتصادية الخاصة لهذا الميناء[3]، وقربه من مدينة وهران التي لا يبعد عنها سوى 8 كيلومترات[4]. وكذا قربه من إسبانيا. ولأجل ذلك جعلت المخططات الإسبانية هذا الميناء هدفها

= كان يدعي أحقيته في وراثة عرش نابولي. فوقعت بينهما حروب طويلة كان لها أثر كبير على مجريات الأحداث في مطلع القرن 16م. انظر: العسلي، ص 48- 49.

(1) محمد خيري فارس، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، بيروت، (بدون تاريخ) ص 18.

(2) العسلي، ص 58.

(3) سبقت الإشارة إلى الأهمية الاقتصادية التي كان يلعب المرسا الكبير في المبحث المتعلق بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية من هذه الدراسة.

(4) بسبب اتساع مدينة وهران، فقد صار هذا الميناء الحيوي الآن داخل محيط مدينة وهران.

الأول لحملاتها. وهكذا وصل الأسطول الإسباني إلى ميناء المرسا الكبير في 11 سبتمبر 1505 يُقلّ 5.000 جندي[1]، بعد أن تأخر بعض الشيء نتيجة لاعتراض رياح معاكسة له. لقد كان هذا التأخر في صالح القوات الإسبانية. لأن القوات الرسمية والشعبية التي جاءت للدفاع عن الميناء عندما بلغها خبر إقلاع الأسطول من ميناء مدينة مالقة الإسبانية في 29 أوت 1505 أسرعت إلى المرسا الكبير، وانتظرت وصوله. لكن عندما طال انتظارها ظنت أن الإسبان تراجعوا عن مهاجمة الميناء. فرجع أكثرهم تاركين حامية لا يزيد عدد أفرادها عن 500 رجل، وُكِّلت إليها مهمة الاستطلاع والمراقبة[2].

عندما وصل الأسطول الإسباني اشتبك مع حامية المرسا في معركة عنيفة غير متكافئة، انتهت باحتلال قلعة المدينة والتحصّن بها. وبعد 50 يوما من المقاومة الشعبية العنيفة[3]، قرر أعيان المدينة تسليم المدينة للإسبان مقابل اتفاقية تضمن لهم الحياة، وحرية

---

(1) في رأي محمد خيري فارس كان عدد جنود الحملة 10.000 جندي. انظر: فارس، **تاريخ الجزائر الحديث** ص 18؛ وانظر أيضا: عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، مرجع سابق، ص 13؛ الميلي، **تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، 3/ 22- 24.

(2) المدني، ص96- 102.

(3) أحمد بن عبد الرحمن الشعراني الراشدي، **القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الوسط**، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت 1991، ص 64؛ وانظر أيضا: جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، 3/ 323؛ العسلي، ص 60-61.

الانسحاب من دون أذى. فوافق الإسبان على ذلك بشرط أن لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن والحيوانات. فأخلى الأهالي المدينة، ودخلها الإسبان ورفعوا فوقها أعلامهم، وحولوا في الحال جامعها الأعظم إلى كنيسة[1].

أرسل الملك الزياني جيشا بلغ بالإضافة إلى المتطوعين 22.000 جنديا من المشاة، و2.000 من الفرسان لتحرير المدينة. لكن الإسبان كانوا قد أحكموا تحصينهم بها، ونصبوا مدافعهم على أسوارها. ونشبت معارك عديدة تحت أسوار المدينة، لكنهم لم يتمكنوا من زحزحة الإسبان عن مواقعهم[2].

وما كاد خبر احتلال المرسا الكبير يصل إلى إسبانيا حتى اجتاحتها موجة من الفرح والابتهاج، وأعلن فيها العيد لمدة أسبوع. وعملت الحامية الإسبانية من جهتها على فتح سوق تجاري إلى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية، وإقامة علاقات مع السكان. كما أغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار. غير أن الأهالي اعتبروا المتعاونين مع الإسبان خونة

---

(1) المدني، ص 98؛ العسلي، ص 61.

(2) انظر: الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**. دراسة وتحقيق يحيى بوعزيز، بيروت 1990 1/ 211؛ وانظر أيضا: المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 96- 102؛ جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ص 234 – 234.

مارقين من الدين، وعاملتهم معاملة الأعداء، وأخذت توالي الغارات عليهم[1].

وهكذا فإنه بسقوط هذا الميناء تبدأ مرحلة طويلة من الصراع الدامي بين الجزائر وإسبانيا دام 300 سنة، وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني بالجزائر.

ب- خضوع مدينة تنس (1507)

أدرك الإسبان بسرعة أن استغلال التناقضات الداخلية، والاستعانة بالخونة لتثبيت وجودهم أمر بالغ الأهمية. ومن ثَم فقد شرعوا منذ احتلالهم للمرسا الكبير في توطيد علاقاتهم بالأعراب المحيطين بالمرسا الكبير واستمالتهم إليهم، واستعمالهم كأعوان لهم لتثبيت وجودهم. كما راحوا يبثّون الشقاق بين أفراد البيت الزياني المتصارع على العرش بغية إنهاكه وإلهائه عن التصدي للاحتلال.

فقد سبقت الإشارة إلى أن أبا زيان الثالث الملقب بالمسعود جلس على العرش الزياني سنة 1503 خلفا لأبيه أبي عبد الله محمد الثالث الذي كان قد توفي في تلك السنة . فثار عليه عمه أبو حمو الثالث، واغتصب منه العرش، وسجن السلطان الشرعي المسعود، بينما فرَّ أخوه المدعو يحيى الثابتي إلى فاس طالبا مساعدتهم له ضد عمه أبي حمو مغتصب العرش[2]. فلم يلبث الثابتي أن استدعاه

---

(1) العسلي، ص 63.

(2) الوزان، ص 406 — 407.

أهالي تنس وعينوه ملكا عليهم[1].

في هذه الفترة المتسمة بالفوضى السياسية وعدم الاستقرار، نجد الإسبان ينتهزون الفرصة فيقومون ببسط حمايتهم على الأمير الثائر يحيى الثابتي ضد عمه السلطان المغتصب أبي حمو الثالث. عقابا له على إرساله جيشا كبيرا لصدهم عن المرسا الكبير.

وهكذا أصبحت تنس تابعة للإسبان بدون مقاومة تذكر[2]. فقد جعل أمراء البيت الزياني المتصارعين على العرش الانتصار الشخصي على غرمائهم ومنافسيهم فوق كل اعتبار. وراحوا يضحون بمدنهم ورعاياهم، مقابل بقائهم متربعين على عرش متهالك. وسوف نرى أن هذا السلوك يتكرر منهم أكثر من مرة ضد بعضهم تارة، وضد الأتراك العثمانيين الذين حملوا لواء المقاومة لتحرير السواحل الجزائرية تارة أخرى.

ت- احتلال وهران (1509)

في 20 أوت 1508 عين الملك الإسباني فرديناند الكاردينال خيمينيس قائدا عاما على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران، إحدى أكبر المدن الواقعة غرب الجزائر، وثاني أهم ميناء ومنفذ تجاري بعد ميناء المرسا الكبير. فقام هذا الأخير بإكمال إعداد الحملة، وأبحر الأسطول الإسباني من ميناء قرطاجنة الإسباني يوم

---

(1) نفسه، ص406-407؛ الطمار، **تلمسان عبر العصور**، ص227- 228.

(2) جوليان، 3/ 323.

7 ماي 1509. كان مكونا من 15.000 جندي[1]، فأقلّته 33 باخرة حربية و51 زورقا صغيرا إلى سواحل وهران[2]. فنزلت هذه القوات إلى البر دون عائق بعد أن التحقت بها قوات الأسطول الإسباني الذي كان مرابطا في المرسا الكبير[3].

كان المسلمون قد استعدوا لمواجهة الإسبان، ولذلك فقد خرجوا للقائهم خارج المدينة واشتبكوا معهم في معارك شرسة على مشارف المدينة[4]. إلا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها قام حاكم المرسا الكبير بشراء ذمة أحد يهود الأندلس اللاجئين إلى وهران يدعى شطورا[5]، الذي كان يعمل قابضا عاما

---

(1) المدني، ص 110-113.

(2) أشار الراشدي إلى أن أحد يهود الأندلس الخونة أعار للإسبان عددا من المراكب لاستعمالها في الإغارة على وهران. انظر **القول الأوسط**، ص64. وسوف يرد ذكره بعد قليل. وعن هذه الحملة انظر أيضا: الميلي، **تاريخ الجزائر**، 3/ 26.

(3) المدني، ص 110.

(4) نفسه، ص 110.

(5) ذكرت مصادر كثيرة أن سقوط مدينة وهران كان بخيانة أحد اليهود الذين كانوا يعيشون بها. واختلفوا في اسمه وهويته : فالأستاذ المدني يرى أنه من يهود الأندلس اللاجئين إلى الجزائر واسمه شطورا كان يعمل قابضا للضرائب. انظر: **حرب الثلاثمائة سنة**، ص111؛ ويوافقه الشيخ الميلي في **تاريخ الجزائر** 3/ 26. بينما يرى الراشدي أن اسمه ابن الزواوي. انظر: **القول الأوسط**، ص 64. ويوافقه الآغا المزاري في **طلوع سعد السعود**، 1/ 211. وأما المصادر الأخرى التي أشارت إلى=

للضرائب بالمدينة. واتفقا على أن يقوم اليهودي المذكور وأعوانه بفتح أحد أبواب المدينة المحاصرة للجنود الإسبان. وبالفعل بينما كان المدافعون المسلمون يأخذون أهبتهم للدفاع عن المدينة، إذ قام اليهودي شطورا بفتح باب المدينة المتفق عليه، وتدفق الجنود الإسبان

= هذه المسالة فإنها اكتفت بذكر الحادثة ولم تورد أي معلومات عن هوية اليهودي، ولا الكيفية التي تمت بها هذه الخيانة. انظر على سبيل المثال:
İsmail Hakkı Uzunçarşılı, *Osmanlı Tarihi,V. s. 336;*
جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، مرجع سابق، 1/ 324؛ عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، ص 14. لكن الغريب أن الوزان الذي دون رحلته في حدود 1525، أي بعد ستة عشر عاما من سقوط وهران لم يشر إلى هذه الخيانة من قريب أو بعيد بالرغم من أهمية الحدث. بل عزا سقوطها إلى سبب آخر هو: الفوضى التي سادت المعركة لأن الناس خرجوا للتصدي للإسبان دون نظام تاركين المدينة خالية. وعرف الإسبان ذلك فأرسلوا قسما من قواتهم إلى الجانب الآخر من المدينة، فلم يجدوا أمامهم سوى النساء. فدخلوا المدينة بسهولة. انظر: الوزان، مصدر سابق، ص 400.

(5) المزاري، **طلوع سعد السعود**، مصدر سابق، 1/ 211- 212. لم نتمكن من ضبط التاريخ الذي تم فيه اتفاق الإسبان مع اليهودي العميل. فالذي يفهم من كلام الأستاذ المدني أن الاتفاق تم في أثناء المعركة التي نشبت على مشارف المدينة. إلا أن الراشدي مؤرخ مدينة وهران يرى أن هذا التواطؤ قد تم قبل وصول القوات الإسبانية إلى سواحل وهران، حيث أعار لهم مراكبه لنقل جنودهم. انظر: الراشدي، **القول الأوسط**، ص 64.

كالسيل الجارف داخل المدينة يقتلون كل من يقف أمامهم[1].

فذهل المسلمون لهول المفاجأة، وارتد المدافعون عن الأسوار والحصون إلى داخل المدينة للدفاع عن ديارهم وحريمهم. فاقتحم الإسبان بقية الأبواب، ودخلوا المدينة من كل الجهات يقتلون ويحرقون[2]. فالتجأت جموع الناجين إلى حرم الجامع الأعظم، وتحصنوا به وبمن حوله من الدور للمقاومة، واستمروا في دفاع يائس خمسة أيام، إلى أن انقشعت غيوم المعركة عن مقتل 4.000 جزائري، وأسر أكثر من 8.000، أخذوا جميعا إلى إسبانيا[3]. وقد قدرت غنائم الإسبان بأكثر من 24 مليون دينار ذهبي[4].

غادر خمينيس وهران بعد أن حول مساجدها إلى كنائس[5]، وترك بها حامية تتولى حمايتها وحماية المرسا الكبير ومملكة تلمسان

---

(1) المزاري، **مصدر سابق**، ص 1/ 211- 212.

(2) المدني، ص 111.

(3) نفسه، ص 112؛ جوليان، 3/ 323. وانظر أيضا: حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، بيروت 1992، 1/ 157.

(4) في رأي الأستاذ المدني أن الإسبان استولوا على 48 مليون دينارا ذهبيا. لكن للأسف لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقدير هذا المبلغ.

(5) المدني، ص 112، الميلي، **تاريخ الجزائر**، 3/ 26، ذكر جوليان أن الإسبان حولوا مسجدين من مساجد وهران إلى كنيستين، انظر: **تاريخ إفريقيا الشمالية** 3/ 323؛ وانظر أيضا: مؤنس، 1/ 157.

التي صارت تابعة لهم فيما بعد[1].

لقد كان لسقوط وهران نتائج خطيرة جدا على مستقبل الجزائر يمكننا أن نوجزها فيما يلي:

1. قام الإسبان بعد سقوط وهران بشن غارات على القبائل المحيطة بالمدينة، فتمكنوا من إخضاعها. وصارت هذه القبائل كما يقول الآغا بن عودة الزواوي:

«..شيعتهم الذين يعتمدون عليهم في جلب الأخبار، والمسير بهم في الطريق في الليل والنهار. واتخذوا منهم الجواسيس، واشتدت قوتهم وتعددت غزواتهم»[2].

2. دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث إلى إعلان تبعيته إلى الإسبان، وتعهد لهم بأن يدفع لهم جزية سنوية قدرت بـ: 12.000 دوقة ذهبية، و12 فرسا من جياد الخيل، و6 من طيور الباز الجارحة[3].

3. تمكن الإسبان من بسط نفوذهم على سائر الغرب الجزائري حيث سارعت مدن أخرى إلى إعلان تبعيتها للإسبان خوفا من بطشهم، وذلك بعد أن تأكد لها عجزها عن المقاومة. ومن هذه المدن: دلس، ومستغانم، وشرشال[4]. ومن ناحية أخرى فإن

---

(1) المدني، ص 113.
(2) المزاري، 1/ 211- 212.
(3) المرجع السابق، ص 113.
(4) جوليان، 3/ 324؛ وانظر أيضا: =

الإسبان أدركوا الأهمية الاستراتيجية لمدينة وهران. فراحوا يقومون بتحصينها تحصينا محكما مكنها من الثبات أمام جميع محاولات تحريرها، إلى أن تمكن باشا الجزائر عثمان باشا الكبير من طرد الإسبان منها بشكل نهائي سنة 1792[1].

ث- احتلال بجاية (1510)

كانت مدينة بجاية تلفظ أنفاسها الأخيرة، مثلها مثل دولة بني زيان، من جراء الصراع على العرش الذي كان جاريا بين الأمير عبد الرحمن الحفصي، وابن أخيه عبد الله[2]. في الوقت الذي لم يكن فيه الإسبان غافلين عما يجري داخل القصر من نزاع فراحوا يتحينون الفرصة لاحتلال المدينة. وهكذا فإنهم ما إن ثبّتوا أقدامهم في وهران حتى شرعوا يعدون الحملة لاحتلال بجاية وجعلها قاعدة انطلاق لاحتلال القل، وعنابة، وتونس ليسهل عليهم بعد ذلك التحكم في مضيق صقلية. وقطع الطريق على العثمانيين من الوصول إلى غرب البحر المتوسط[3].

وصل الأسطول الإسباني المكون 20 سفينة تحمل 10.000

= *Piri Reis, **Kitab-ı Bahriyye**, Baskıya hazırlayan Yavuz Senemoğlu, İstanbul, 1973, II, s.159-161.*

(1) المدني، ص 113.

(2) نفس المرجع، ص119.

(3) فارس، **تاريخ الجزائر الحديث**، مرجع سابق، ص 21.

مقاتل إلى بجاية يوم 5 جانفي 1510[1].

أما أهالي بجاية الذين كانت مأساة وهران قد بلغتهم فقد راحوا يستعدون للدفاع عن المدينة. فتحصنت فرقة منهم المرتفعات المحيطة بها لمنع الإسباني من النزول إلى البر. وأخذت مدافع بجاية والمدافع الإسبانية تتبادلان النيران. لكن الفرق كان كبيرا جدا بين فعالية المدفعيتين. فالإسبان كانوا يمثلون قوة نامية تحت قيادة موحدة، بينما كانت قوات بجاية تحت قيادة منهارة، لا هَمَّ لها سوى البقاء على عرش متهالك. ولذلك فإنه لم يمض سوى وقت قصير حتى تمكن الإسبان من إنزال قواتهم إلى البر.

وبنزول الإسبان إلى البر، أصبح وضع المدينة أشد خطورة. فتقرر نتيجة لذلك إخراج الأطفال والنساء، وإرسالهم إلى مدينة جيجل. وفي ذلك الحين أصدر قائد الحملة الإسبانية أوامره إلى إحدى فرق الجيش بتسلق مرتفعات بجاية للإشراف على المدينة من أعلاها، ومنع وصول النجدات إليها. بينما أسندت مهمة الهجوم على المدينة للفرقة المحاذية للساحل.

التحمت المعركة بين المسلمين والإسبان الذين أخذوا يتسلقون المرتفعات المحيطة بالمدينة. في الوقت الذي كانت فيه الفرقة الإسبانية الثانية قد اقتحمت المدينة من أسفلها -أي من جهة الساحل-

---

(1) العسلي، مرجع سابق، ص 69. هذا؛ وقد ذكر بيري رئيس أن عدد القطع الإسبانية التي أغارت على بجاية بلغ عددها ستون قطعة. انظر: *Piri Reis, II, s.163*.

ووصلت إلى المنطقة التي تم إخلاؤها من الأطفال والنساء. والتقى الفيلقان الإسبانيان في وسط المدينة.

كان المدافعون عن المدينة قد اعتصموا بالبيوت، لكن سرعان ما رأوا ضرورة الانسحاب وراء بجاية من أجل استمرار المقاومة وعرقلة الإسبان عن التوغل في داخل البلاد. وهكذا غادروا المدينة بعد معركة لم يكتب لها النجاح. وكان على رأس المنسحبين: الملك عبد الرحمن الحفصي.

وعندما دخل الإسبان أعملوا السيف في رقاب من وجدوه من أهلها، والمدافعين عنها، وأسرفوا في القتل كما أسرفوا في وهران. وانجلت المعركة عن مقتل 4.100 قتيل. كما أمعنوا في نهب المدينة، ونقلوا كنوزها ونفائسها إلى إسبانيا في 30 سفينة[1]. وبعد أن ثبت الإسبان وجودهم في بجاية أذنوا لأهالي المدينة في العودة إلى منازلهم، فرجع كثير منهم. لكن خارج المدينة رفض رجال القبائل الاعتراف بسلطة الملك عبد الرحمن عليهم، وبايعوا الأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين أميرا عليهم. والتف حوله الثوار الذين أخذوا يناوشون الإسبان تحت قيادته.

وفي الوقت الذي كان فيه الإسبان يثبتون وجودهم باتباع سياسة لينة تجاه السكان للتخفيف من موجة السخط والمعارضة، تمكنوا من احتلال مدينة عنابة دون مقاومة تُذكر. وبعد أن قاموا

---

(1) المدني، ص 119 – 124؛ فارس، ص 20.

بنهبها وتقتيل أهلها كما فعلوا في وهران وبجاية تركوا بها حامية تتولى حراستها[1].

ج- خضوع مدينة الجزائر (1511)

كانت مدينة الجزائر مستقلة، تابعة نظريا لمملكة بجاية، يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي[2]، شيخ قبيلة الثعالبة التي كانت مستوطنة في سهول متيجة ومدينة الجزائر.

وعندما سقطت بجاية خشي أهلها أن يصيبهم ما أصاب أهالي وهران وبجاية. لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون الهدف المقبل للإسبان. فاجتمع أعيانها وتشاوروا في الأمر، وفي النهاية استقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى بجاية للتفاوض مع الإسبان للوصول إلى اتفاق يحفظ لهم حياتهم ومدينتهم[3].

وبعد أيام من سقوط بجاية توجه وفد مدينة الجزائر يرأسه

---

(1) المرجع السابق، ص 139 - 141.

(2) سالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة العربية التي كانت تستوطن في سهول متيجة ومدينة الجزائر، حكم الجزائر حكما استبداديا متسلطا عندما انتقلت إليه مشيختها. عارض أعيان المدينة الذين قرروا الاستعانة بالإخوة بربروس لتحرير المدينة من تسلط الإسبان . لكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط وإصرار الأعيان. أعدمه عروج بسبب دوره الفعال في إثارة الأهالي على الأتراك وتواطئه مع الإسبان. انظر: الوزان، ص410؛ الميلي، ص 43- 44؛ بن أشنهو، ص 66.

(3) الميلي، 3/ 43؛ وانظر أيضا: الغنيمي، 3/ 59–60 (القسم الخامس)؛ فارس، ص 20- 21.

الشيخ سالم للاجتماع بقائد الحملة الإسبانية بيدرو نافارو. حيث اتفق الطرفان على:

أ. عقد سلام بين مدينة بجاية والإسبان.

ب. تعهد الجزائريين بإطلاق سراح من بأيديهم من الأسرى المسيحيين.

ج. عدم التعرض للسفن الإسبانية بسوء.

د. يسافر وفد منهم إلى إسبانيا لعقد اتفاق نهائي مع الملك.

ه. أن يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الإسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه إلى ملك بجاية اعترافا بالتبعية، ومقابل ذلك: لا يتعرض الإسبان لمدينة الجزائر بسوء[1]. وفي سنة 1511 سافر الوفد الجزائري إلى إسبانيا، حيث اتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية، وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية، وتجعل في نفس الوقت مدينة الجزائر تحت مراقبتهم[2].

وهكذا فبمجرد التوقيع الاتفاق قام الإسبان ببناء القلعة البحرية في الجزيرة المحاذية لمدينة الجزائر. والتي صارت تعرف منذ ذلك

---

(1) المزاري، 1/ 220؛ المدني، 126- 128.

(2) الوزان، 408-411؛ جوليان، 1-324؛ وانظر أيضا، محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث**، الجزائر 1985، ص 32- 33.

الحين بصخرة الجزائر، أو قلعة الجزائر (*Penon d'Alger*)[1].

ح- خضوع مدينة مستغانم (1511)

اتصل أهالي مستغانم بالإسبان كما اتصل بهم أهالي مدينة الجزائر من قبل إثر احتلال بجاية وعنابة، عارضين تبعيتهم لهم مقابل التزامات مالية وأدبية بناء على اتفاقية عقدت بينهما، حفظ التاريخ لنا نصها في الأرشيف الإسباني[2]. هذا ملخص ما جاء فيها:

أ. إعلان تبعية جميع أهالي مستغانم لإسبانيا.

ب. دفع الرسوم والضرائب والإتاوات التي كانوا يدفعونها من قبل إلى ملك تلمسان إلى إسبانيا.

ج. إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الذين بأيديهم.

د. يحق للقائد العام الإسباني بتلمسان احتلال قلاع وحصون المدينة إذا طلب منه صاحب الجلالة ذلك، دون أي اعتراض من

---

(1) المدني، ص 126 - 128.

(2) قام المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني بتصوير عدد كبير من الوثائق المهمة من مركز الأرشيف الإسباني المعروف بأرشيف سيمانكاس. لكنه للأسف فاته أن يسجل أرقام الوثائق التي صورها حتى يمكن الوصول إليها بسهولة. ولا أدري ما إذا كانت الوثائق غير مرقمة أم أنه نسي ذلك. وبما أننا لم نتمكن من الوصول إلى الأرشيف المذكور فقد اعتمدنا على ما أورده في كتابه «**حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**» من وثائق، آملين أن يتيسر لنا الوصول إلى الأرشيف وتصوير ما نراه ضروريا.

الأهالي.

هـ. يلتزم أهالي المدينة بتسليم القائد الإسباني كل ما يحتاج إليه من حيوانات نقل، ومواد بناء بأسعار محدودة.

و. يلتزم أهالي المدينة بتموين مدينتي وهران والمرسا الكبير، ولا يسمحون مطلقا بتعمير، أو تفريغ أي سفينة بمرسا مستغانم إلا بإذن من الملكين.

ز. على سكان المدينة إعلام القائد العام بكل ما يهم جلالتيهما الاطلاع عليه، وبكل ما يتعلق بسلامة وهران والمرسا الكبير. وعليهم الامتثال لكل أمر يلقى إليهم من أجل الحرب أو السلام.

ح. لا يُلزم أهل المدينة على اعتناق الدين المسيحي، وسمح لهم الملكان بأن يستمروا في حكم أنفسهم حسب شريعتهم، وتبقى لهم ديارهم وممتلكاتهم[1].

وهكذا فإننا إذا تتبعنا حركة الاحتلال الإسباني، فإننا نلاحظ بأنه لم تأت سنة 1512 حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال إما عن طريق استعمال القوة العسكرية كما حدث في المرسا الكبير ووهران وبجاية وعنابة. أو عن طريق إعلان الخضوع والتبعية للإسبان عندما تبين للزعماء المحليين عجزهم عن المقاومة، كما حدث في تنس والجزائر ومستغانم وشرشال ودلس وغيرها...

---

(1) انظر الوثيقتين: (1) و(2) في قسم الملاحق نقلا عن المدني، ص 146.

والسؤال الذي يمكن أن يتوارد إلى ذهن الباحث هو:

ما الموقف الذي وقفه أهالي وزعماء الجزائر، سواء كانوا ملوكا محليين أو شيوخ قبائل أو زعماء دينيين؟ ترى هل رضوا بالخضوع للاحتلال المذل أم أنهم راحوا يتحينون الفرص لطرده من بلادهم؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نرى من الضروري استقراء الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي دفعت بالإسبان إلى السعي طيلة نصف قرن من الزمن لاحتلال الجزائر، واستمرار حالة الحرب بينهما لمدة ثلاثمائة عام كاملة. وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني في الجزائر.



أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

عندما ندقق النظر في الدوافع والأسباب التي أدت بالإسبان إلى شن تلك الحملات العنيفة لاحتلال سواحل الجزائر وغيرها من مدن الساحل الشمال الإفريقي، فإننا نجدها تستند إلى جملة من الأسباب التي ترمي إلى تحقيق أهداف استراتيجية يمكن تصنيفها كما يلي:

أ. الأسباب الدينية

إن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أو القفز عليها هي أن الحملات الإسبانية على السواحل الجزائرية كانت ذات صبغة دينية لا شبهة فيها. لأن الدولة الإسبانية ذاتها قامت على أسس دينية صرفة، ونمت وترعرعت بين جدران الكنيسة.

فالرهبان والقساوسة كانت لهم الكلمة الأولى في توجيه سياسة الدولة نحو المسلمين. سواء كان ذلك في الأندلس أو في الشمال الإفريقي. فهم الذين كانوا يلهبون الحماس الديني في الجموع الإسبانية ويثيرون بواعث الكراهية والتعصب ضد المسلمين[1].

---

(1) الميلي، ص 3/ 19-20؛ عبد الجليل التميمي، **الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغربية خلال القرن السادس عشر**، تونس، بدون تاريخ ص 8.

كما أن البابا لعب دورا كبيرا في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولا، ثم إخضاع الشمال الإفريقي لإسبانيا، تمهيدا لتنصيره ثانيا[1].

ولتحقيق هذين الهدفين الخطيرين أصدر البابا أمره بضرورة الاستمرار في دفع الضريبة الصليبية ***CRUSADA*** لملوك إسبانيا باعتبارهم حماة المسيحية[2]. كما أن القساوسة والرهبان أنفقوا أموالا باهظة لتحقيق هذه الغاية. ولم يترددوا في بيع أموال الكنيسة لتزويد الجيوش المسيحية المغيرة على سواحل الجزائر[3].

أما الملكة الإسبانية إيزابيلا، فإنها قد بذلت جهودا كبيرة لطرد المسلمين من الأندلس، وملاحقتهم في مدن الشمال الإفريقي التي لجؤوا إليها فرارا بدينهم. فشرعت في تجهيز حملة كبيرة لغزو تلمسان، لولا أن الأجل كان قد وافاها قبل تحقيق بغيتها. وبعد وفاتها تركت وصية لمن يتولون الحكم بعدها تطلب فيها منهم أن يحققوا أمنيتها الغالية التي كانت تتمنى تحقيقها بنفسها، ألا وهي فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار[4].

---

(1) انظر: الكتاني، **انبعاث الإسلام**، مرجع سابق، ص 71.

(2) المدني، ص 79- 80.

(3) الميلي، 3/ 19- 20؛ عامر، **تاريخ المغرب العربي**، ص 12- 13.

(4) المدني، ص79-80؛ وانظر أيضا: مؤنس، **مرجع سابق**، 2/ 156 (القسم الثالث)؛ محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، الجزائر 1985، ص 15؛ صلاح العقاد، **المغرب عبر العصور**، ص 28، 31؛ عامر، ص 11- 13.

ومما يؤيد الطابع الديني للحملات الإسبانية، أن الإسبان قاموا عند احتلالهم لمدينة وهران بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل[1]. ونفس الأمر كانوا قد فعلوه عند احتلالهم للمرسا الكبير، وفعلوه أيضا في بجاية، وفي كل مدينة تمكنوا من احتلالها[2].

لقد كان تنصير المسلمين يعتبر الهدف الأسمى لهذه الحملات[3] فقد صرح الباحث الفرنسي بيير شونو **Pierre Chaunu** بأن: «تعميد المسلمين أو الهنود الأمريكيين كان يشكل أهم المهام وأنبلها للكنيسة»[4]. بل إن إسبانيا وضعت تنصير العالم في نفس مرتبة اكتشاف الذهب[5]. وهكذا كان أمل الإسبان في تحويل بلدان شمال إفريقيا إلى (إفريقيا لاتينية) على غرار ما فعلوه في أمريكا اللاتينية، يمثل أعظم أهدافهم التي يصبون إليها[6].

---

(1) H.D.Grammon, *Histoire d'Alger ,sous la domination turque (1515-1830)*. Paris.1887,p.5.

(2) انظر: المدني، ص 98؛ العسلي، ص 61؛ D. Grammon *,p.83*.

(3) بوعزيز، **من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر** (بدون تاريخ) ص43؛ وانظر أيضا: عمار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب**، مرجع سابق، ص20 – 21؛ الزبيري، مرجع سابق، ص15.

(4) Pierre Chaunu, *L'Espagne de Charles-Quint*, Paris, 1973, I. 336

(5) التميمي، **الخلفية الدينية**، ص 13.

(6) بوعزيز، ص4؛ وانظر أيضا: بن خروف، ص20–21؛ الزبيري =

ب. الأسباب الأمنية:

ذكرنا في موضع سابق من هذه الدراسة[1] بأن مسلمي الأندلس كانوا كلما اشتد عليهم الأمر، وضايقهم النصارى لجؤوا إلى ملوك المغرب طالبين منهم العون والمدد. سواء كان ذلك في عصر المرابطين، أو الموحدين، أو المرينيين قبل أن تضعف شوكتهم، ويصيبهم الهوان فيشتغلون ببعضهم عن عدوهم. وعلى هذا النهج سار ملوك بني زيان وبني حفص، الذين لم يترددوا في تقديم مختلف أشكال الدعم المادي والمعنوي إلى أن ضعف أمرهم وأصبحوا عاجزين حتى عن حماية ممالكهم.

لكن في مطلع القرن 16م خصوصا غداة سقوط غرناطة تعرّض الأندلسيون لشتى صنوف الاضطهاد والتنكيل، الأمر الذي دفع الآلاف منهم إلى الهجرة إلى بلدان شمال إفريقيا. وكان للجزائر الحظ الأوفر من هذه الهجرة، إذ استقبلت أعدادا هائلة من هؤلاء المهاجرين لاعتبارات سبق الحديث عن بعضها، وسيأتي الحديث عن بعضها الآخر في ثنايا هذه الدراسة. وحمل هؤلاء المهاجرون معهم قصص التعذيب والاضطهاد الذي لاقوه ويلاقيه إخوانهم الذين لم يتمكنوا من الهجرة. كما راحوا يحرضونهم على

= ص15؛ أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، إستانبول 1988، 1/ 241.

(1) انظر: المبحث الخاص بأوضاع المسلمين في الأندلس من هذه الدراسة.

نجدة إخوانهم، وبذل ما يقدرون عليه لإنقاذهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد[1].

وهكذا انطلق المهاجرون الأندلسيون بمساندة إخوانهم من مسلمي الشمال الإفريقي يشنون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانية، أو المتحالفة معها، يحرقون وينهبون ويخربون، ويأسرون انتقاما لأنفسهم ولإخوانهم المضطهدين في الأندلس من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم، وآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم. وأكرهوهم على التنصر أو مغادرة بلادهم إلى الأبد[2]. فوجد الإسبان في هذه الغارات ذريعة يتعللون بها لغزو المدن الساحلية لبلدان شمال إفريقيا واحتلالها.

هذا؛ وقد ذكر الوزان أن أهالي مدينة بجاية كانوا يسلحون مراكب وسفنا حربية، ويرسلونها لغزو سواحل إسبانيا. وهو ما حفز الإسبان إلى غزوها واحتلالها[3].

أما أهالي وهران، فقد كان التجار منهم يجهزون مراكب وسفنا صغيرة مسلحة يغزون بها سواحل قطالونيا وجزر يبيزا ومينورقة

---

(1) انظر صلاح العقاد، **المغرب العربي**، القاهرة، 1966، ص 16.

(2) بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب**، مرجع سابق، ص 20؛ وانظر أيضا: العقاد، المرجع السابق، ص 16؛ العقاد، **المغرب عبر العصور**، مرجع سابق، 28، 31.

(3) الوزان، **وصف إفريقيا**، مصدر سابق، ص 423.

ومايورقة. حتى صارت المدينة تغصّ بالرقيق النصارى[1].

ونفس الشيء كان يفعله أهالي مدينة الجزائر. فقد كانوا يسلحون المراكب وينظمون الغارات على السواحل المذكورة آنفا وحتى السواحل الإسبانية[2].

ولفهم طبيعة الغارات التي كان يقوم بها البحَّارون الجزائريون والأندلسيون قبل أن يلتحق بهم الأتراك فيما بعد، ينبغي أن تدرس تلك الأحداث في إطار العصر الذي وقعت فيه، وبالمعايير السياسية التي كانت تحكمه في ذلك الوقت. فمن المعلوم أن مفهوم الدولة عند المسلمين لم يكن يقوم على ذات الأسس التي تقوم عليها الدولة الوطنية اليوم. والتي تعتبر المواطنة على أساس الولادة في تلك البلاد، أو من أبوين ينتميان عرقيا إلى شعبها. بل كان أي المسلمون يعتبرون المواطنة على أساس الانتساب للإسلام. وعليه فإن جميع دار الإسلام تعد وطنا للمسلمين، وكل من يعيش عليها إخوان لهم في الدين والوطن. ومن ثَمّ فإن واجبات المواطنة تلزم كل مسلم بالدفاع عن أي رقعة من دار الإسلام تتعرض لخطر الغزو والاحتلال الأجنبي.

وباستحضار هذا المفهوم للمواطنة يتيسر لنا فهم البواعث التي دفعت أهالي الأندلس إلى الاستنجاد بالسلاطين العثمانيين

---

(1) نفسه، ص 399.

(2) نفسه، ص 409؛ وانظر أيضا: جوليان، 1/ 326.

في إستانبول والمماليك في القاهرة، بعدما يئسوا من ملوك دويلات المغرب العربي.

وعلى هذا فإن الغارات التي كان يقوم بها البحارة المسلمون انطلاقا من سواحل الجزائر على إسبانيا وكل من يلوذ بها، إنما كان يندرج ضمن واجب الدفاع عن المستضعفين من المسلمين في الأندلس، والضغط على السلطات الإسبانية لإجبارها على تخفيف قبضة الاضطهاد الذي تقوم به ضد المسلمين.

وهكذا فإن وتيرة الأحداث سرعان ما شهدت تحول الغارات على السفن المسيحية والممتلكات التابعة للإسبان إلى نشاط أساسي من أنشطة الموانئ الشمال إفريقية. حتى غدت الغنائم التي يجنيها الأهالي من اشتراكهم في تجهيز السفن المغيرة على السواحل الإسبانية وما يتبعها من جزر وموانئ موردا هاما من الموارد الأساسية التي يعتمدون عليها في حياتهم اليومية. ولذلك نلاحظ أن القادرين من أهالي هذه الموانئ لم يكونوا يترددون في الاشتراك فيها رغبة في الجهاد وطلبا للغنيمة. وهو ما حدا بالكثير من البحارة الأتراك أن يولوا وجوههم شطر السواحل الغربية للبحر المتوسط للغرض ذاته. والذين كان من أشهرهم الإخوة بربروس الذين سنفصل الحديث عنهم فيما بعد.

يقول المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان ملخصا نشاطات هذه الموانئ بقوله:

«... وأقامت المراسي من جربة إلى المغرب الأقصى أنواعا

من الجمهوريات، أعدت العدة لممارسة القرصنة. فسلحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وهنِّين، كلٌّ لحسابها سفنا شراعية تجوب البحر المتوسط»[1].

ومن خلال ما سلف يتضح لنا بأن أهم الأسباب الأمنية التي دفعت الإسبان إلى احتلال سواحل شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة، هو شلُّ حركة الجهاد البحري التي كانت تنطلق من هذه الموانئ[2].

وإضافة إلى ما سبق، فإن الإسبان كانوا يدركون بأن بلدان شمال إفريقيا تمر بمرحلة ضعف صعبة، ملؤها الفتن والحروب الأهلية وانعدام الاستقرار. كما كانوا يعلمون أن هذه الحروب يؤجج أوراها أصحاب السلطان من الطامعين في العرش والمنازعين فيه بحق أو بغير حق. لكنهم كانوا يدركون أيضا أن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد. ومن ثم فهم كانوا يخشون أن يتغلب أهل المغرب على مشاكلهم، فتجتمع كلمتهم تحت سلطان قوي[3]. فيعيدون عليهم الكرة، ويمدون المقاومة الإسلامية في الأندلس بالدعم المادي والعسكري. ومن ثَمّ يتمكنون من استعادة الأندلس مرة

---

(1) جوليان، 1/ 321- 322.

(2) المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، مرجع سابق، ص 262- 263؛ وانظر أيضا: محمود علي عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، ص 12- 13.

(3) انظر: المدني، ص45، 88- 89؛ الطمار، ص 227- 228.

أخرى. ولذلك كان احتلال سواحل شمال إفريقيا يمثل صمام الأمان الذي يمكنه أن يحول دون التفكير في إعادة فتح الأندلس من جديد[1].

ج. الأسباب الاقتصادية:

لقد دفعت التغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوربا في مطلع القرن السادس عشر كلا من إسبانيا والبرتغال إلى أن تبحثا عن موارد مالية أخرى خارج حدودهما السياسية المعروفة. وهكذا شرع البرتغال منذ القرن 15م في احتلال المراكز التجارية المطلة على المحيط الأطلسي في المغرب. لينطلق منها عبر السواحل الإفريقية الغربية، مرورا بالمحيط الهندي وصولا إلى الشرق الأقصى، حيث مصدر تجارة التوابل والحرير[2].

أما إسبانيا فإنها بالإضافة إلى سيطرتها على مناطق الذهب في القارة الأمريكية المكتشفة حديثا، فإنها شرعت تبحث لنفسها عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها، وموارد مالية لتمويل حروبها في أوربا وتحقيق طموحاتها التوسعية في شمال إفريقيا.

كما أن اكتشاف القارة الأمريكية جعل إسبانيا في حاجة إلى

---

(1) انظر: الطمار، ص227؛ محمود علي عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، ص11- 13؛ الميلي، 3/ 21- 22؛ عبد الكريم عبد الكريم، **المغرب في عهد السعدية**، ص3- 4؛ جمال الدين، **المسلمون المنصرون**، ص 128.

(2) انظر: جلال يحيى، **المغرب الكبير**، بيروت 1981، 3/ 11- 18.

موانئ ساحلية متعددة لحماية أساطيلها المثقلة بالبضائع من غارات البحارة، الذين جعلوا من موانئ شمال إفريقيا قواعد انطلاق لهم. ولذلك كان احتلال هذه السواحل يعتبر ضرورة اقتصادية لتأمين تجارتها في البحر المتوسط[1]. ومن جهة أخرى كان احتلال السواحل الشمال إفريقية يهدف إلى التحكم في التجارة الإفريقية. ذلك لأنه من المعلوم أن الموانئ الجزائرية على وجه الخصوص كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا وأوروبا[2]. وعليه فإن السيطرة على الموانئ الجزائرية كان سيمكّنها من إزاحة الوسطاء الجزائريين، والتحكم في التجارة الإفريقية القادمة عبر الصحراء متجهة إلى أوربا عبر هذه الموانئ[3].

د. الأسباب السياسية:

لم تكن الأسباب التي سبقت الإشارة إليها هي وحدها التي حفزت الإسبان لاحتلال سواحل الشمال الإفريقي فحسب؛ بل كانت الرغبة في التوسع وبسط النفوذ خارج الحدود التقليدية لدى

---

(1) الزبيري، **المدخل**، ص 15.

(2) انظر: الناصري، **الاستقصا**، 2/ 373؛ جوليان، ص 201- 202؛ الوزان، ص380، 386؛ الطمار، 205؛ اليونيسكو، **تاريخ إفريقيا العام**، ص 400.

(3) انظر المصادر السابقة بالإضافة إلى:

Şükran Hakkut, ***Türklerin Kuzey Afrika Gelişi ve Garp Ocakları***, *Hayat Tarih Macmuatı, Ocak 1978, s.53.*

إسبانيا لبناء إمبراطورية مترامية الأطراف، حلما يراود الملك فرديناند وملكة إسبانيا منذ أن تحقق الزواج السياسي بين مملكتي قشتالة وأراغون، وتوحيدهما تحت راية واحدة. فتمكنا خلال فترة قصيرة من القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، قبل أن تمتد أطماعهما إلى احتلال الجزائر. يؤيد ذلك الخطوات التي قامت بها الملكة إيزابيلا لاحتلال تلمسان، ثم وصيتها لمن يتولى الحكم بعدها أن لا يتوقف عن تجهيز الجيوش لمحاربة الكفار[1].

ولا شك أن اضطراب الأوضاع السياسية في هذه الرقعة المهمة من غرب العالم الإسلامي. وانهيار السلطات السياسية التقليدية الحاكمة بها (الحفصيون، والزيانيون، والوطاسيون) بحيث باتت عاجزة عن فرض سيطرتها على المناطق التابعة لها فضلا عن قدرتها على حماية سواحلها[2]. كل هذه الظروف وغيرها لعبت دورا كبيرا في إغراء الإسبان وتشجيعهم على احتلال المدن الساحلية لتحقيق أهدافهم الأمنية والاقتصادية التي سبقت الإشارة إليها آنفا.

---

(1) H.D. de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination Turque, p.4*

(2) لمزيد من التفاصيل راجع الأوضاع في كل من تونس والمغرب والجزائر قبيل الدخول العثماني من هذه الدراسة. وانظر أيضا: المطوي، ص 262-263؛ بوعزيز، **من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، مرجع سابق، ص43؛ الزبيري، ص15؛ وانظر أيضا: ب. ر. روجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900**. ترجمة وتعليق: يونان لبيب رزق، الدار البيضاء، المغرب، 1981، ص 38.

ولعله من المفيد التذكير بأن إسبانيا كانت في هذه الفترة تملك الساحل الجنوبي من إيطاليا. والجزر القريبة منه مثل: صقلية وبيزا وسردينيا وكورسيكا بالإضافة إلى الجزر الخاضعة لها في غرب البحر المتوسط كجزر الباليار ومايورقة ومينورقة وغيرها. ولذلك فإنه من الطبيعي أن احتلال سواحل الجزائر وغيرها من سواحل شمال إفريقيا سوف يشكل لها وحدة جغرافية لممتلكاتها، وييسر لها سبل الاتصال المباشر بين جنوب غرب البحر المتوسط وشماله. ولا شك أن سيادة الإسبان على غرب المتوسط لا يمكن أن تتحقق ما لم يتم احتلال سواحل الجزائر.

كما أن احتلال السواحل الإسلامية في شمال إفريقيا من شأنه أن يساهم في ترسيخ زعامة إسبانيا السياسية للعالم المسيحي الكاثوليكي. تلك الزعامة التي ما فتئت إسبانيا تفتقر إليها منذ أن بدأت الوحدة الدينية والمذهبية لأوربا المسيحية تتعرض للاهتزاز وانعدام الثقة بسبب ظهور حركة الإصلاح الديني[1].

أضف إلى ذلك كله: المصاعب الاجتماعية والأمنية والاقتصادية التي كانت تعيشها إسبانيا منذ ما كان يسمى بحروب الاسترداد التي توجت باحتلال غرناطة. هذه المصاعب التي كانت نتيجة طبيعة للتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تمر بها الدولة والشعب الإسبانيان. الأمر الذي دفع ملوك إسبانيا إلى

---

(1) انظر: عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث**، مكة المكرمة، ص 222.

البحث عن حلول خارج الحدود الجغرافية لبلادهم. فقد ذكر شكيب أرسلان أن: «**إسبانيا في ذلك العهد كانت مليئة باللصوص وقطاع الطرق. حتى أنه قلما تخلو محلة من عبثهم وفسادهم**»[1].

فالمصاعب الاقتصادية الناتجة عن هجرة الصناع والحرفيين والتجار والمزارعين المسلمين واليهود أصاب الاقتصاد الإسباني بالركود. كما أن سيطرة الدولة على الموارد المالية لتغطية نفقات حروبها في أوربا وشمال إفريقيا، وأجواء الحرب الأهلية ضد بقايا المسلمين في إسبانيا، وثورات البروتستانت في ألمانيا وسويسرا.. وغير ذلك من الأحداث السياسية التي كانت تعج بها أوربا عامة، وإسبانيا على وجه الخصوص، جعلت الناس يشعرون بالتذمر، وعدم الاستقرار[2]. مما حدا بالدولة إلى البحث عن سبل لإلهاء الشعب، وتأجيج نار التعصب الديني والمذهبي، وإثارة بواعث الرعب من الخطر الإسلامي القادم من الجنوب. وهكذا كان احتلال سواحل الجزائر إحدى المشاجب المهمة التي تعلق عليها إسبانيا مشاكلها وعجزها الداخلي.

---

(1) شكيب أرسلان، **خلاصة تاريخ الأندلس**، ص 162.

(2) رضوان، المرجع السابق، ص46.

نتائج الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

كان للاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا عامة، وسواحل الجزائر خاصة آثار خطيرة على مستقبل هذه المنطقة الحيوية من العالم الإسلامي. ويمكن رصد هذه الآثار من خلال نوعين أساسيين من النتائج السلبية المترتبة عن الاحتلال:

أ. النتائج السياسية

لقد ترتب عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر نتائج سياسية بالغة الخطورة على حاضر ومستقبل الجزائر. يمكننا رصدها في العناصر التالية:

1. إخضاع الموانئ والمدن الجزائرية المحتلة لإشراف الإدارة الإسبانية المباشرة. الأمر الذي أفقد الأسر الحاكمة، والمجالس المحلية التي كانت تشرف على إدارة المدن الساحلية المحتلة سلطتها السياسية. فأصبحت المدن الجزائرية المحتلة دون قيادة سياسية تتولى قيادة الشعب لتحرير موانئه، أو التفاوض باسمه أمام السلطات الإسبانية. الأمر الذي نجم عنه بروز قيادة أخرى تولت قيادة الشعب مؤقتا إلى حين ظهور قيادة كفؤة تسند إليها مهمة إنقاذ البلاد وإدارتها بعد تحريرها. لقد التف الشعب حول القيادات الدينية المتمثلة في العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الذين لعبوا دورا كبيرا في تحريض وقيادة الشعب لمقاومة الاحتلال قبل وصول

الأتراك إلى سواحل شمال إفريقيا.

2. تهافت القوى الزيانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب إلى الإسبان، معلنة تبعيتها وخضوعها لهم بعد تبين عجزها عن مقاومة الاحتلال. فقد سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران إلى السفر إلى إسبانيا مصحوبا بهدايا ثمينة معلنا خضوعه للإسبان[1].

أما الأميران الحفصيان عبد الرحمن وعبد الله اللذان كانا يتنازعان على عرش بجاية فقد وقّع كل منهما على انفراد معاهدة خضوع وتبعية للإسبان[2]. ولم يكتف الأمير عبد الرحمن الحفصي ملك بجاية بذلك بل اعترف لهم بتملكهم لمدينة بجاية، وصخرة الجزائر التي أسسوا عليها قلعة البنيون ***Penon d'Alger*** وكل المراسي التابعة لمملكة بجاية[3].

3. وعلى إثر سقوط بجاية ساد القسم الشرقي من الجزائر موجة رعب كبيرة خصوصا في المملكة الحفصية بتونس. فبادر السلطان الحفصي أبو عبد الله باسترضاء الملك الإسباني والتقرب إليه. بل إعلان التبعية له كما فعل ملك تلمسان بعد سقوط وهران. وتعهد له بدفع جزية سنوية، مع فرسين من جياد الخيل، وأربعة من طير الباز كدليل على التبعية والخضوع، وأن يطلق سراح جميع

---

(1) الجيلالي، 2/ 196.

(2) المدني، 131- 133.

(3) المرجع نفسه، ص 131.

الأسرى المسيحيين دون قيد أو شرط، وأن يزود بجاية بالمؤن التي تحتاج إليها مجانا[1]. كما أدى سقوط بجاية أيضا إلى خضوع مدينة الجزائر للإسبان بعد أن صارت مطوقة من الشرق والغرب (بجاية ووهران)، كما سيأتي تفصيله فيما بعد.

4. لم يقتصر الخضوع للإسبان على السلطات الرسمية من الملوك والأمراء بل امتد ذلك إلى بعض القبائل العربية المحيطة بوهران التي سارعت إلى إعلان خضوعها لهم خوفا من بطشهم، ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يحلمون بها، ولم يتمكنوا من تحقيقها على حساب منافسيهم من القبائل العربية الأخرى. فقد سارعت قبائل بني عامر وغيرها من الأعراب الواقعين حوالي وهران إلى الارتماء في أحضان الإسبان، وصاروا لهم أعوانا وعيونا على إخوانهم[2]. فلعب هؤلاء العملاء دورا خطيرا أعاق إلى حد كبير فيما بعد جهود التوحيد التي قام بها الإخوة بربروس تمهيدا لطرد الإسبان من وهران.

5. انعكس الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر بشكل سلبي على مسلمي الأندلس. إذ لم تعد الموانئ الجزائرية قادرة على إرسال الإمدادات إليهم، والتخفيف عنهم مما يلاقونه من اضطهاد وظلم. نظرا لكون الإسبان كانوا قد فرضوا على أمراء وأعيان الموانئ

---

(1) نفسه، ص126؛ الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي (القسم الخامس) 3/ 60.

(2) المرجع السابق، ص 113.

الجزائرية التعهد بعدم السماح لأي سفينة بالانطلاق للإغارة على السفن المسيحية. واعتبرتهم مسؤولين عن أي إخلال بذلك[1].

6. كما أدى الاحتلال الإسباني إلى ظهور المقاومة الشعبية بقيادة الزعماء المحليين، كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين، وبعض الأمراء المحليين. وتحريضهم للأهالي وتنظيمهم للثورة على الإسبان. وذلك بعد عجز ملوك الدولتين الزيانية والحفصية عن التصدي للإسبان.

إن الأمانة التاريخية تقتضي الاعتراف بالدور الخطير الذي لعبه هؤلاء الزعماء في تعبئة الشعب باسم الدين للدفاع عن البلاد، وعرقلة الإسبان عن النفوذ إلى المناطق الداخلية واحتلالها. وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها[2]. إلى أن تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها نهائيا.

7. بالرغم من فعالية المقاومة الشعبية، التي تمكنت من حصر الاحتلال في المدن الساحلية دون التوغل في داخل البلاد. إلا أنها لم تتمكن من تحريرها. الأمر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن

---

(1) انظر بنود المعاهدة التي عقدها سالم التومي شيخ مدينة الجزائر مع الإسبان في المدني، ص 126 – 128.

(2) جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، 2/ 324؛ حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، 3/ 157-157 (القسم الثالث)؛ وانظر أيضا: عزيز سميح إلتر؛ **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت 1989، ص 50.

الجزائرية يرون ضرورة الاستعانة بالبحارين التركيين عروج وخير الدين بربروس. طالبين منهما التدخل لتحرير مدنهم ورفع الظلم عنهم. وذلك بعدما بلغتهم انتصاراتهما على الإسبان في عرض البحر المتوسط، وتمكنهما من تحرير قلعة جيجل، وفرض حصار شديد على بجاية كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد.

8. وأخيرا: كان من النتائج المهمة التي غيرت تاريخ المنطقة، والتي نتجت هي بدورها عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر، تدخل الأتراك العثمانيين لحماية هذه السواحل وطرد الإسبان منها، أداء لواجب الدفاع عن البلاد الإسلامية من جهة؛ واستجابة لاستغاثات أهالي المدن الجزائرية الذين ما فتئوا يرسلون إليهم الدعوات المتتالية طالبين منهم الإسراع لإنقاذ الجزائر قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الأندلس. فكان من أثر ذلك أن جعل هؤلاء الأتراك من الموانئ التي تم تحريرها قواعد ينطلقون منها لشن غاراتهم على السفن والموانئ المسيحية والإسبانية في غرب البحر المتوسط. قبل أن تتطور الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة من تاريخها. فيتم إلحاقها بالدولة العثمانية لتصبح بعد ذلك أهم إيالة عثمانية في غرب البحر المتوسط. أسندت إليها مهمة التصدي للإسبان في شمال إفريقيا.

ب. النتائج الاقتصادية

ترتب عن الاحتلال الإسباني نتائج وخيمة على اقتصاد الجزائر، أدت بدورها إلى زيادة تدهور أحوال الدويلات التي كانت تشرف على إدارة الموانئ الجزائرية، كما ضاعفت من الضيق المادي للأهالي الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية مع أوربا على وجه الخصوص؛ ومن أهم هذه النتائج:

- بعد أن كانت الموانئ الجزائرية تلعب دورا كبيرا في إنعاش الاقتصاد الجزائري نتيجة لقيامها بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا وأوربا، أصيبت بعد سقوطها في يد الإسبان بالشلل التام. نظرا لرفض التجار الجزائريين التعاون مع الإسبان كنوع من المقاومة السلبية. وبالرغم من تجاوب القلة القليلة من هؤلاء التجار مع الإغراءات التي كان يقدمها الإسبان للتجار الجزائريين، إلا أن تأثير هؤلاء التجار العملاء على سير الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بقي محدودا للغاية. وذلك بسبب العزلة التي فرضها عليهم السكان الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم خونة، ومتعاونون مع الأجنبي المحتل[1].

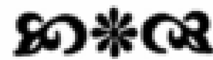
- ومن جهة أخرى فإن التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانئ الجزائرية. خصوصا الجنويين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى ميناء هنَين.

---

(1) المدني، ص101 – 102.

إلا أن هذا الميناء سرعان ما احتله الإسبان ليشهد نفس المصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية الأخرى[1]. أخذ الإسبان فور احتلالهم للمدن الجزائرية في إرهاق الأهالي، والتضييق عليهم بفرض الضرائب والغرامات الباهظة. فقد فرضوا على سبيل المثال على أهالي مدينة بجاية أن يؤدوا إليهم سنويا: 3.600 فتيقا[2] من القمح[3]. و100 فتيقا من الشعير، و50 فتيقا من الفول، و100 رأسا من الغنم، و50 رأسا من البقر، و1000 حملا من الحطب[4].

- فكان من أثر هذه الإتاوات المالية وما شابهها أن ضاق الناس بها ذرعا، واضطر الكثير منهم إلى ترك التجارة عبر الموانئ المحتلة فرارا من مضايقات الإسبان. الأمر الذي ساهم بدوره في انهيار تجارة تلك الموانئ.



(1) ذكر الوزان أن الضرائب التي كان يحصل عليها الملك التلمساني من ميناء هنين 15.000 دينارا من الذهب المسكوك. انظر: **وصف إفريقيا**، ص 386 - 387.

(2) الفتيق يعادل 50.36 كلغ. انظر: المدني، ص 132.

(3) انظر نص المعاهدة التي تبين هذه الفروض المالية التي فرضها الإسبان على أهالي بجاية بعد استيلائهم عليها في المدني، ص 132 - 135.

(4) الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، 2/ 39.

ردود الأفعال نحو الاحتلال الإسباني

إن عدم وجود سلطة مركزية قوية قادرة على تجنيد الشعب للدفاع عن البلاد، وانعدام التماسك بين أفراد المجتمع في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث، وغياب مفهوم الدولة الذي من شأنه أن يجمع الشعب تحت راية سياسية واحدة، وشيوع الفوضى والاضطراب في سائر أنحاء البلاد؛ كل هذه العوامل وغيرها حالت دون تمكن السلطات المحلية من التصدي للعدوان الإسباني[1]. ولذلك فإنه لم يمض إلا وقت قصير على سقوط المدن والموانئ الكبرى، حتى سارعت تلك السلطات إلى عقد معاهدات تبعية وخضوع للإسبان مع تكفلها بدفع الإتاوات المالية اللازمة مقابل ضمان سلامتها[2]. إلا أن الإسبان عندما أرادوا التوغل في داخل البلاد تصدى لهم الأهالي الذين سلموا قيادتهم إلى الزعماء المحليين،

---

(1) انظر: الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، مرجع سابق، ص15 - 16.

(2) سبقت الإشارة إلى أن الكثير من الزعامات المحلية سارعت إلى إعلان تبعيتها للإسبان أمثال السلطان الزياني الذي سافر إلى إسبانيا وأعلن خضوعه للإسبان، وكذلك الملكين عبد الرحمن وعبد الله الحفصيين المتنازعين على عرش بجاية اللذين عقد كل منهما على حدة معاهدة خضوع، وكذلك شيخ مدينة الجزائر الشيخ سالم التومي. انظر نتائج الاحتلال الإسباني من هذه الدراسة.

من علماء الدين وشيوخ الطرق الصوفية وأمراء محليين وشيوخ أسر ذات شرف ومكانة دينية أو عشائرية أمثال: الأمير أبي بكر أمير قسنطينة[1]. وآل المقراني الذين اتخذوا من قلعة بني عباس البربرية ثم مجّانة في منطقة القبائل الصغرى قاعدة لهم[2]، والشيخ ابن القاضي أمير القبائل البربرية في منطقة القبائل الكبرى، الذي جعل من جبل كوكو مقرا لإمارته[3]. وغيرهم من الزعماء المحليين الذين وجدوا أنفسهم على رأس المقاومة الشعبية ضد الاحتلال. فلم يمض وقت طويل على تولي هؤلاء الزعماء قيادة المقاومة، حتى حظوا بمحبة الأهالي وثقتهم[4].

ولا نجانب الحقيقة التاريخية إذا قلنا بأن العلماء وشيوخ الطرق الصوفية كانوا هم القيادة الرئيسية التي تصدت للاستعمار الإسباني بعد تبين عجز القوى الرسمية عن مواجهته، ورضاها بإعلان تبعيتها له مقابل الاحتفاظ بعروشها المتهالكة. ذلك لأنه منذ سقوط

---

(1) أمير قسنطينة الذي كان يدير هذه المدينة وما حولها من قبل الحفصيين. إلا أنه بعد ضعف الحفصيين في تونس صارت قسنطينة شبه مستقلة. وقد تولى أميرها قيادة المقاومة ضد الاحتلال بعد سقوط بجاية التي كانت بدورها تابعة للحفصيين اسميا.

(2) أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، مطبعة دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1973، ص12.

(3) نفسه، ص 19 – 20.

(4) إلتر، مرجع سابق، ص50.

غرناطة أدرك هؤلاء العلماء أن الإسبان لن يكتفوا بما أحرزوه في الأندلس، بل سيمتد عدوانهم إلى ممالك الشمال الإفريقي في كل من الجزائر والمغرب وتونس وليبيا. لأن هذه الممالك أصبحت بحكم موقعها الجغرافي، ولجوء المهاجرين الأندلسيين إليها خط دفاع عن الوجود الإسلامي في غرب البحر المتوسط سواء في إسبانيا أو شمال إفريقيا. ومن هذا المنطلق راح هؤلاء العلماء يقومون بتحريض الشعب على أخذ حيطته والاستعداد لرد العدو. وكان من أشهر هؤلاء العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في ذلك العالم الأديب محمد التواني. الذي خاطب سكان وهران بقصيدة طويلة جاء فيها:

«يا أهل وهران انظروا نظر * شفقة لبلدتكم من قبل أن تتردتي
وقبل مجيئ المنشآت ببحرها * وأي قلـــوب عندهـــا مستـقرتي
ولا تكلوها غيركم ولئن يكن * فـما غـائب مثـل المقيم ببلدة»[1]

هذا؛ وقد عبّر الأهالي عن رفضهم للاحتلال الإسباني بتصديهم له عندما حاولت قواته النفاذ إلى المناطق الداخلية بعد سقوط المرسا الكبير ووهران. ففي بلدة مَسِرْغِينْ التي تبعد عن وهران 25كم، تلقى الإسبان هزيمة فادحة أجبرتهم على الفرار إلى المرسا والاحتماء بأسوار قلعته مخلفين وراءهم أكثر من 3.000 قتيلا ومئات الأسرى[2].

---

(1) الراشدي، مصدر سابق، ص 14-15.
(2) عن هذه المعركة انظر: الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، مرجع سابق، 2/ 204؛ المدني، ص 103-107.

وفي الشرق الجزائري لم تعترف القبائل البربرية خصوصا قبائل زواوة بالاحتلال الإسباني لمدينة بجاية وما حولها. ولم ترض بالأمر الواقع الذي فرضته المعاهدة المهينة التي عقدها أميرا المدينة[1] مع الاحتلال الإسباني. بل سارعوا إلى مبايعة الأمير أبي بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين[2]، والتف حوله الثوار من أهالي التل وسكان الهضاب العليا في الشرق الجزائري. حيث أخذوا يناوشون القوات الإسبانية في حرب استنزاف مرهقة[3]. كما انتشرت الرباطات الصوفية[4]. في سواحل الجزائر لمقاومة الاحتلال، التي كان رباط تنس ورباط تلمسان أشهرها. وقد عقدت هذه الرباطات مؤتمرا كبيرا اشتركت فيه قبائل أَنْقَادْ، وبَنُو سَنُسَن، وترَارَة، ومَدَغْرة، وبعض أعيان تلمسان للتنسيق والتعاون بين هذه الرباطات[5].

إلا أنه في الوقت الذي رفض فيه معظم الأهالي الوجود الإسباني

---

(1) المقصود هنا الملك عبد الرحمن ملك بجاية، ومنافسه الأمير عبد الله اللذان كانا يتنافسان على عرش بجاية. وقد سبقت الإشارة إليهما في مبحث الاحتلال الإسباني للجزائر.

(2) المدني، ص 140-141.

(3) نفسه، ص 139 - 140.

(4) كانت الرباطات :عبارة عن مراكز عسكرية تأوي عددا كبيرا أو قليلا من المجاهدين المرتبطين بإحدى الطرق الصوفية. انظر: الراشدي، ص 19-20.

(5) نفسه، ص 19 - 20.

وراحوا يعدّون العُدّة للتصدي له في كافة المناطق التي نزل بها؛ اختارت بعض القبائل العربية التي استوطنت في المناطق المحيطة بوهران كبني عامر وعكرمة وسويد[1]. إعلان تبعيتها وخضوعها للإسبان، عندما لمست من نفسها عدم القدرة على مواجهتهم.

بكل أسف لم تكتف هذه القبائل بإعلان تبعيتها للإسبان كتعبير عن الخضوع الظاهري الناجم عن الاضطرار والعجز عن المقاومة، بل صارت هذه القبائل عناصر أساسية يعتمد عليها المحتل في الحصول على المعلومات المتعلقة بتحركات المناوئين له، كما صار بعض أبنائها أدلة للعدو يرشدون قواته في الليل والنهار إلى مواطن الضعف في معسكرات القبائل الأخرى. كما اتخذ الإسبان منهم جواسيس وأعوانا ومستشارين حتى بلغ ضررهم مبلغا عظيما[2].

---

(1) كان يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية قد استقدم قبائل بني عامر وسويد وعكرمة العربية، وأقطعها الصحراء المحيطة بتلمسان، جاعلا منها حواجز بشرية لحماية عاصمته. فكانت تمثل خط دفاع وحماية للظهر. وقد لعبت هذه القبائل دورا كبيرا في حماية تلمسان من غارات الحفصيين والمرينيين، وقمع حركات العصيان التي كانت تقوم بها القبائل الأخرى. كما كان لها دور كبير في عرقلة الأتراك العثمانيين عن بسط نفوذهم في غرب الجزائر نتيجة لتحالفها مع الإسبان، وولائها للزيانيين المعادين للعثمانيين. انظر الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب**، مصدر سابق، 3/ 117-118؛ وانظر أيضا: الطمار، **تلمسان عبر العصور**، مصدر سابق، ص 93.

(2) انظر: المزاري، مصدر سابق، 1/ 211.

لقد فعلت تلك القبائل ذلك إما رغبة في ما يمكنها أن تجنيه من مكاسب مادية مقابل ما تقدمه للمحتلين من خدمات، أو خوفا مما يمكن أن يلحقها من أذى إذا هي أعلنت التمرد والعصيان. إلا أن الباحث المدقق في الدور الذي لعبته تلك القبائل يلاحظ أنه لم يكن عنصر الإكراه وحده هو الذي ألجأها إلى التعاون مع الإسبان. بل إن النظرة الضيقة للمصالح القبلية المادية والسياسية الآنية هي التي حدت بها إلى التضحية بالمصلحة الإسلامية والوطنية العامة والتنازل عنها لصالح المحتل. لقد كانت المغانم المادية، والرغبة في السلامة من سطوة المحتل، وهوس الانتقام من القبائل المنافسة، أحد العوامل الرئيسة التي دفعت القبائل المذكورة إلى أن تقوم بدور العميل الخائن لوطنه وأمته. فكان من نتيجة ذلك، أن فقدت هذه القبائل العميلة كل اعتبار لها بين الجزائريين عامة، وأهالي المدن المجاورة في مستغانم ووهران ومعسكر بصفة خاصة.

وبالرغم من تمكن الإسبان من احتلال الموانئ والمدن الساحلية نتيجة لتفوقهم العسكري، وضعف الجبهة الجزائرية المحلية المسؤولة عن أمن تلك الموانئ والمدن؛ إلا أن الاحتلال الإسباني بقي محصورا في تلك المناطق غير قادر على التوغل في المناطق الداخلية بسبب اشتداد المقاومة الشعبية التي التفت حول القيادات الدينية من العلماء وشيوخ الطرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويعترف المؤرخون الغربيون بأن القوات الإسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها. وشُدِّد الحصار عليها

بمجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، حتى بلغ الضيق بالجنود الإسبان أنهم كانوا يتمنون الدخول في الإسلام للنجاة بأنفسهم مما يكابدونه من ضيق، حسب ما كشفه بحث رسمي أجرته السلطات الإسبانية عن حالة حامياتها في الجزائر سنة 1540[1].

لقد عاش الإسبان في القلاع التي قاموا باحتلالها أو إنشائها حياة تعيسة جعلتهم لا يتجرؤون فيها على الابتعاد عنها إلا إذا ساروا جماعات. فالقبائل العربية والبربرية كانت تشن الغارت المتوالية على القوات الإسبانية في شكل حرب عصابات أنهكت القوات الإسبانية. وكانت الحكومة الإسبانية تجمع جنودها للحرب في الجزائر بالقوة، وتسوقهم مكبلين في الأغلال إلى السفن لتحشدهم في هذه القلاع، وكان غذاؤهم شحيحا، لأن الدولة كانت تهمل أمر التموين. وكذلك الرواتب كانت لا تُذكر، بالإضافة إلى تأخرها في أدائها. وكثيرا ما كانت تعجز عن دفعها فلا يتسلمها الجنود[2].

ويؤكد شارل أندري جوليان الظروف القاسية التي كان يعيشها

---

(1) *Braudel (F), Les Espagnol et l'Afrique du Nord, in R.A. Alger. 1928. P 216;*

وانظر أيضا: المهدي بوعبدلي، **أضواء على تاريخ الجزائر**، **مجلة الأصالة**، العدد 8، الجزائر 1972، ص 278؛ جوليان، **تاريخ أفريقيا الشمالية**، مرجع سابق، 2/ 324-325.

(2) انظر: حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته** (القسم الثاني)، 2/ 157-159.

الجنود الإسبان القابعون وراء القلاع والحصون على امتداد الساحل الجزائري قائلا:

«.. وعاشت الحصون في حالة حصار طوال فترة الاحتلال الإسباني. وكانت حياة الجند شاقة جدا، لأنهم لا يجدون دائما ما يسُدُّون به الرَّمَق، ولا يتقاضون جِراياتهم بانتظام. وكانوا في وهران المحظوظة يتَمَوَّنون بفضل مغاربة موالين لهم يخبرونهم بمواقع حيوانات القبائل الرُّحَّل في الأراضي المجاورة فينهبونها. على أن وهران نفسها لم تكن في مأمن من المجاعة. وفيما عداها حيث كان التموين يأتي على الخصوص من البحر»[1].

وبالرغم من اعتراف المؤرخين الغربيين بشدة المقاومة التي لقيها الإسبان، إلا أننا نجد المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان حاول أن يجد أسبابا أخرى يبرر بها انحصار الوجود الإسباني في المناطق الساحلية، رغم إقراره بشدة المقاومة الشعبية. ولم يتردد في الادعاء بأن إفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة اهتمامات السياسة الخارجية الإسبانية التي كانت تعطي الأولوية للحرب في إيطاليا، مضيفا بأن الأحوال المالية التي كانت تمر بها إسبانيا لم تكن تسمح لها بخوض حروب أخرى في شمال إفريقيا[2].

والحقيقة أن هذا التبرير لا معنى له في ميزان البحث التاريخي.

---

(1) نفسه، ص 2/ 324.

(2) جوليان، ص 2- 324.

إذ لا يفهم منه سوى محاولة التقليل من شأن المقاومة الشعبية التي فرضت على المحتل الاختيار بين الموت في ساحة الحرب أو البقاء سجينا في القلاع التي تحصن بها. وإلا فيكف يمكن تفسير احتلال جميع الموانئ والمدن الرئيسية الواقعة على طول الساحل الجزائري الممتد على مسافة 1.200 كلم، ثم يقال بأن احتلال هذه السواحل كان يأتي في المرتبة الثانية في قائمة الاهتمامات الخارجية الإسبانية؟!

كيف لنا أن نستسيغ هذا التفسير، بعد أن رأينا البابا يصدر قرارا يعلن فيه الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية في شمال إفريقيا سنة 1518، ويأمر ملوك أوربا بعقد هدنة لمدة 5 سنوات لكي تتمكن فيها إسبانيا من التفرغ لاحتلال ما تبقى من مدن وسواحلها[1]. ولم تكتف الكنيسة بذلك، بل جندت كل إمكانيات العالم المسيحي لغزو الجزائر بقيادة إسبانيا. وأصدرت فتوى دينية تضمنت الوعد بالغفران لكل من يساهم في دعم حملات غزو الجزائر بنفسه. وفرضت ضريبة صليبية على كل مسيحي للمساهمة في غزو الجزائر[2]. بل إن القساوسة والرهبان باعوا أموال الكنيسة لتزويد الجيوش الغازية[3]. كيف يمكن تجاهل كل هذه الحقائق ثم يقال بعد ذلك بأن هذه البلاد كانت تحتل مرتبة ثانوية في السياسة

---

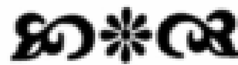
(1) الراشدي، الثغر الجماني، ص 11.

(2) المدني، ص 79- 80.

(3) نفسه، ص 79 – 80.

الخارجية الإسبانية، وأنها كانت أقل أهمية من حروب إسبانيا في أوربا ضد منافستها فرنسا ومخالفيها من البروتستانت في ألمانيا والبلاد المنخفضة ؟!!.

إن الحقيقة التاريخية التي لا يمكن للباحث المحايد إنكارها أو تجاهلها هي أن رفض الأهالي للاحتلال الإسباني، وبسالة المقاومة الشعبية التي تصدت له في كافة المناطق الداخلية بقيادة الزعماء المحليين، ثم بقيادة العثمانيين فيما بعد، هي التي فرضت عليه أن يبقى محصورا في القلاع الممتدة على طول الساحل الجزائري حتى يتمكن من تأمين خطوط إمداده البحرية، وليسهل عليه الانسحاب عند تعرضه للخطر. ولم تكن حروب أوربا، ومشكلات إسبانيا الداخلية سوى ذريعة واهية يحاول بها المؤرخون الفرنسيون من ذوي النزعة الاستعمارية تبرير فشل الاحتلال الإسباني للجزائر وعجزه عن التوغل إلى داخل البلاد.



الباب الثاني

الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس

الفصل الأول: نبذة عن حياة الإخوة بربروس

الفصل الثاني: الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط وظهور الإخوة بربروس في سواحل شمال إفريقيا

الفصل الثالث: مراحل الدخول العثماني إلى الجزائر

الفصل الأول
نبذة عن حياة الإخوة بربروس

عرّوج رئيس[1]
(1470 -1518)

هو الأخ الثاني في عائلة بربروس بعد إسحاق رئيس. لعب

---

(1) يسميه المؤرخون والباحثون العرب «**عروج**» انظر مثلا: المزاري، **طلوع سعد السعود**، ص 251.
وقد زعم المدني أن اسمه تحريف لكلمة عُروج بمعنى الصعود. ثم نجده قد أبعد النجعة أكثر حينما علل ذلك بأن عروجا قد يكون مولودا في ليلة الإسراء والمعراج فسمي بهذا الاسم على عادة الأتراك في تسمية أبنائهم بأسماء الشهور والمناسبات الدينية مثل محرم، وشعبان، رمضان.. الخ. انظر: المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 157، 160-161.
والأغرب من هذا أن الأمير سعيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، لم يُخف تردده في كون عروج مسلما بالأصل، أو مسيحيا ثم أسلم. انظر: الأمير سعيد الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر**، 2/ 60.
أما بن أشنهو فقد نقل عن هايدو زعمه بأن عروجا كان مسيحيا ثم أسلم. ص 40؛ ووافقه في ذلك محمد فريد بك. انظر: **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، بيروت 1998، ص 230.
أمّا المصادر التركية فكلها مجمعة على تسميته بـ: «أروج» «***ORUÇ***» =

دورا أساسيا في تمهيد الطريق لأخيه خير الدين من بعده في بسط نفوذ الدولة العثمانية بالجزائر.

اسمه عروج، وكان رفاقه يدعونه باسم عروج بابا على سبيل الاحترام.

ولد بجزيرة ميديللي التي استقر بها والده يعقوب آغا الذي كان أحد فرسان السباهية[1].

= (بحيث يقرأ أورتش). وبالرغم من كثرة ما بحثت إلا أني لم أتمكن من معرفة السبب الذي أدى إلى تحريف اسمه على هذا النحو. هذا؛ وقد وجدت في متحف تامنفوست ببرج البحري بشرق مدينة الجزائر لوحة رخامية يعتقد أنها كانت موجودة في قلعة شرشال، وقد كتب عليه اسم أروج كما هو في أصله التركي. (انظر الملاحق). أما المصادر العربية فأغلبها يكتب اسمه عروج، وهو الذي اخترته ليس اعتقادا لصحته بل خشية التلبيس على القارئ فيعتقد أن أروج شخصية أخرى غير عروج التي عرفها خلال دراسته التاريخية.

(1) زعم المزاري بأن والدهم يدعى حسن. انظر: المزاري، **طلوع سعد السعود**: 1/ 251. بينما لم يتردد الباحث الجزائري احمد بن أشنهو في وصف يعقوب آغا أن يكون مسيحيا أو يهوديا نظرا لأن ثلاثة من آل بربروس يحملون أسماء أنبياء بني إسرائيل: يعقوب بن يوسف، إسحاق، إلياس !! انظر: بن أشنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، ص 38. ونقل المدني عن باحثين غربيين ـ دون تعليق ـ ادعاءهم بأن والد الإخوة بربروس كان مسيحيا اعتنق الإسلام، وأن أمهم كانت أرملة راهب يوناني. ثم يصحح الخطأ بخطأ آخر فيدعي أن أمهم كانت سيدة أندلسية !! انظر: **حرب الثلاثمائة سنة**، ص156-157. إلا أن الذي يقطع الشك باليقين =

أمّا أمّه فلم نعثر على اسمها ولا أصلها[1]، إلا أن خير الدين ذكر في مذكراته أن أباه يعقوب تزوج من إحدى بنات جزيرة ميديللي المسيحيات بعد استقراره بها[2].

وأمّا تاريخ ميلاده فلا يعرف على وجه التحديد، غير أنه من المحتمل أن يكون قد ولد في 1470[3]. فهو أصغر من إسحاق بسنتين وأكبر من خير الدين بسنتين أيضا. عرف هو وأخوه خير

= هو أن اسم والد الإخوة بربروس هو يعقوب آغا حسبما ورد المصادر التركية. ويؤيد ذلك ما ورد منقوشا على الرخامة التي كانت موضوعة على باب حصن شرشال والموجودة في متحف برج تامنفوست ببرج البحري شرقي الجزائر العاصمة، والتي جاء فيها التصريح باسم والد الإخوة بربروس: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بإذنه بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة». (وهذا التاريخ يوافق سنة 1518). انظر صورة الرخامة في قسم الملاحق. وانظر أيضا: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2010، ص 20؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، مطبعة بحرية، إستانبول 1329هـ/ 1911، ص25.

(1) زعم بن أشنهو أن اسم أم الإخوة بربروس كاتالينا، وأنها بنت راهب أسلم. انظر: بن أشنهو، ص 38.

(2) M. Ertuğrul Düzdağ, *Barbaros Hayreddin Paşa'nın Hatıraları*, İzmir, 1995, s.4.

(3) *Türk Ansiklopedisi*, MEB.Ankara, c.XXVI.s .42.

الدين باسم: «**بربروس**» ربما بسبب شقرة لحيته، أو لأن البحارة الأتراك كانوا يدعونه (بابا عرج) على سبيل الاحترام فحرفت الكلمة إلى اسم بربروس[1].

اشتغل في مطلع شبابه مع أخيه إلياس بالتجارة البحرية بين مصر والشام وطرابلس الشام والأناضول، فاكتسب من ذلك ثروة طائلة[2].

لفت عروج انتباه الأمير قورقود أخي السلطان سليم الأول الذي كان واليا على أنطاليا، ومعروفا بحمايته للبحارة الأتراك، فلقي منه عناية وعونا خاصّين[3]. غير أن المصادر التاريخية لا تشير إلى تاريخ بدء هذه العلاقة بين الأمير قورقود وعروج.

في أحد أسفاره التجارية إلى طرابلس الغرب اعترض طريقة قراصنة جزيرة رودس، فاستولوا على سفينته، وقتلوا أخاه الصغير إلياس؛ بينما أخذوا عروجا أسيرا معهم. ولم يوافقوا على قبول الفدية الكبيرة التي عرضها خير الدين مصرين على التمسك به أملا في الحصول على مكاسب أكثر[4].

لا تُعرف على وجه التحديد المدة التي مكثها عروج أسيرا في

---

(1) *age, XXVI. s. 42*.

(2) *Uzunçarçılı,II, s. 363*.

(3) *TDV, IV. s. 65*.

(4) *age, II, s. 363*.

رودس، غير أن كاتب جلبي صرح بأنه مكث مدة طويلة[1] قبل أن يتمكن من الفرار. فقدم إلى أنطاليا لتقديم شكره للأمير قورقود على الجهود التي بذلها من أجل فكّ أسره[2].

خلال وجوده في أنطاليا عمل مساعدا قبطانٍ لأحد البحارة الأتراك يدعى علي رئيس، حيث استأنف رحلاته إلى الإسكندرية. وهناك قبل عرض السلطان المملوكي قانصو الغوري بالدخول في خدمته، فجعله على رأس أسطول صغير[3].

أمره السلطان الغوري ببناء أسطول من 40 سفينة لمواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ونظرا لعدم وجود الأخشاب التي تستعمل في بناء السفن توجه إلى ميناء باياس الذي كان تابعا للمماليك في هذه الفترة. غير أن الرودوسيين كانوا يتابعون حركات عروج. وحينما علموا برُسوّه في الميناء المذكور أغاروا عليه فتمكن من الانسحاب برجاله إلى البر. وتمكن الرودوسيون من تخريب 16 قطعة من سفنه التي كانت راسية في الميناء[4].

ترك عروج خدمة السلطان الغوري الذي اقترح عليه قيادة الأسطول المملوكي المتوجه إلى المحيط الهندي لمواجهة البرتغاليين،

---

(1) انظر: كاتب جلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، مصدر سابق، ص 25.
(2) نفسه، 25.
(3) **الغزوات**، ص 15.
(4) **سيفي**، ص 11.

معتذرا بأنه لا يرغب في العمل خارج مياه البحر المتوسط[1].

ثم قدم على الأمير قورقود في أنطاليا أملاً في الفوز بمساعدته فمنحه هذا الأخير سفينة ذات 18 مقعدا، أغار بها على سواحل رودس، فغنم من ذلك غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى[2].

كان فرسان القديس يوحنا يترقبون الفرصة للانقضاض على عروج. فانتهزوا فرصة رسوه بإحدى الموانئ سنة 1511 وأغاروا على سفينته الراسية واستولوا عليها إلا أن عروجا تمكن من النجاة من الأَسْرِ مع رفاقه البحارة[3].

راجع عروج الأمير قورقود الذي كان قد نقل من أنطاليا إلى مانيسا ليقدم له واجب الشكر على الدعم المادي والمعنوي اللذيْن لقيهما منه. فاستقبله الأمير في ديوانه استقبالا رسميا، وألبسه الخلعة وأهدى له سفينة أخرى ذات 24 مقعدا. ونصحه بأن يوجه نظره للجهاد في غرب البحر المتوسط على خطى كمال رئيس[4].

بناء على نصيحة الشهزادة قورقود توجه عروج إلى السواحل اليونانية، فأغار عليها واستولى على سفينتين تجاريتين تابعتين للبندقية، كانتا تحملان 24.000 دوقة ذهبية، وكميات كبيرة من

---

(1) *T. A.XXVI.s.44*.

(2) كاتب جلبي، ص 25؛ سيفي، ص 6.

(3) *Uzunçarşılı, II, s.364*.

(4) Yılmaz Öztuna, ***Barbaros Hayreddin Hatıraları***, İstanbul, 1989, s17.

الأموال المختلفة[1]. ثم عاد إلى مسقط رأسه جزيرة ميديللي مثقلا بالغنائم و285 أسيراً. فلقي أخويه إسحاق وخير الدين اللذين مضى على فراقه لهما ما يقارب 11 عاما. فباع غنائمه، وتصدق على فقراء بلده ثم غادر ميديللي متوجها للقاء الشهزادة قورقود[2].

بادر إلى مغادرة المياه العثمانية في حزيران 1512 عندما بلغه جلوس السلطان سليم الأول على عرش الدولة العثمانية، وإعدامه للشهزادة قورقود، واعتقال جميع أنصاره[3].

جدد السلطان الغوري دعوته لعروج بالدخول في خدمته بسبب حاجته الماسّة إلى خدمة البحارة الأتراك. فرسا عروج في ميناء الإسكندرية، ووفد على السلطان الغوري حيث قدم إليه هدايا قيمة. واعتذر له عن عدم قبول خدمته لأنه لا يرغب في التوجه إلى المحيط الهندي[4]. ثم غادر الإسكندرية متوجها إلى تونس، حيث رسا سنة 1512 بجزيرة جربة التي غيرت مسار حياته نهائيا[5].

جعل من جزيرة جربة قاعدة له، وأسس بها مستودعا لتخزين

---

(1) *Uzunçarşılı, II, s.364* .

(2) *Öztuna, age, s. 17* .

(3) سيفي، ص 6.

(4) *TDV, V.s.65*.

(5) إلا أن المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزن جارشيلي يذكر أن عروجا رسا في جزيرة جربة سنة 1510. انظر رأيه في: *Uzunçarşılı,II,s.364*.

غنائمه بعد أن خصص قسما منها لرجاله. ومن هذه القلعة شرع يشن غاراته على السفن الأوربية وسواحلها[1].

اتفق مع سلطان تونس على جعل ميناء جربة قاعدة ينطلق منها في غزواته البحرية على أن يدفع له خمس الغنائم التي يحصل عليها[2].

كان مع عروج حوالي 1000 من البحارة الأتراك، لكنه كان في حاجة ماسة إلى عدد آخر من الرجال بسبب اتساع دائرة حروبه مع أوربا. إضافة إلى أنه كان في كل مرة يفقد عددا أكبر من الرجال، الأمر الذي جعله في حاجة ماسة إلى تعويضهم بمن كان يفد عليه من الشباب التركي القادم من الأناضول. وبما أن عدد الوافدين كان محدودا، فقد كان يبحث عن وسيلة تمكنه من سدّ هذا النقص بجمع أكبر عدد ممكن من الشباب من الأناضول. ولعل هذا يكون أحد أسباب تقربه من السلطان سليم الأول.

لم يلبث عروج كثيرا في جربة حتى لحق به أخوه خير الدين فقوي ساعده به. وبعد تشاورهما في مستقبل حياتهما اتفقا على المضي

---

(1) نفس المرجع، ص364-366.

(2) كاتب جلبي، 26؛ ابن أبي ا لضياف، 2/ 9 محمد فريد بك، 230. هذا ما ورد في جميع المصادر التي أرخت لهذه المرحلة من تاريخ الوجود التركي في غرب المتوسط. إلا أن خير الدين باشا أشار في مذكراته بأنهم اتفقوا مع السلطان الحفصي على أن يدفعا له ثمن الغنائم التي يحصلون عليها. انظر: خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص 46.

معا في مشروعهما الطموح، وانطلقا يغيران على السواحل والسفن المسيحية. فكان من أثر ذلك أن زادت سطوتهما وتضاعفت ثروتهما إلى حد كبير.

في 1514 قام عروج بإغلاق ميناء مدينة بجاية الجزائرية بـ4 سفن، وحاصر قلعتها بمائتين من الأتراك وبضعة آلاف من البربر، إلا أنه لم يتمكن من تحريرها نظرا لحصانتها. وفقد في هذا الحصار ذراعه اليسرى وعددا كبيرا من رجاله.

في صيف 1515 شفي عروج تماما من جراحه، فخرج للغزو برفقة أخيه خير الدين. فغنم سفينة هولندية ثم رسا بجزيرة مينورقة. ومن هناك أغارا على خليج جنوة حيث تمكنا من الاستيلاء على 4 سفن وتحرير عدد كبير من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى شمال إفريقيا حيث قاما بتوطينهم هناك[1].

كان أول اتصال بين الإخوة بربروس والدولة العثمانية في 1516 وذلك عندما بعث عروج إلى السلطان سليم مع بيري رئيس بست سفن مثقلة بالهدايا العظيمة، كافأه وأخاه خير الدين بسيفين مرصّعَيْن بالماس، بالإضافة إلى سفينتين حربيتين محملتين بالمعدات العسكرية التي كان في أمس الحاجة إليها. فسر الأخوان بذلك سرورا عظيما. وتعتبر هذه الاتصالات أول علاقة رسمية بين الإخوة بربروس والدولة العثمانية[2].

---

(1) **الغزوات**، ص، 80-82.

(2) كاتب جلبي، ص 29؛ سيفي، ص 22.

في الوقت الذي كانت فيه بعثة بيري رئيس تقابل السلطان سليم، خرج الأخوان في أسطول مكون من 16 قطعة بحرية، فاستولوا بمن معهم من البحارة على عدد من السفن الإسبانية وأنقذوا عددا من مسلمي الأندلس(1). وفي طريق عودتهم قاموا بفتح قلعة جيجل الجزائرية، وجعلوا منها قاعدة لعملياته الحربية. حيث تركوا بها 3 سفن حربية وحامية مكونة من خمسين بحارا تركيا(2). وهكذا بدا وكأن الحرب ضد إسبانيا لم تعد مجرد حملات يقوم بها قراصنة محترفون، وإنما هي حرب بين دولتين إحداهما ناشئة يقوم الإخوة بربروس بوضع أسسها والثانية فتية تولت زعامة العالم المسيحي وقيادته في حربه العدوانية على المسلمين في الأندلس وشمال إفريقيا.

لم يكتف الإخوة بربروس بالإغارة على السفن والسواحل الإسبانية فحسب، بل جعلوا إنقاذ مسلمي الأندلس، وتوطينهم في شمال إفريقيا وطرد الإسبان من سواحل شمال إفريقيا مهمة أساسية لهم. فحازوا بذلك على ثقة الأهالي، وبدأ الخطباء يدعون لهم بالنصر في خطب الجمعة.

---

(1) الغزوات، 80-82.

(2) *Uzunçarşılş, II, s. 366*؛ كاتب جلبي، ص30؛ المدني، مرجع سابق، ص165. هذا؛ وقد ذكر المؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي أن فتح جيجل تم بمساعدة الشيخ أحمد بن القاضي الذي كان زعيما للقبائل البربرية في جبل كوكو. انظر الجيلالي 3/ 37.

في 1516 لحق به أخوه الأكبر إسحاق رئيس قادما من جزيرة ميديللي[1] فقوي ساعده به. وخلال ذلك حاول عروج للمرة الثانية فتح قلعة بجاية، ففرض عليها حصارا شديدا من البر والبحر. غير أن نفاذ الذخيرة وامتناع السلطان الحفصي تزويده بما يحتاجه من البارود حال دون فتحها[2].

تمكن من الاستيلاء على قلعة الجزائر بعد أن استقدمه أهلها لتحريرها من الاحتلال الإسباني الذي كان يضرب حولها حصارا بحريا من خلال قلعة البينيون التي جعلوها مركز مراقبة لهم[3]. وهنا بايع أهالي الجزائر عروج سلطانا عليهم، فقرئت الخطبة باسمه بعد السلطان سليم الأول باعتباره خليفة للمسلمين[4]. ثم لم يمض وقت طويل على فتح الجزائر حتى أتبعها بفتح شرشال[5]. وبهذا تمكن الأتراك من فرض سيطرتهم على ثلاث مدن جزائرية هي: جيجل، ومدينة الجزائر، وشرشال.

بعث السلطان سليم إلى الأخوين عروج وخير الدين بسفينتين حربيتين وأسلحة نارية ومعدات حربية. كما أذن لهما بأن يجمعا ما

---

(1) **الغزوات**، ص 31.

(2) ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ سيفي، ص20-21؛ كاتب جلبي، ص28؛ إلتر، ص49؛ بن أشنهو، ص 65؛ المدني، ص 170.

(3) *Uzunçarşılı, II, s.366*.

(4) المرجع السابق، 2/ 366.

(5) نفسه، 2/ 366؛ محمد فريد بك، ص 231.

يحتاجان إليه من الشباب المتطوعين من الأناضول[1].

قام عروج بتحرير الكثير من القلاع والمدن الجزائرية. التي كان الإسبان يحتلونها مثل: شرشال، مستغانم، دلس، الجزائر، تنس وغيرها مما سيجيء مفصلا في المباحث القادمة. ثم كلف أخاه خير الدين بإدارة القسم الشرقي من الجزائر بينما تولى هو القسم الغربي منها[2].

في 1517 تصدّى عروج بمن معه من الأتراك والأندلسيين والأهالي لأول حملة إسبانية لإخراج الأتراك من الجزائر. فمُنِيَ الإسبان بهزيمة فادحة أجبروا بسببها على الانسحاب مخلفين وراءهم خسائر[3].

بعد أن بسط نفوذه على وسط وشرق الجزائر، وامتداد نفوذه إلى تونس؛ قرر عروج أن التوجه إلى غرب الجزائر. فسار بقواته إلى تلمسان حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بالسلطان الزياني الذي كان قد عقد معاهدة تبعية مع الإسبان. فدخل تلمسان واستفتى العلماء في أمر الملك الزياني المتعاون مع الإسبان، فأفتوه بوجوب إعدامه فأعدمه[4].

---

(1) كاتب جلبي، ص 27.

(2) الغزوات، ص 31؛ المدني، ص 185- 186.

(3) الغزوات، ص 29-30؛ إلتر، ص 55؛ سيفي، 23؛ كاتب جلبي، ص 29.

(4) الميلي، 3/ 47-51.

في هذه الأثناء كان عروج فد تمكن من الاستيلاء على جميع المواقع الإسبانية التي كانوا يحتلونها في شرق وغرب الجزائر ما عدا وهران وبجاية.

في 1518 تحركت قوات إسبانية من وهران بقيادة مارتين دي أرغوت ***Martin de Argote*** متوجهة إلى تلمسان حيث يتمركز عروج. واشتركت القوات الزيانية بآلاف الفرسان من الأعراب إلى جانب الإسبان. فتوجه مارتين أولا إلى قلعة القلاع حيث كان إسحاق رئيس أخو عروج على رأس حاميتها المكونة من 900 تركي و2.000 جزائري. فتصدت الحامية للقوات الإسبانية بضراوة، غير أن عدم تكافؤ القوى المدافعة والغازية جعل عرقلة الإسبان ضربا من المستحيل. فاستشهد إسحاق رئيس و800 من رفاقه[1].

في هذه الأثناء وصلت قوات إسبانية إضافية مكون من 10.000 جندي لمساندة دون مارتين بقيادة غومر ماركيسي *Gomer Markisi* توجهت إلى تلمسان بعد الاستيلاء على قلعة القلاع.

فرض دون مارتين على تلمسان حصارا شديدا بقواته، يسانده 35.000 من قوات القبائل الموالية للسلطان الزياني. واستمر الحصار مدة طويلة اختلف في تقديرها، دون أن يستسلم عروج ورفاقه[2].

---

(1) الراشدي، مصدر سابق، ص440.

(2) اختلُف كثيرا في مدة الحصار الذي فرضه الإسبان على عروج في =

في فجر عيد الفطر من عام 1518 قامت القوات الموالية للسلطان أبي حمو بهجوم مباغت على قوات عروج، فقتلوا عددا من رجاله. فأدرك عروج حينها استحالة الاستمرار في المقاومة بسبب هذا التطور المفاجئ للأحداث. وتمكن من فك الحصار مع عدد من رجاله والانسحاب[1].

قامت فرقة إسبانية بمطاردة عروج ورفاقه، فأدركتهم بعد ساعتين من خروجه من تلمسان. فأمر عروج رجاله بأن يلقوا ما لديهم من أموال وجواهر في محاولة لإلهاء الإسبان، غير أن القائد الإسباني لم تنطل عليه الحيلة فأمر أصحابه بتعقب عروج ورجاله دون الالتفات إلى الأموال الملقاة[2].

بعد مطاردة قصيرة تمكن الإسبان من إدراك البحارة الأتراك المنسحبين مع عروج ونشبت بينهما معركة غير متكافئة انتهت بمقتل عروج وجميع من معه[3].

بعد مقتل عروج ورفاقه قام الإسبان بقطع رأسه، وإرساله

= تلمسان، ففي كتاب الغزوات ورد أن الحصار استمر بعد استيلاء الإسبان على قلعة القلاع ستة وعشرين يوما، ص134؛ بينما ورد عند كاتب جلبي أن مدة الحصار كانت ستة أشهر. انظر كاتب جلبي، ص31.

(1) الغزوات، ص34.

(2) سيفي، بربروس خير الدين، إستانبول (1330)، ص25.

(3) الطهار، ص 230-231.

إلى إسبانيا حيث طافوا به في مدينة قرطبة قبل أن يعلّق في كنيستها الكبرى[1].

هذا؛ وقد ذهب كثير من الباحثين إلى إن عروجا استشهد في منطقة «شعبة اللحم» بوادي المالح[2]، غربي مدينة عين تيموشنت، وهو خلاف الواقع. وقد أيد ما قاله المؤرخ أبو رأس الناصري المؤرخ الفرنسي بريقرير **Brugreer** في بحثه القيم الذي نشره في المجلة الإفريقية[3] حيث نشر عددا من الوثائق الإسبانية المترجمة إلى الفرنسية تثبت أن عروجا لجأ بعد حصار طويل إلى المغرب، فلحقته كوكبة من الجيش الإسباني، حيث تمكنوا من قتله بعد معركة غير متكافئة، بالمكان المذكور في جبل بني يزناس بشرق المغرب[4].



(1) *Yeni Türk Ansiklopedisi,* İstanbul,1985.c.VII.s.2803.

(2) الطمار، ص 231-231.

(3) انظر: **المجلة الإفريقية**، عدد 19، أكتوبر 1859.

(4) الراشدي، ص 18.

خير الدين بربروس
(1543 -1472)

اسمه : «خضر»، اشتهر بلقب «بربروس»[1]، أي ذو اللحية الشقراء. وأطلق عليه السلطان سليم الأول لقب «خير الدين»[2]. ولد في حدود 1472 بجزيرة ميديللي بعد أخيه عروج[3].

اشتغل بالتجارة في مطلع شبابه، إذ كان لديه سفينة يتاجر بها بين سلانيك ***Selanik*** وأغريبوز ***Ağriboz***. وبعد نجاة أخيه عروج من أسر فرسان رودس[4] لحق بأخيه عروج بتونس الذي كان قد

---

(1) أطلق الغربيون هذا اللقب عليه وعلى أخيه عروج لشقرة لحيته. انظر: TDV. *İslam Ansiklopedisi* , İst.V.s.65.

(2) Ziya Kaiıcı, *İslam Tarihi,* İstanbul, 1997, XI. S. 328 ؛Age.V.s.65 ابن أبي الضياف، 2/ 9. وقد زعم الأستاذ المدني أن الاسم الأصلي لخير الدين هو خسروف، وأن أهل الأندلس والمغرب هم الذين أطلقوا عليه اسم خير الدين. انظر حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص 158؛ وانظر أيضا: *Uzunçarşılı,II,s.368*.

(3) يوجد خلاف كبير في تاريخ ولادة خير الدين. وما ذكرناه هنا هو التخمين الذي ورد في الموسوعة الإسلامية *TDVI.A*. ووردت تواريخ أخرى لميلاد الإخوة بربروس. انظر مثلا: *Kazıcı,age,XII.S.328*.

(4) ذكر الأستاذ ضياء قزيجي أن الأخوين عروجا وخير الدين دخلا في خدمة الشهزادة قورقود. غير أن الذي دلت عليه الحوادث هو أن عروجا الذي دخل في خدمة الشهزادة المذكور. أما خير الدين فقد=

سبقه إليها. وهناك اتفقا مع أميرها أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي ليجعلوا منه قاعدة لهما مقابل أن يدفعا له خمس الغنائم التي يحوزان عليها[1].

شرع خير الدين في تنظيم غاراته على سواحل وسفن إسبانيا والبندقية وفرنسا والبابا وجنوة بالإضافة إلى تعرضه للسفن التجارية والحربية التابعة لكافة الدول الأوروبية التي لا تربطها معاهدة سلام مع الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الإسلامية. فحاز من ذلك على غنائم هائلة، وأثار الرعب في سائر بلدان الساحل الجنوبي للبحر المتوسط.

اشترك مع أخيه في محاولات فتح بجاية، وفي الكثير من غزواتهما المظفرة. فكان بذلك مع أخيه واضع أسس بناء الجزائر العثمانية التي قدر لها أن تعمر 300 سنة.

صار خير الدين سلطانا على الجزائر بعد استشهاد أخيه عروج، لكنه وجد نفسه في حاجة إلى دعم الدولة العثمانية، فأقنع أعيان مدينة الجزائر بإرسال عريضة إلى السلطان سليم يعرضون فيها رغبتهم في ضم بلدهم إلى ممتلكات الدولة العثمانية، فوافقوا على ذلك وأرسلوا وفدا إلى إستانبول برئاسة حاجي حسين في أكتوبر

= التحق بأخيه في جربة ولم أجد ـ فيما بحثت ـ أن خير الدين كانت له علاقة بالشهزادة قورقود. انظر: *Kazıcı,XI.s.329* .

(1) Uzunçarşılı,II,s.364 ؛ age,V.s.65.

1519[1].

أحسن السلطان سليم استقبال الوفد، ثم أرسل فرمانا يعلن فيه قبوله لعرض أعيان الجزائر. وبعث إلى خير الدين بفرمان تعيينه بيلربايا على الجزائر. كما بعث إليه بالخلعة السلطانية، والراية مع 2.000 جندي من الانكشارية، وأذن له بأن يجمع ما يشاء من المتطوعين من الأناضول. وهكذا أصبحت الجزائر إيالة تابعة للدولة العثمانية، وقرئت الخطبة منذئذ باسم السلطان العثماني سليم الأول.

تصدى خير الدين للحملة العسكرية على الجزائر التي قادها ملك صقلية هيكو دي مينكادا ***Hego de Mongada*** في سنة 1519[2]. كما تمكن من الاستيلاء على مدينة القل وبونة (عنابة) وقسنطينة. لكنه اضطر إلى مغادرة الجزائر بعد الثورة التي قادها ابن القاضي بتحريض من سلطان تونس سنة 1524. فلجأ إلى جيجل، إلا أنه تمكن من استعادة الجزائر مرة أخرى بعد 3 سنوات.

استطاع أن ينقذ 70.000 من المهاجرين الأندلسيين، ونقلهم إلى الجزائر. فازدهرت مدينة الجزائر بفضل مهارة الأندلسيين الذين

---

(1) انظر الوثيقة التي صورة من الرسالة التي بعث بها الأهالي إلى السلطان سليم الأول في قسم الملاحق. وقد قام نشر الباحث التونسي الأستاذ عبد الجليل التميمي بنشرها في المجلة التاريخية المغربية في العدد 7 (1976) ص95-101. تحت عنوان: «**رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول في 1519**». والوثيقة محفوظة في: *Topkapı Sarayı Arşivi*,NO:6456.

(2) *Uzunçarşılı*,II.s.368 .

نقلوا إليها فنونهم وصناعاتهم، وبفضل الغنائم التي كانت تجنيها من غزوات البحر.

تمكن من طرد الإسبان نهائيا من قلعة البينيون التي كانوا يحتلونها قبالة مدينة الجزائر، وذلك سنة 1530.

في سنة 1534 عينه السلطان سليمان القانوني قبطان داريا، واليا عاما على الجزائر برتبة (بيلرباي). فقام بإصلاح دار بناء السفن في إستانبول وأعد أسطولا كبيرا أغار بثمانين قطعة منه على روجيو، وسبيرلونكا، وفودي ***Reggio, Sperlonga, Fodi*** وغيرها من المدن الممتدة على طول الساحل الإيطالي الجنوبي. ثم استولى بعد ذلك على تونس بعد فرار سلطانها مولاي الحسن. لكن الإمبراطور الإسباني شرلكان تمكن من احتلال تونس، وإعادة مولاي الحسن على العرش[1].

في 1538 استولى بأمر من السلطان سليمان القانوني على 20 جزيرة من الجزر الواقعة على بحر إيجة، وإلحاقها بالدولة العثمانية.

شعرت الممالك الأوربية برعب شديد من الغارات التي يشنها خير الدين على سواحلها وجزرها وسفنها، فعقد شرلكان هدنة مع ملك فرنسا فرنسوا الأول، وتنادت الممالك الأوربية لعقد تحالف صليبي كبير اشتركت فيه إسبانيا والبابا، والبندقية، والبرتغال. فأعدت حملة مكونة من 600 سفينة حربية، وسفينة دعم، وسلمت قيادتها إلى أندوريا دوريا ***Andrea Doria*** . فاستعد خير الدين

---

(1) سيأتي الحديث عن حملة شارلكان على تونس لاحقا من هذه الدراسة.

لمواجهة التحالف الصليبي بأسطول مكون من 122 سفينة، ثم اشتبك معه في معركة كبيرة في خليج بروزة **Preveze**، انتهت بهزيمة ثقيلة للتحالف الصليبي، واستيلاء خير الدين على 36 سفينة، و2.175 أسيراً. فكان من أهم نتائج هذه المعركة سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط[1].

في خريف 1541 قاد الإمبراطور شرلكان بنفسه حملة كبرى على الجزائر لكنها منيت بهزيمة منكرة، فقد فيها الإسبان معظم قطع أسطولهم.

استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالدولة العثمانية للاستنصار بها في حربه ضد إسبانيا، فقاد خير الدين في 1543 أسطولا مكونا من 110 سفينة، استولى به على مدينة نيس في أوت من السنة نفسها[2].

بعد حياة حافلة بالجهاد والغزو توفي خير الدين بربروس في جويلية 1546، ودفن في تربته التي أعدها بنفسه في ساحل باشكتاش[3] بإستانبول.

---

(1) لمزيد من تفاصيل معركة بروزة انظر :
Lütfi Paşa, ***Tarih***, s368; Katip Çeleb i,***Tuhfetü'l-Kibâr***, I.s, 81-84; Peçevi, I.s. 213. Hammer, V, s202 - 204; Uzunçarşılı, ***Tarih,*** II.374-379; Gökbilgin, ***kanuni***,s.96-98. Turan, ***Barbaros Hayreddin Paşa***, DIZ.V.s.66-67.

(2) لمعرفة تفاصيل مساعدة الأسطول العثماني للفرنسيين انظر :
Katip Çelebi,.s.100. Uzunçarşılı, ***Tarih***, II. s.3 86-387.

(3) *Lütfi Paşa, s.393 . Katip Çelebi, II.s.89.*

إسحاق رئيس
(.... - 1518)

نظرا لكون إسحاق رئيس لم يعرف عنه أنه غادر ميديللي إلى غيرها للتجارة مثل أخويه عروج وخير الدين، فإن المصادر التاريخية التي تحدثت عن الإخوة بربروس لم تشر إليه إلا في جمل عابرة لا تساعدنا على تكوين صورة كاملة عن هذه الشخصية.

وكل ما أسعفتنا به المصادر من معلومات عنه هي: أن إسحاق رئيس كان أكبر إخوته سنا. ولد بجزيرة ميديللي إلا أنه لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده. كما تشير المصادر إلى أنه اشتغل بالتجارة في مسقط رأسه، ولم يغادرها إلى غيرها بخلاف إخوته الآخرين[1].

ثم تنقطع المعلومات فلا تزودنا بأي شيء عن شبابه إلى أن تمّ فكاك أخيه عروج من أسر فرسان القديس يوحنا برودوس. وهنا نجد خير الدين يذكر في مذكراته أن إسحاق رئيس أشار على أخيه عروج بضرورة مغادرة ميديللي إلى الإسكندرية، خوفا عليه من بطش السلطان سليم الأول الذي جلس على عرش السلطنة العثمانية[2]، وقام بقتل أخيه قورقود الذي كان صديقا حميما لعروج. وهذا الموقف من شأنه أن يجعله عرضة لانتقام السلطان الذي لم

(1) Öztuna, ***Barbaros Hayereddin Paşa'nın Hatıraları***, s10.

(2) .age,s.20

يتردد أعوانه في التضييق على أنصار الشهزادة قورقود[1].

ثم لا تزودنا المصادر بأية معلومات أخرى ذات أهمية تذكر، إلا ما أشار إليه خير الدين أنه عاد مع أخيه عروج من شمال إفريقيا إلى ميديللي وقابلوا أخاهم إسحاق وقضوا في بلدهم معه أيام أنس وسعادة جعلت عروجا يفكر في الزواج والاستقرار في ميديللي، ثم لم يلبث أن غير فكره وعزم على أن يعود إلى شمال إفريقيا للغزو[2].

ولم يمض وقت طويل حتى لحق إسحاق رئيس بأخويه خير الدين وعروج في تونس[3]، وأقنعاه بالإقامة معهما في تونس[4]. فوافق على ذلك وأسندت إليه مهمة قيادة بعض وحدات أسطول الإخوة بربروس[5].

ويبدو من سياق الأحداث حسب ما يرويه خير الدين في مذكراته أن إسحاق رئيس كان يرافق في غالب الأحيان أخويه كمساعد أو مستشار لهما. مثال ذلك ما أشار إليه خير الدين في مذكراته من أنه خرج مع أخيه إسحاق رئيس للغزو في البحر المتوسط، واستوليا على ستة عشر سفينة محملة بالبارود، والزيت،

---

(1) فريد بك، **الدولة العلية العثمانية**، ص 188.

(2) Öztuna,s.27.

(3) **الغزوات**، ص27؛ كاتب جلبي، **تحفة الكبار**، ص28؛ جلال يحيى، **المغرب الكبير**، القاهرة، (بدون تاريخ)، ص22. وانظر أيضا: المدني ص 180-183.

(4) **الغزوات**، ص 27، جلال يحيى، ص 22.

(5) نفسه، 27.

والرصاص، والألواح، والقطران، والرز، والقمح. كما كان أخواه خير الدين وعروج يكلفانه بقيادة بعض الوحدات ذات المهمات المحددة، كتلك التي بعثه بها أخوه خير الدين لمساندة عروج حينما استدعاه أهالي الجزائر لتخليص مدينتهم من الإسبان، فسار إسحاق إليه على رأس 4 سفن ومعه 500 بحار ومعدات عسكرية[1].

إلا أن أهم وأخطر عمل قام به إسحاق رئيس، والذي جعل معظم المصادر التي أرخت لغزوات الإخوة بربروس تسجله هو قيادته للفرقة العسكرية المساندة لأخيه عروج الذي كان يقود معركة شرسة ضد التحالف الزياني الإسباني.

فقد اتفقت المصادر أن عروجا أو خير الدين[2] كلف إسحاق رئيس بالاستيلاء على قلعة القلاع التي تبعد عن مدينة معسكر

---

(1) كاتب جلبي، ص 30-31؛ جلال يحيى، ص 22؛ المدني، 180-183؛ وانظر أيضا: Öztuna, *Barbaros Hatıraları*, s. 28.

(2) يرى كاتب جلبي، والمؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي أن عروجا هو الذي استعمل أخاه على قلعة بني راشد، انظر: كاتب جلبي، ص 30-31، الجيلالي، 4/ 43. بينما جاء في غزوات عروج وخير الدين، أن الذي استعمل إسحاق على القلعة هو خير الدين. انظر: ص 33-34. ويصرح خير الدين بأنه هو الذي بعث إسحاق رئيس لدعم عروج. انظر: *Öztuna, age, s.*. ولعله من الممكن الجمع بين الروايتين، بأن يكون خير الدين هو الذي بعث بإسحاق رئيس لمساندة عروج، وحينما وصل إسحاق طلب منه عروج أن يتجه إلى قلعة القلاع لاحتلالها وقطع مصدر التموين الأساسي عن الإسبان. وبهذا يزول الإشكال إن صحت الرواية المذكورة.

حوالي 25 كلم، وعن مدينة مستغانم بنحو 55 كلم. وأكّد عليه في التشديد على الإسبان في وهران، وقطع المؤونة عنهم.

وصل إسحاق رئيس بقواته إلى القلعة، فوجدوا قوة إسبانية تحاول اقتحام المدينة فجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار الأتراك، وقتل 700 من الإسبان، وأسر 300 منهم. واستطاعت القوة التركية دخول القلعة والاعتصام بها[1].

جاء السلطان المخلوع أبو حمو الزياني بجيشه تسنده قوات إسبانية كبيرة، وفرضت حصارا شديدا على القلعة دام فترة طويلة اختلف في تقديرها[2]. وعندما اشتد الحصار على إسحاق ورفاقه، وانتهت مؤونتهم، ركنوا إلى الصلح على إعادة الأسرى الإسبان مقابل السماح لهم بمغادرة القلعة بما معهم من مال ومتاع[3]. فأذنوا لهم بذلك. ولما خرج إسحاق رئيس ورفاقه غدر بهم سلطان تلمسان ومن معه من الإسبان، واشتبكوا في معركة كبيرة انتهت بمقتل إسحاق رئيس وجميع رجاله؛ بينما تمكن الإسبان من الاستيلاء على القلعة[4].

---

(1) **الغزوات**، ص 33.

(2) جاء في كتاب الغزوات أن مدة الحصار دامت ستة أشهر، ص 33.

(3) كان إسحاق رئيس ورفاقه قد قاموا بأسر 300 إسباني عند احتلالهم للقلعة. انظر: **غزوات عروج وخير الدين**، مصدر سابق، ص33-34؛ الراشدي، ص 216.

(4) انظر وقعة استشهاد عروج في قلعة القلاع في: **كتاب غزوات عروج وخير الدين**، مصدر سابق، ص33-34؛ إلتر، ص63؛ الجيلالي، 4/ 43.

إلياس رئيس
(.... -1474)

إلياس رئيس هو الأخ الأصغر في عائلة الإخوة بربروس. لم تسعفنا المصادر التي رجعنا إليها بأي معلومات مهمة تتعلق بتاريخ مولده، أو نشأته.

فبعد اتفاق المصادر العربية والتركية على أن جميع الإخوة بربروس بما فيهم إلياس رئيس قد ولدوا ونشأوا في جزيرة ميديللي؛ زعم كل من المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني، والباحث الجزائري عبد الحميد بن أشنهو أن إلياس اشتغل بدراسة العلوم الإسلامية، وأنه كان متبحرا في علوم القرآن والفقه دون أن يذكر المصدر الذي اقتبس منه هذه المعلومة[1]. لكن الثابت في المصادر التركية التي تحدثت عن الإخوة بربروس أشارت إلى أن إلياس كان يشتغل بالتجارة مثل سائر إخوته[2]، وأنه كان يرافق أخاه عروجا في رحلاته التجارية[3].

كما أشارت المصادر المذكورة إلى أنه قد قتل في إحدى هذه الرحلات حينما كان في طريقه إلى طرابلس الشام برفقة أخيه عروج.

---

(1) انظر: المدني، ص 157؛ بن أشنهو، ص 38.
(2) كاتب جلبي، ص 25.
(3) نفسه، 25.

فاعترض سفينتهما فرسان القديس يوحنا الذين جعلوا من جزيرة رودس قاعدة يغيرون منها على السواحل الإسلامية. فتمكنوا بعد معركة غير متكافئة من قتل إلياس رئيس، وأسر عروج الذي أخذوه معهم حيث أمضى بعض سنين أسيرا في رودس[1].



(1) نفسه، ص 25.

الفصل الثاني
الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط
وظهور الإخوة بربروس

الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط

يرتبط الوجود التركي عموما، والعثماني خصوصا في غرب البحر المتوسط بقضية المسلمين في الأندلس. وقد سبقت الإشارة إلى أن أهالي الأندلس طلبوا تدخل السلطان العثماني بايزيد الثاني لحمايتهم مما يتعرضون له من ضغط وإرهاب مسيحي، وذلك بعد سقوط غرناطة. وبيّنا أن السلطان أرسل البحار كمال رئيس على رأس أسطول كبير إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486. فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية وجنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا ومالطا[1] ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا[2]. ثم كرر كمال رئيس الإغارة على

(1) **Afif Büyükoğlu**, *Osmanlı Deniz Harp Tarihi ve Cümhüriyet donanması, İstanbul, 1982.c.I.s.228.*

(2) انظر: عبد الجليل التميمي، **«الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين»** المجلة التاريخية المغربية، العددان: 23-24، ص191؛ وانظر أيضا: =

سواحل إسبانيا في 1510 منطلقا من السواحل المغربية. وقد رافقه في هذه الحملة بيري رئيس[1].

والذي يمعن النظر في الملاحظة التي أبداها الأستاذ أوزون تجارشلي التي ذكر فيها أن كمال رئيس كان يعمل في غرب البحر المتوسط قبل أن يعرض عليه السلطان بايزيد الدخول في خدمته. بل نقل كاتب جلبي أن بيري رئيس اتخذ من جزيرة جربة قاعدة له ينطلق منها للإغارة على السواحل والجزر الأوربية. كما صرح بأنه أغار على بجاية وعنابة، ومنها على السواحل الفرنسية وجزر البليار[2]. بل نقل كاتب جلبي أن بيري رئيس كان يتدخل للمساهمة في حل المشاكل المحلية لأهالي شمال إفريقيا، لكن للأسف لم يورد مثالا عن نوعية هذه المشاكل التي كان يساهم في حلها، حتى تتضح لنا الصورة التي بلغها بعلاقاته السياسية والاجتماعية مع أهالي المنطقة[3].

والذي يتضح لنا من كل ما سبق هو أن البحارة الأتراك قد

= إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية**، مرجع سابق، ص 95- 96.
Süleyman Nutki, Muharebat-ı Bahriye Osmanıyye. Deniz Kuvvetleri kumutanlığı. İstanbul 1891. s.19-23. Uzunçarşılı. OsmsnlıTarihi .TTk .Ankara . 1988 . II.s200.

(1) نفس المرجع، ص228.

(2) .Katip Çelebi , s.11

(3) Piri Reis, ***kitabı- Bahriyye*** , İstanbul,1935, s.654-664

عرفوا واشتهروا بين الأهالي في غرب البحر المتوسط سواء في شمال إفريقيا، أو في الأندلس قبل التدخل العثماني الرسمي لدعم مسلمي الأندلس. ومن الأسماء التركية التي لمعت قبل وصول آل بربروس إلى غرب البحر المتوسط: براق رئيس، وكورت أوغلو مصلح الدين رئيس، وسنان رئيس، وبيري رئيس.. وغيرهم[1].

لقد لاحظ الباحثون أن الكثير من البحارة الأتراك كانوا يجوبون البحر بمبادرة فردية مستقلين بأنفسهم، ينقلون الأسلحة إلى الأندلسيين، أو مدافعين عن موانئ إفريقيا الشمالية ضد هجمات الغزاة الأوروبيين. كما كان بعضهم يعمل في خدمة السلطان الحفصي أو غيره من السلاطين المحليين أو على الأقل يتلقون تشجيعا منهم[2]. وبالنظر إلى الدور الدفاعي والانتقامي الذي كان يقوم به هؤلاء البحارة صار الأهالي ينظرون إليهم على أنهم أبطال ومدافعون عن المسلمين[3]. فكانوا يستقبلون بحرارة في موانئ

---

(1) سيفي، ص 536؛ إلتر، ص39.

(2) في الحقيقة لم يكن السلاطين المحليون في شمال إفريقيا هم وحدهم الذين يؤيدون غزوات البحارة الأتراك، بل كانت السلطات العثمانية في إستانبول تشجع على مثل هذه العمليات لأنها تحقق بعض أهداف الدفاع عن موانئ المسلمين في شمال إفريقيا، وتقدم العون للمضطهدين الأندلسيين، وربما الأهم من ذلك هو إشغال إسبانيا عن المشاركة في حروب شرق البحر المتوسط بين الدولة العثمانية وأوروبا. انظر: يحيى بوعزيز، من تاريخ الجزائر، الجزائر (بدون تاريخ) ص 45.

(3) إيفانوف، ص95-96؛ وانظر أيضا: صلاح العقاد، المغرب العربي=

المغرب حيث اعتادوا على قضاء فصل الشتاء لإصلاح سفنهم وبيع غنائمهم، وتعويض خسائرهم البشرية[1].

وقد تعود هؤلاء الغزاة على الاستعانة بالمسلمين الأندلسيين الذين أجبروا على التظاهر بتغيير دينهم، حيث كانوا يمدونهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم على السواحل الإسبانية[2]. مما دفع سكان الموانئ الإسبانية إلى رفع شكاوى إلى الملكة إيزابيلا معلنين أنهم لم يعد في مقدورهم دفع الضرائب إذ لم يعد بإمكانهم ممارسة التجارة مع الخارج، أو زراعة أراضيهم بفعل غارات البحارة الأتراك والمغاربة[3].

وكانت القواعد الرئيسية لنشاط هؤلاء البحارة ممتدة على طول الساحل الشمال الإفريقي كطرابلس، وجربة، وبجاية، الجزائر، وتنس، ووهران، والمرسا الكبير[4].

= مرجع سابق، ص 19، 36.

(1) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، 1972، ص 82؛ **الغزوات**، ص 27؛ إيفانونف، ص 95-96.

(2) نفسه، 95-96.

(3) H.D.De Grammont, ***Histoire d'Alger sous la domination turque***.s.3-4

(4) انظر : إيفانوف، ص 95-96.

ظهور الإخوة بربروس في سواحل شمال إفريقيا

أشارت المصادر التي تحدثت عن الإخوة بربروس بأن عروجا عندما نجا من الأسر، لجأ إلى مدينة أنطاليا حيث عمل مساعدا لقبطان أحد السفن التي كانت متوجهة إلى مصر[1]. وحينما وصل إلى مصر استقر بها فترة من الزمن تمكن خلالها من مقابلة سلطانها قانصو الغوري، والدخول في خدمته[2].

في هذه الأثناء كان سلطان مصر يقوم بإعداد أسطول بحري، بغية إرساله إلى الهند. فكلف عدة سفن بالتوجه إلى خليج باياس ***Payas*** لإحضار الخشب اللازم لإنشاء الأسطول. وكانت سفينة عروج ضمن السفن المتجهة إلى الخليج. وعندما وصلت السفن إلى الميناء تعرضت لهجوم مفاجئ من طرف قراصنة رودس، الذين استطاعوا إحراق السفن والأخشاب، واضطر البحارة إلى الفرار والتفرق في المناطق المجاورة.

عاد عروج مرة أخرى إلى أنطاليا، واتصل بالأمير الشهزادة قورقود، حيث منحه سفينة ذات 18 مقعدا، مجهزة بكل لوازم

---

(1) Uzunçarşılı, II,s. 364

(2) نفس المرجع، 2/ 364.

الحرب[1]. فانطلق بها عروج إلى رودس، مغيرا بها على عدد من الجزر القريبة منها. الأمر الذي أثار جوا من الهلع في أوساط الأهالي، الذين هرعوا إلى حاكم الجزيرة طالبين منه بذل أقصى ما يمكن من الجهود لتأمين الحماية لهم ولأموالهم. فأمر الحاكم بمطاردة عروج والبحث عنه في كل ميناء.

فانطلق الرودوسيون يبحثون عن عروج في كل مكان، إلى أن صادفوه راسيًا بسفنه في إحدى الموانئ فباغتوه بهجوم مفاجئ إلا أنه تمكن من الفرار برجاله إلى المناطق المجاورة.

توجه عروج إلى مسقط رأسه جزيرة ميديللي لزيارة أقاربه. وفي هذه الأثناء بلغه أن الأمير قورقود هرب خوفا من أخيه السلطان سليم. ولما كان عروج مقربا من الأمير قورقود، فقد خشي أن يتعرض للمضايقة بسبب ذلك الأمر الذي دعاه إلى مغادرة ميديللي مصطحبا معه 3 سفن، وتوجه إلى مصر[2].

---

(1) نفسه، 2/ 364.

(2) يرى بعض الباحثين أن عروجا غادر ميديللي بعد إعدام الأمير قورقود بفترة قصيرة، وذلك في نهاية عام 1512. بينما يرى دوغرامونت وفوربيكة **Forbige** أن سفر الإخوة بربروس إلى المغرب كان في 1510 أو 1512. على حين تشير مصادر أخرى إلى أن الإخوة بربروس كانوا في المغرب قبل 1494. بينما المصدر الوحيد الذي يفصل في هذه المسالة هو خير الدين نفسه الذي صرح في مذكراته أنه وأخاه غادرا ميديللي بعد مقتل قورقود، مما يؤكد أن ذلك تم في نهاية 1512. انظر: مذكرات بربروس ص41-47.

عندما وصل إلى مصر استأذن من سلطانها قانصو الغوري أن يقضي الشتاء في الإسكندرية، فأذن له بذلك[1]. وفي ربيع 1513 خرج عروج للغزو فحاز من ذلك على غنائم هائلة، واستقر رأيه على أن يجعل من جزيرة جربة مركزا له يودع بها أمواله وغنائمه.

أصدر السلطان سليم الأول أوامر صارمة تقضي بمنع الإبحار في شواطئ الأناضول وموانئه ومعاقبة كل من يخالف تلك الأوامر[2] فاضطر هو الآخر إلى مغادرة ميديللي، وتوجه إلى جربة التي وصلها في صيف 1513 حيث قابل أخاه عروجا[3]. وبعد أن

---

(1) كاتب جلبي، ص 26.

(2) حينما تولى السلطان سليم عرش السلطنة العثمانية، وتمكن من القضاء على مناوئيه. قرر التفرغ للشاه إسماعيل الصفوي في إيران. ولكي يؤمن ظهره من أي هجوم تقوم به الممالك الأوربية من الخلف عقد عدة معاهدات مع عدد من الدول الأوربية. فتمكن بذلك من تأمين الجبهة الأوربية. وحتى لا تستطيع أي دولة أن تجد مبررا لخرق الهدنة في أثناء انشغاله بحرب الشاه إسماعيل منع البحارة الأتراك من الإبحار والغزو في المياه الخاضعة له أو الرسو بها.

(3) يبدو من سياق الأحداث أن خير الدين لحق بأخيه عروج الذي سبقه إلى جزيرة جربة. انظر: كاتب جلبي، ص 26؛ إلتر، ص 38-39. ومما سبق ذكره يتضح أن الأخوين بربروس قدما إلى شمال إفريقيا بمحض إرادتهما، وبناء على الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في تلك الفترة، خصوصا خوف عروج من بطش السلطان سليم الأول. غير أننا نلاحظ أن الآغا بن عودة المزاري يسوق تفسيرا مختلفا، لم نجد من يوافقه عليه فيما رجعنا إليه من المصادر العربية =

تدارس الأخوان مستقبل عملهما في غرب البحر المتوسط، توصلا إلى قناعة بضرورة التوجه إلى تونس لمقابلة سلطانها أبي عبد الله محمد الحفصي (1494 - 1526) الذي كانت تربطه بالأتراك علاقات حيمة، منذ قيامه بمبادرة الصلح بين العثمانيين والمماليك في عهد بايزيد الثاني عام 1494.

توجه الإخوان بربروس ومن معهما من البحارة الأتراك إلى سلطان تونس، وقدموا له هدايا عظيمة، ثم طلبوا منه أن يمنحهم مكانا يجعلونه مركزا لهم يرسون فيه، ويقضون فيه الشتاء. فوافق السلطان على ذلك مقابل دفع خمس الغنائم له[1].

= والتركية التي رجعنا إليها في دراستنا. حيث زعم أن الأخوان بربروس قدما إلى شمال إفريقيا بناء على احتلال الإسبان لسواحل الجزائر، وكتابة أحمد ابن القاضي إلى السلطان سليم يطلب منه التدخل لإنقاذ الجزائر. فقام هذا الأخير بإرسال خير الدين وأخويه عروج وإسحاق رئيس. انظر المزاري، مصدر سابق، 1/ 249-250. وقد عزا ما ذكره إلى كل من ابن عسكر في دوحة الناشر وأحمد بابا التنبكتي في الذيل على الديباج وأبو راس في عجائب الأخبار !!!

(1) **الغزوات**، ص12-13؛ كاتب جلبي، 26؛ ابن أبي الضياف، 2/ 9؛ Kazıcı,XII.s.329. هذا ما ورد في معظم المصادر التي أرّخت لهذه الحادثة. إلا أن خير الدين باشا أشار في مذكراته بأنهم اتفقوا على أن يدفعوا للسلطان الحفصي ثمن الغنائم التي يصحلون عليها. والذي يبدو من هذا الاختلاف أحد أمرين: فإما أن يكونوا قد اتفقوا معه على الثمن ثم تم رفع النسبة إلى الخمس في مرحلة لاحقة على أساس=

لقد وافق سلطان تونس على طلب الأخوة بربروس المتمثل في جعل ميناء حلق الوادي قاعدة لهم ليس اقتناعا منه بما يقومون به أو تأييدا لهم في مقاومتهم للإسبان إذ سوف نرى كيف سيتحالف معهم لاحقا بل لكي يستفيد من العائدات المالية التي يجنيها منهم دون أن يحتاج إلى فرض مزيد من الضرائب على الأهالي. كما كان يريد امتصاص التذمر الشعبي منه ومن سلوكه المهادن للإسبان. وهكذا كان فتحه لقلعة حلق الوادي للأتراك يظهره أمام رعاياه بمظهر المساند لحركة الجهاد ضد الاحتلال الإسباني[1].

وكما سلف أن أشرنا إلى أن البحارة الأتراك لم يكونوا مجهولين لدى أهالي شمال إفريقيا. وعليه فإنه من الطبيعي أن تكون شهرتهم قد شاعت بين أهالي الجزائر، ليس بسبب الغزوات المظفرة التي كانا يقومان بها ضد السواحل والسفن الأوربية فحسب؛ بل لأنهم كانوا كغيرهم من البحارة الأتراك يرسون في الموانئ الجزائرية لبيع غنائمهم وإصلاح سفنهم، وتعويض خسائرهم البشرية بقوات جديدة. وقد أشار المؤرخ الجزائري المهدي البوعبدلي في مقدمة

= أن الدولة ليس لها من الغنائم سوى الخمس. وإما أن يكون الثُمُن الذي ذكره خير الدين لم يكن من الغنائم وإنما هو نسبة أخرى تمت إضافتها إلى الغنائم لاعتبارات أخرى لم نتمكن من الاهتداء إليها.. وكيفما كان الأمر فإن المؤكد هو أن السلطان أذن للبحارة بالرسو في ميناء حلق الوادي مقابل نسبة من الغنائم بصرف النظر عن نسبتها.

(1) الزبيري، ص 23.

تحقيقه لكتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني[1] إلى أن عروجا كان كغيره من الأتراك كثيرا ما يتصل بالشخصيات الدينية المحلية. ومن ذلك أنه قابل الشيخ الولي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي[2] في شرق وهران[3]. وهذا يعني أن عروجا كان على صلة بالمنطقة قبل استقراره بها بعد اتخاذه من جزيرة جربة قاعدة لعملياته. يؤيد ذلك ما ذكره ضياء قزيجي من أن الأخوين بربروس بدآ يظهران في غرب البحر المتوسط ابتداء من سنة 1504[4].

وبناء على ما سبق، فإنه من الطبيعي أن يكون الإخوة بربروس على علم بالخصائص الجغرافية والسياسية للمنطقة. ومن ثم فإنه يمكن اعتبار ظهورهم لم يكن سوى مرحلة لاحقة من مراحل الاتصال التركي والعثماني بمنطقة الشمال الإفريقي[5].

---

(1) أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق الشيخ المهدي بن بوعبدلي، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية (بدون تاريخ)، ص 15-16.

(2) كما نقل البوعبدلي هذه الحادثة عن كتاب مخطوط لمؤلفه علي بن الحاج موسى الجزائري يدعى «**ربح التجارة**» ذكر فيه مناقب الشيخ الولي أحمد بن يوسف الراشدي الذي قابله عروج. والكتاب توجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة ضريح بمدينة مليانة. انظر: المصدر السابق، ص 15-16.

(3) البوعبدلي، ص 15-16.

(4) Kazıcı,XII.s.328

(5) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، 1984، 1/ 131-132.

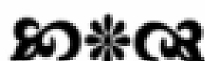
إلا أن ما نريد الإشارة إليه هنا هو أن ظهور آل بربروس في غرب البحر المتوسط اختلف كليا عن ظهور غيرهم من الأتراك الذين سبقوهم؛ سواء بالنظر إلى سبب المجيء، أو بالنظر إلى النتائج الباهرة التي ترتبت عن ذلك.

والأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلى الذهن هي: هل كان الإخوة بربروس يخططون للمجيء إلى شمال إفريقيا؟ وهل كان طموحهم يدفع بهم إلى التفكير في تأسيس إيالة أو مملكة تركية مرتبطة بالدولة العثمانية؟ أم أن الظروف وطبيعة الصراع مع إسبانيا تحديدا هي التي أوصلتهم إلى ما انتهت إليه؟!!

إن المتتبع لسير الأحداث في الدولة العثمانية على الأقل منذ جلوس السلطان سليم على عرش السلطنة، وقيامه بقمع أي حركة معارضة له، وتضييقه على أتباع وأنصار أخيه الشهزادة قورقود، يرجح أن عروجا وأخاه خير الدين رئيس لم يكونا يتطلعان إلى تأسيس دولة في شمال إفريقيا. بل غاية ما كان يطمحان إليه هو القيام بواجب الجهاد ضد القراصنة الأوربيين في شرق البحر المتوسط، خصوصا وأن عروجا قد عاش بنفسه تجربة الأسر الطويلة عندهم، ولمس عن قرب ما يلقاه المسلمون من أذاهم.

ولعل النتائج التي انتهت إليها تطورات الأحداث في الدولة العثمانية، والاضطهاد الديني الذي كان يعيشه المسلمون في الأندلس بعد سقوط آخر ممالكهم في غرناطة. بالإضافة إلى الاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا، خصوصا الجزائر التي كانت خالية

من أية قوة إسلامية جدية يمكنها أن تحمل مسؤولية الدفاع عن المسلمين وتحرير البلاد من الاحتلال الإسباني. إضافة إلى ما تحقق على أيديهم أي الإخوة بربروس من انتصارات عظيمة على الإسبان، دفعتهم إلى التفكير بشكل جدي في تطوير مشروعهم، ليتحول إلى تأسيس دولة حقيقية تكون تابعة للدولة العثمانية. وهو ما أشار إليه خير الدين في مذكراته بعدما تمكن هو وأخوه من الاستقرار في قلعة جيجل بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني، ومحاصرة بجاية مرتين[1] كل هذه المعطيات وغيرها أقنعت الأخوة بربروس بضرورة تركيز جهودهم في هذه المنطقة الحساسة من العالم الإسلامي.



(1) Yilmaz Öztuna, ***Barbaros hatıraları***, İstanbul,1989,s. 33.

الفصل الثالث
مراحل الدخول العثماني

مرحلة عروج رئيس
(1512 -1518)

بعد استقرار الأخوين خير الدين وعروج في جربة، شرعا بحلول ربيع 1512 في شن غارات كبيرة على مختلف السواحل والموانئ الأوربية الغربية وجزرها، مثل سردينيا، ونابولي، بالإضافة إلى تعرضهما للسفن الأوربية التي كانت تجوب البحر المتوسط محملة بالبضائع أو الجنود. فغنما من ذلك غنائم هائلة قدما بها إلى جزيرة جربة حيث قاما ببيعها، ودفع الخمس إلى السلطان، وتصدقا على الفقراء من الأهالي[1]. فازداد كل من السلطان التونسي وأهالي تونس بهما تعلقا[2]. وذاع صيتهما في كل سواحل غرب البحر المتوسط، وأثارا موجة من الرعب فيها[3].

قررت إسبانيا إرسال أسطول كبير مكون من 10 سفن للقضاء

---

(1) سيفي، ص 4.
(2) الناصري، 4/ 162؛ ابن أبي الضياف، 2/ 9.
(3) Uzunçarşılı,II,s.366.

على الإخوة بربروس ومن معهم من الأتراك. ولكن قبل وصول السفن الإسبانية كان البحاران التركيان قد توجها إلى جنوة للإغارة عليها، غير أن مخالفة الرياح أجبرتهما على اللجوء إلى سواحل بجاية الجزائرية[1].

1. المحاولة الأولى لتحرير مدينة بجاية (1512)

وأما السفن الإسبانية التي أرسلت للقضاء عليهم، فإنها عندما علمت بتوجههم إلى بجاية قامت بتعقبهم إلى أن أدركتهم في سواحلها. فرأى الأخوان بربروس ومن معهما من الأتراك أن الاشتباك مع الإسبان قرب الساحل فيه خطورة كبيرة. إذ سيجدون أنفسهم محصورين بين السفن الإسبانية وحامية المدينة. لأجل ذلك قرروا الابتعاد عن الساحل.

ظن الإسبان أن الأتراك يريدون الفرار، فقاموا بمطاردتهم حيث أدركوهم بعد أن كانوا قد ابتعدوا عن الساحل. لكن عروجا سرعان ما أعطى أوامره بشن هجوم معاكس على السفن الإسبانية التي تتعقبهم. فدهش الإسبان لهذه المناورة التي لم تكن متوقعة، واشتبك الأتراك مع الإسبان حيث تمكنوا على إثرها من الاستيلاء على ثلاث سفن، بينما لاذت السفن الباقية بالفرار[2].

ثم أصدر عروج أوامره بالهجوم على السفن الإسبانية التي

---

(1) سيفي، ص 4.

(2) نفسه، ص 15.

احتمت بميناء بجاية للاستيلاء على بقية السفن. فشرعت الحامية الإسبانية المتمركزة في القلعة في قصف عروج ورفاقه بوابل من نيران بنادقهم ومدافعهم. مما أدى إلى سقوط 60 شهيد من الأتراك، بالإضافة إلى عدد كبير من الجرحى، كان من بينهم عروج الذي أصيب إصابة بالغة في ذراعه اليسرى[1].

تولى خير الدين القيادة نيابة عن أخيه الجريح. لكنه لما رأى كثرة جراحات أصحابه، وسقوط عدد كبير منهم شهداء، أصدر أوامره بالانسحاب. فركبوا سفنهم ثم انسحبوا مبتعدين عن القلعة، بينما استمر الإسبان في قصفهم بنيران مدافعهم وبنادقهم من أسوار القلعة[2].

تمكن الأتراك من الوصول إلى تونس في 14 سفينة. حيث تمت مداواة الجرحى، إلا أن إصابة عروج البليغة اضطرت الأطباء إلى قطع ذراعه اليسرى[3].

لم يتمكن الإخوة بربروس من تحرير بجاية في هذه المحاولة، ولكن الذي تمكنوا من إنجازه هو اختبارهم لمدى قدرتهم على التصدي للإسبان، بل ومهاجمتهم في حصونهم التي يحتلونها. كما أثارت هذه المحاولة - رغم فشلها- إعجاب زعماء القبائل البربرية الذين لمسوا عن قرب شجاعة الأتراك وكفاءتهم القتالية وانضباطهم

---

(1) **الغزوات**، ص 18؛ ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ سيفي، ص 15.

(2) نفسه، 16.

(3) **الغزوات**، ص 18.

العسكري. مما كان له أثر كبير في تحفيز أهالي المدن الجزائرية المحتلة إلى أن يرسلوا وفودا إلى الإخوة بربروس تدعوهم للتدخل لتخليص مدنهم من الاحتلال الإسباني كما سنرى بعد قليل.

ب. تحرير قلعة جيجل (1514)

أدرك عروج أن مدينة بجاية حصينة جدا، لأنها تمثل قاعدة الاحتلال الإسباني في شرق الجزائر. كما اقتنع بأن قلعة حلق الوادي بتونس بعيدة عن أرض المعركة الحقيقية في الجزائر حيث يتمركز الوجود الإسباني. وكان من اللازم أن يجد لنفسه قاعدة أخرى تكون أكثر قربا بحيث يمكنه اللجوء إليها، والتزود منها عند الحاجة. فقرر فتح قلعة جيجل التي تبعد عن بجاية بحوالي 102 كلم غربا. وذلك لكي يجعل منها نقطة انطلاق نحو بجاية.

والجدير بالذكر أن الجنويين كانوا يحتلون جيجل منذ سنة 1260م[1]. حيث جعلوا منها مركزا للتبادل التجاري بين إيطاليا وإفريقيا. ثم بدأ المركز يفقد أهميته شيئا فشيئا إلى أن تغلب أهل البلاد على الحامية.

ولكن الأميرال أندريا دوريا أعاد احتلال جيجل، وأخرج أهلها منها، ووضع بها حامية تعمل لحساب جنوة حتى يعيد للمركز

---

(1) الجيلالي محمد عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، بيروت 1980، 3/ 37؛ المدني، ص 165.

أهميته الأولى[1]. وقد كان ذلك بعد فشل المحاولة الأولى لتحرير بجاية التي قام بها الأخوان بربروس في 1512[2].

طلب أهالي جيجل من عروج التدخل لتحرير مدينتهم من الاحتلال[3]، فأجابهم عروج إلى ذلك، وهاجم القلعة في 1514. حيث تمكن من القضاء على حاميتها الجنوية. وترك بها 50 جنديا، و3 سفن لحمايتها[4].

وبالرغم من كون جيجل لم تكن ذات أهمية سياسية أو اقتصادية في ذلك العصر، إلا أن توسطها بين بجاية والجزائر من جهة، وقربها النسبي من بجاية، جعل عروجا يتخذها نقطة ارتكاز ينطلق منها لمد نفوذه في الجزائر، بالإضافة إلى قاعدته الأخرى في حقل الوادي بجزيرة جربة التونسية.

ج. المحاولة الثانية لتحرير بجاية (1514)

كان الإخوان عروج وخير الدين بربروس يدركان أن تحرير بجاية سوف يؤدي إلى إنهاء الاحتلال الإسباني من الشرق الجزائري

---

(1) المدني، المرجع نفسه، ص 165؛ الجيلالي، 3/ 37.

(2) المرجع السابق، ص 165.

(3) الوزان، ص 409؛ الجيلالي، 3/ 368.

(4) كاتب جلبي، ص27؛ الجيلالي، ص3/ 37؛ المدني، ص 165؛ هذا؛ وقد ذكر المؤرّخ عبد الرحمن الجيلالي أن فتح جيجل تم بمساعدة الشيخ أحمد بن القاضي الذي كان زعيما للقبائل البربرية في جبل كوكو. انظر: الجيلالي، 3/ 368؛ وانظر أيضا: Uzunçarşılı,II,s.366.

كله، ويمكّنهما في الوقت ذاته من قطع خطوط مواصلات القوات الإسبانية بين طرفيها الشرقي الذي يتخذ من إيطاليا قاعدة له، والغربي الذي يتركز في إسبانيا. إضافة إلى ذلك فإنه يؤمن السواحل الجزائرية الشرقية والسواحل التونسية من غارات القراصنة.

وباختصار كان تحرير بجاية في نظر الأخوين يمثل مرحلة هامة ومصيرية في صراعهما مع الإسبان في معركة فرض السيطرة على الحوض الغربي من البحر المتوسط. ولذلك راحا ينتظران الفرصة المواتية التي تمكنهما من تحريرها.

وفعلا لم يطل انتظارهما، ففي الوقت الذي كان فيه بيري رئيس في إستانبول، وصل إلى تونس[1] وفد من أعيان وأشراف بجاية يحملون إليهما كتابا جاء فيه:

«إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة، أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه لنا إليكم. فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بخلاصنا من هؤلاء الكفار»[2].

---

(1) ابن أبي الضياف، 2/ 10. جاء في كتاب الغزوات، ص25، أن الوفد أرسل إلى عروج وخير الدين حينما كانا في طريقهما إلى سبتة لإنقاذ بعض مسلمي الأندلس، فرسيا بإحدى الموانئ القريبة من بجاية. وانظر أيضا: Uzunçaraılı,II,s.366 .

(2) اتفقت كلّ المصادر العربية والتركية التي أرخت لهذه المرحلة أن أعيان=

= وأشراف بجاية بعثوا إلى الأخوين بربروس يطلبون منهما التدخل لتحرير مدينتهم انظر: **الغزوات**، ص 25؛ ابن احمد بن أبي الضياف، 2/ 9؛ مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، الجزائر 1/ 58. بينما ذهب المؤرخ المغربي الناصري إلى أن الذي استدعى الأخوين بربروس هو أمير جبل كوكو الشيخ أحمد ابن القاضي انظر: الناصري، 4/ 192؛ ووافقه الباحث التركي إلتر، انظر: ص47. وخالف الأستاذ شكران حكوت الجميع إذ زعم أن دولة بني زيان هي التي طلبت من عروج التدخل لتحرير بجاية.

انظر: Şükran Hkkut, ***Türklerin KuzeyAfrika'ya Gelişleri ve Garp Ocakları***, Hayat Tarih Macmuası, Ocak 1978, s.53.

ولم أجد في من تحدث عن الدخول العثماني إلى الجزائر من أيد الباحث شكران حكوت فيما ذهب إليه. وخلافا لهذه الآراء كلها، ذهب الأستاذ بن أشنهو إلى أن أمير بجاية عبد الرحمن الحفصي هو الذي دعا عروجا لغزو بجاية. انظر: بن أشنهو، ص 64. ووافقه الباحث الجزائري محمد العربي الزبيري في ذلك، انظر: الزبيري، ص33-35. أما المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني فقد ذكر أن الأمير عبد الملك أمير قسنطينة هو الذي طلب تدخل الأتراك، كما طلب ذلك العلماء والأعيان. انظر: المدني، ص162. والذي يمكن استخلاصه من هذا كله هو أنه من المحتمل أن أعيان بجاية قد كاتبوا عروجا في مرات مختلفة، فيجوز أن يكون الأعيان قد كاتبوه باسمهم جميعا أو باسم الشيخ أحمد بن القاضي، كما كاتبه كل من الأمير عبد الرحمن الحفصي أو الأمير أبو بكر أو كليهما قبل ذلك أو بعده. ولا تناقض بين هذه الروايات حسبما يتبين من سياق الأحداث، نظرا لكون بجاية لم تكن تعيش في هذه الفترة في ظل نظام سياسي موحد ومتوازي. بل كان الصراع على السلطة =

وهنا ينتهز الأخوان الفرصة التي طالما انتظراها ويقومان في صيف 1514 بتجهيز اثنتي عشر سفينة حربية على متنها 2.000 جندي من البحارة الأتراك مزودين بالبنادق والمدافع، يساندهم 20.000 من رجال القبائل الذين توافدوا من جميع النواحي المحيطة ببجاية[1].

أعطى عروج أوامره ببدء الهجوم على القلعة الخارجية التي تشكل خط الدفاع الأول عن المدينة. وبعد قتال دام أربعة أيام متوالية، تمكنوا من الاستيلاء على القلعة الخارجية. والقضاء على

= مع ضعف المتنازعين وخروج الأمر من أيديهم هو السمة البارزة في هذه الفترة من تاريخ المدينة المذكورة. لكن الادعاء الذي يبدو واهيا هو ما ذهب إليه الأستاذ حكوت من أن الزيانيين هم الذين قاموا باستدعاء الإخوة بربروس لتحرير بجاية. والذي يضعف هذا الادعاء أمران: **الأول**: أن بجاية لم تكن من ممتلكات الدولة الزيانية في هذه الفترة، بل كانت خاضعة للحفصيين اسميا منذ فترة طويلة، **والثاني** : أن الباحث لم يشر إلى أي مصدر قديم يمكن الرجوع إليه للتأكد من صحة هذا الادعاء على الأقل، كما أننا لم نجد أحدا من المعنيين بتاريخ الجزائر في هذه المرحلة من وافقه فيما ذهب إليه.

(1) لم يذكر الوزان عدد القبائل التي اشتركت في القتال، واكتفى بقوله أن كل القبائل المجاورة جاءت لمساعدة بربروس، انظر: ص 423؛ وانظر أيضا: **الغزوات**، ص 25؛ كاتب جلبي، ص 28؛ إلتر، ص 48؛ عبد القادر بن عمر، ق 14 ب، 1 أ. لكن الزبيري ادعى أن قبيلة بني عباس البربرية أرسلت 5000 من رجالها لمساندة عروج في حصار بجاية الثاني. انظر الزبيري، ص 33-35.

جميع رجال الحامية الإسبانية، وأسر 500 منهم[1].

بعد احتلال القلعة الخارجية، فرض عروج حصارا شديدا على القلعة الداخلية، التي كانت أكثر إحكاما، وفتحها في غاية الصعوبة. استمر الأتراك في قصفها بالمدفعية 20 يوما دون توقف[2]. فنفد البارود الذي كانوا يعتمدون عليه في تدمير استحكامات القلعة. ولم يجد عروج بدّا من الاستعانة بسلطان تونس ليزودهم بالبارود، إلا أن السلطان الحفصي تجاهل طلبهم، ولم يزودهم بما يحتاجون إليه من بارود[3].

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك ومن معهم من القبائل المحاصرة للمدينة ينتظرون وصول البارود من السلطان الحفصي، وصلت قرابة 100 قطعة بحرية إلى سواحل بجاية على متنها حوالي 10.000 جندي إسباني[4]. لم يكن في مقدور الأتراك التصدي لهذه

---

(1) سيفي، ص 19-20؛ إلتر، ص 48.
(2) كاتب جلبي، ص 28.
(3) ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ سيفي، ص 20-21؛ كاتب جلبي، ص 28؛ إلتر، ص49؛ بن أشنهو، ص65؛ المدني، ص 170.
(4) سيفي، ص20؛ لكن كاتب جلبي ذكر أن عدد السفن التي جاءت لدعم الجنود الإسبان المحاصرين في بجاية كان 200 سفينة، انظر: كاتب جلبي، ص 28؛ بينما جاء في كتاب الغزوات أن عدد القوات المساندة كانت 14.000 جندي. انظر: **الغزوات**، ص 26. ولا شك أن هذه الأرقام تخمينية يلاحظ عليها طابع المبالغة في تضخيم عدد السفن كما لوحظ ذلك مرارا في مواضع أخرى من كتاب تحفة=

القوة الهائلة مع نفاد البارود، فقرر عروج رفع الحصار وسحب قواته إلى جيجل عن طريق البر[1]. ولكي لا تقع سفنه غنيمة في يد الإسبان أمر كما أمر بإحراق سفنه بإحراقها جميعا[2].

فشل الأتراك للمرة الثانية في تحرير بجاية، ولكن الفشل كان في هذه المرة بسبب خذلان الملك الحفصي لهم، بامتناعه عن تزويدهم بما يحتاجون إليه من بارود. لقد كان السلطان الحفصي يعلم يقينا أن دوره سيجيء يوما ما. ولذلك فإن منطق المحافظة على العرش جعله يغض الطرف عن مصالح بلده وشعبه. ففضل أن تبقى المدينة تحت الاحتلال على أن تتحرر من الاحتلال، خوفا من أن

= الكبار. بينما يبدو ما ورد في كتاب الغزوات أقرب إلى الواقع، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإسبان كانوا يستعملون سفنا كبيرة الحجم تقل كل واحدة منها حوالي 400 أو 500 مقاتل. فيكون المجموع السفن حينئذ يقارب الـ 30 أو 40 سفينة على أكثر تقدير. أما العدد الذي ذكره كاتب جلبي فيبدو بعيدا عن الواقع خصوصا أن عدد سفن التحالف الصليبي في معركة بروزة 1538 كانت تقارب هذا العدد. ومعلوم أن هذه المعركة يعتبرها المؤرخون أكبر معركة بحرية وقعت في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر. وعليه؛ فإننا نخلص إلى أنه لا يمكن الجزم بالعدد الحقيقي لعدد الجنود أو السفن في مثل هذه الوقائع دون إثباتات وثائقية مؤكدة.

(1) الوزان، ص423؛ وانظر أيضا: كاتب جلبي، 8؛ الغزوات، 6؛ إلتر، 48-49، بن أشنهو، ص65؛ المدني، 170.

(2) الوزان، ص409؛ كاتب جلبي، ص28، إلتر، ص48-49؛ الغزوات، ص26؛ بن أشنهو، ص65؛ المدني، ص170.

يجلس على عرشها من ينازعه سلطانه ذات يوم[1].

هذا؛ وبالرغم من أن الرحالة الوزان قد أشار إلى حصار بجاية في كتابه، غير أنه لم يشر إلى حادثة امتناع السلطان الحفصي عن تزويد بربروس بالبارود التي ذكرها الكثير من المؤرخين والباحثين. بل عزا فشل بربروس في فتح بجاية إلى سبب آخر هو تخلي القبائل عنه وانسحابها من الحصار بدون استئذان في موسم البذار[2]، والغريب أنه ذكر أن الكثير من الجنود الأتراك فعلوا الشيء نفسه[3]. ونحن قد يسهل علينا فهم الظروف التي قد تدفع بمثل هذه القبائل إلى التخلي عن القتال كلما تغيرت منافعها ومصالحها، ولكن الذي لم نفهمه هو سبب انسحاب الجنود الأتراك. إلا أن يقال بأن تأخر وصول البارود، وانصراف القبائل أوجد شعورا بالإحباط واليأس من فتح القلعة فتركوا القتال غير المجدي، مما أجبر عروجا إلى رفع الحصار والانسحاب إلى جيجل.

د. بداية العلاقة مع الدولة العثمانية (1514)

شاعت أخبار الغزوات المظفرة التي يقوم بها الأخوان بربروس ومن معهم من البحارة الأتراك في غرب البحر المتوسط، حتى

---

(1) الغزوات، ص 19، إلتر، ص49.

(2) أشار محقق كتاب الوزان إلى أن أمطارا غزيرة هطلت في جبال القبائل أدت إلى خسائر جسيمة، فاندفعت القبائل لحراثة أراضيها. انظر ص409، هامش، ت115.

(3) انظر الوزان، ص 409.

بلغت عاصمة الدولة العثمانية إستانبول. وبقدر ما أشاعته من هلع في أوساط العواصم الأوربية؛ فإنها أشاعت شعورا بالتعاطف الكبير والمودة في البلاط العثماني. ولا غرابة في ذلك فبالإضافة إلى رابطة الدين التي كانت تمثل عاملا هاما في الصراع بين أوربا المسيحية بقيادة إسبانيا، والعالم الإسلامي بزعامة الدولة العثمانية[1]. كما أن ثمّة عامل سياسي آخر لعب دورا أساسيا في التقريب بين كل من الدولة العثمانية والأتراك الذين كانوا يمهدون الطريق للوجود العثماني في شمال إفريقيا. هذا العامل هو اشتراكهما في محاربة عدو واحد. لقد وجدت الدولة العثمانية والبحارة الأتراك المرابطون في سواحل غرب البحر المتوسط أنفسهم حلفاء في ميدان الحرب قبل أن يتم ترسيم هذا الحلف وفق التطورات التي عرفتها المنطقة في مرحلة لاحقة..

ومن جهة ثانية فإن الأخوان عروج وخير الدين بربروس كانا يدركان أنه ليس باستطاعتهما بإمكانياتهما الذاتية المحدودة التصدي لدولة قوية ناشئة مثل إسبانيا. وغاية ما يمكنهما القيام به هو شن غارات خاطفة ومفاجئة على سواحلها وسفنها التجارية، وتخليص من يستطيعان تخليصه من مسلمي الأندلس. أما تحرير المدن التي يحتلونها في شمال إفريقيا فإن ذلك يحتاج فعلا إلى دعم دولة قوية

---

(1) انظر: عبد الجليل التميمي، **الخلفية الدينية للصراع الإسباني - عثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر**، تونس (بدون تاريخ)، ص 6-8-9.

مثل الدولة العثمانية.

وقد تأكدت لهما الحاجة الماسة إلى مساندة الدولة العثمانية، حينما رأيا تخاذل السلطان الحفصي عن إمدادهما بالبارود في أثناء المحاولة الثانية لتحرير بجاية.

وهكذا فإنهما انتهزا أول فرصة أتيحت لهما لكي يقوما بإرسال وفد إلى إستانبول مع شخصية هامة ومعروفة لدى السلطان، ألا وهي بيري رئيس ابن أخت كمال رئيس، الذي كان السلطان بايزيد الثاني قد كلفه بالإغارة على سواحل إسبانيا حينما استغاث به مسلمو غرناطة. لقد كان الأخوان بربروس يريدان أن يقولا من خلال الوفد الذي يرأسه بيري رئيس بأنهما يكملان مهمة كمال رئيس، رغم أن ظروف المسلمين اليوم أكثر خطورة مما كانت عليه حينما كانوا وراء أسوار غرناطة[1].

غادر بيري رئيس تونس في 6 سفن محملة بالهدايا. فوصل الوفد إلى إستانبول حيث استقبل بحفاوة بالغة، وسلم للسلطان الهدايا والرسالة التي بعثها إليه الأخوان بربروس. فسُرّ السلطان بذلك سرورا عظيما، وكافأهما على هذه الالتفاتة الكريمة بسفينتين مشحونتين بالسلاح والعتاد[2].

---

(1) عن سفارة بيري رئيس إلى إستانبول، انظر: مذكرات بربروس، ص 64-67؛ وانظر أيضا: كاتب جلبي، ص 27.

(2) هذا ما أورده كاتب جلبي، ص 27؛ إلا أن الأستاذ المدني ذكر بأن رسول الأخوين بربروس ذهب إلى إستانبول يطلب المدد، وأن السلطان =

كما أهدى لكل من عروج وخير الدين رئيس سيفا محلى بالماس، وخلعة سلطانية مرفقة بخطين همايونيين أحدهما إلى الأخوين بربروس، والثاني إلى سلطان تونس[1].

لم تذكر المصادر التي رجعنا إليها ما ورد في الخط الهمايوني الذي أرسله السلطان إلى الأخوين بربروس، ولكن خير الدين بربروس أشار في مذكراته إلى ملخص ما جاء في الخط الهمايوني الموجه إلى سلطان تونس الذي قرأه عليهما بحضور أشراف تونس وعلمائها. جاء فيه:

- «إلى أمير تونس. إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه. وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمَيْنا: عروج وخير الدين».

علق خير الدين بربروس في مذكراته على رد فعل السلطان الحفصي حينما رأى احتفاء السلطان العثماني به وبأخيه بقوله:

-«منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف ما يبطن لما كان يجده في نفسه من الحسد. لقد أدرك

= العثماني زودهما بـ14 سفينة تحمل عددا من المقاتلين وكميات من السلاح والعتاد. انظر: المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص171-172. ولعل المدني يقصد بذلك البعثة التي أرسلت لاحقا بعدما بايع أهالي الجزائر خير الدين سلطانا عليهم في مكان أخير عروج الذي قتل في نواحي تلمسان كما يأتي لاحقا في هذه الرسالة. أما هذه البعثة فليس فيها ما يدل على ما ذهب إليه المدني.

(1) **الغزوات**، ص 24-25؛ Hammer ,3/141.

أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أي حماية، بل قد صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم. وهكذا شرع السلطان منذ ذلك الحين في التحفظ منا والابتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان»[1].

لقد كان لهذا الاتصال أهميتان كبيرتان على مستقبل الوجود العثماني في شمال إفريقيا:

الأولى : أنها أعطت الصبغة الرسمية للعلاقة بين الأخوين بربروس والدولة العثمانية، وذلك من خلال الحماية التي قدمها السلطان العثماني للبحارة الأتراك في شمال إفريقيا بزعامة الأخوين بربروس.

الثانية : تحول العلاقة بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس من دور الحليف الناصر إلى الخصم المناوئ. حيث بدأ السلطان يجاهر بعداوته للأخوين بربروس بدافع الخوف على عرشه[2]، كما سيتضح لنا ذلك بشكل أكثر في ثنايا هذه الدراسة.

ومما لا شك فيه أن تجاوب السلطان سليم مع الأخوين بربروس كان يمثل دفعة معنوية كبيرة، تركت آثارا إيجابية في نفوس عروج وخير الدين ومن معهما من البحارة الأتراك[3]. فقد شعروا للمرة

---

(1) مذكرات بربروس، مصدر سابق، ص69.

(2) إلتر، ص49.

(3) نبيل رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث**، الرياض 1988، ص184-185.

الأولى أنهم ليسوا وحدهم في مواجهة الإسبان. وأن خذلان سلطان تونس لن يعود في النهاية بالضرر عليهما، بل سيوجد المبرر لاتباع سياسة حازمة ضده عندما تتمادى به الأنانية والحسد إلى التحالف مع لإسبان ضد بني دينه وملته، بل وتسليم بلاده للمحتل وإعلان تبعيته لهم مقابل البقاء على عرش متهالك.

ه. المحاولة الأولى لتحرير قلعة البنيون (1515)

سبقت الإشارة إلى أن أهالي مدينة الجزائر عندما رأوا سقوط وهران وبجاية في يد الإسبان، وتعرض أهاليهما للتعذيب والتقتيل والاسترقاق، خشوا أن يصيبهم ما أصاب المدينتين المذكورتين. فأرسلوا وفدا إلى إسبانيا برئاسة الشيخ سالم التومي[1]، بمشاركة وفد عن مدينتي تنس ودلس[2]، للاتفاق على شروط معاهدة تضمن لهم سلامتهم وسلامة مدينتهم. وبالفعل تمكن الوفد من عقد اتفاقية تضمنت شروطا كثيرة أهمها[3] : «**أن يدفع الأهالي جزية**

---

(1) الشيخ سالم التومي: شيخ فرع من قبيلة الثعالبة العربية. انتقلت إليها زعامة مدينة الجزائر. استنجد بالأخوين بربروس، ثم ثار على عروج سنة 1516، فأمر هذا الأخير بإعدامه. انظر الجيلالي، 3/ 39. هذا؛ وللتذكير فإن مدينة الجزائر في هذه الفترة لم يكن لها ملك يحكمها، وإنما كانت تسير من قبل مجلس محلي مكون من أعيان المدينة، يرأسه زعيم قبيلة الثعالبة العربية التي كانت تقيم في مدينة الجزائر وسهل متيجة. انظر الوزان، ص 410؛ وانظر أيضا: بن أشنهو، ص 66.

(2) نفسه، ص 68.

(3) انظر: المصدر السابق، 408-411؛ وانظر أيضا: جوليان 1-324=

سنوية للإسبان[1]، وأن يسمحوا لهم ببناء قلعة على الجزيرة المقابلة للمدينة، عرفت فيما بعد بقلعة البنيون»[2].

لقد كانت تلك القلعة تهدف إلى إخضاع المدينة ووضعها تحت مراقبة الحامية الإسبانية[3]. وعند تأخر المدينة في دفع الجزية السنوية المتفق عليها، أو نشوب أي خلاف ،كان الإسبان يقومون بقصف المدينة بمدافعهم المنصوبة على أسوار القلعة. وهكذا وجد أهالي مدينة الجزائر أنفسهم تحت حصار محكم، لا يقدرون بسببه على القيام بأي نشاط بحري دون إذن الحامية الإسبانية[4].

وفي في هذه الأثناء لم تكن انتصارات العثمانيين في أوربا وآسيا غائبة عنه. كما أن محاصرة الأتراك لبجاية مرتين وتحريرهم لقلعة جيجل كانت قد بلغتهم. ولأجل ذلك كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي يتمكن فيه الإخوة بربروس من إنقاذ مدينتهم[5].

ففي الفترة التي ندرسها كان المسلمون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي باستثناء الأسر الحاكمة ينظرون إلى الدولة العثمانية على

= الزبيري مرجع سابق، ص 32- 33.

(1) كاتب جلبي، ص 28.

(2) نفسه، ص 28؛ إلتر، ص 50؛ الوزان، 408-411.

(3) كاتب جلبي، ص 28.

(4) سيفي، ص 21.

(5) الشناوي عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، القاهرة، 1980، 2/ 901-902.

أنها دولة الإسلام الكبرى، ووارثة الخلافة في العالم الإسلامي. كما كانوا ينظرون إلى السلطان العثماني وهو يخوض الحرب ضد العالم المسيحي على أنه الأمل المرتجى في الدفاع عن الإسلام وأهله[1]. وفي هذا السياق لاحظنا تتابع الرسائل التي بعثها أعيان المسلمين إلى السلطان العثماني من الأندلس، والجزائر، والعراق، والهند، والحبشة، وليبيا... وغيرها.

وهكذا؛ فما إن بلغ أهالي مدينة الجزائر نبأ موت الملك الإسباني الثاني فرديناند الكاثوليكي سنة 1516، حتى انتهزوا فرصة انشغال إسبانيا بموت ملكها، ونقضوا المعاهدة المفروضة عليهم، وامتنعوا عن دفع الجزية[2]. وأرسلوا إلى عروج بجيجل يستدعونه لطرد الإسبان، رغم المعارضة الشديدة التي أبداها شيخ مدينة الجزائر وزعيمها سالم التومي[3].

---

(1) صواف فائق بكر، **العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ما بين 1876-1916**، القاهرة 1978، ص 23.

(2) الوزان، ص 410؛ Kazıcı,XII.s.329.

(3) المصدر السابق، ص 410؛ **الغزوات**، ص 27؛ كاتب جلبي، 28؛ الناصري: 4/ 62؛ إلتر، ص50؛ المدني، ص172؛ جوليان، ص327؛ الوزان، ص 410؛ بن أشنهو، ص 66. ويبدو أن الشيخ سالم التومي عارض نقض المعاهدة والاستعانة بالإخوة بربروس خوفا على ضياع نفوذه. وهو ما دلت عليه الأحداث التالية لدخول الأتراك. غير أنه وجد نفسه مضطرا إلى الموافقة على استدعاء عروج تحت ضغط الأهالي، فحمل إليه الدعوة بنفسه باعتباره شيخ مدينة الجزائر. انظر الزبيري=

من المرجح أن عروجا وأخاه خير الدين كانا يفكران في تحرير مدينة الجزائر، وذلك بالنظر إلى طبيعة مشروعهما الرامي إلى طرد الإسبان من الشمال الإفريقي كله، وإنقاذ مسلمي الأندلس من الإبادة الجماعية التي تنتظرهم على يد الإسبان.

ومما لا شك فيه أن عروجا كان يعلم أن الإسبان بإمكانهم احتلال المدينة متى شاءوا دون مشقة أو عناء. خصوصا وأنها تقع على مرمى مدفعيتهم المثبتة فوق أسوار قلعة البنيون المقابلة لمدينة الجزائر.

كما كان يعلم أيضا بأن سقوط هذه المدينة بالكامل في يد الإسبان سوف يمكنهم من مركز استراتيجي خطير يجعلهم إلى جانب مراكزهم ببجاية ووهران والمرسا الكبير أكثر قدرة على قمع المقاومة الإسلامية الناشئة .

ومن ناحية ثانية فإن استيلاء الأتراك على الجزائر، وهي ذات موقع بحري هام يتوسط بجاية ووهران، سوف يسهل عليهم مهمة كسر الشوكة الإسبانية وذلك بالفصل بين قاعدتيها الشرقية المتمركزة في بجاية، والغربية المتمركزة في وهران.

لقد كانت كل هذه المعطيات في ذهن عروج حينما قدم عليه وفد مدينة الجزائر في مقره المؤقت بجيجل طالبين منه القدوم عليهم لتحرير مدينتهم، ولذلك لم يتردد في قبول الدعوة.

= ص 33-35.

أعدّ عروج 16 سفينة بمدافعها وذخيرتها، وأرسلها مع نصف جنوده بحرا. وأما النصف المتبقي والبالغ عدده 800 فقد توجهوا برا إلى مدينة الجزائر. وفي الطريق انضم إليه 5.000 من رجال القبائل[1].

فدخل عروج المدينة الجزائر، حيث استقبله الأمراء والأعيان والعلماء والأهالي على مشارف المدينة مرحبين به ترحيبا حارا[2].

ذكر الأستاذ المدني أن خير الدين رئيس اشترك في فتح مدينة الجزائر إلى جانب أخيه عروج، وأورد أنه بينما سار عروج برا بقواته التي أشرنا إليها، سار هو بحرا على رأس أسطول مكون من 21

---

(1) ذكر المدني أن عدد مقاتلي القبائل الذين اشتركوا مع عروج في فتح مدينة الجزائر كان 3000 مقاتل. انظر: المدني **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 174. أما بن أشنهو فقد أشار إلى أن الشيخ ابن القاضي زعيم القبائل البربرية بجبل كوكو هو الذي أمده بهذه القوة. انظر بن أشنهو، ص 69.

(2) انظر: المدني، ص 174؛ حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، 1972، ص 82. ويجب أن نشير هنا إلى أن بعض الباحثين الأتراك ذكر أن أهالي الجزائر بايعوا عروجا سلطانا عليهم بعد دخوله إليها. انظر: Kazıcı,XII,s.329. لكن الملفت هنا أن الشيخ سالم التومي كان حتى هذا التاريخ لا يزال زعيما لمدينة الجزائر. والذي دلت عليه الحوادث التاريخية فيما بعد هو أن عروجا لم يصبح سلطانا على الجزائر إلا بعد التخلص من الشيخ سالم التومي، وغيره من معارضي الوجود التركي من أنصار الشيخ التومي وولده الذي استعان بالإسبان كما سنرى لاحقا.

سفينة، على متنها 1.500 جندي، فوصل عروج أولا، ثم لحق به خير الدين[1].

وخالف الباحثون والمؤرخون الأتراك ما أورده المدني؛ فذكروا أن خير الدين توجه إلى تونس بعد أن أرسل إلى أخيه قوة مساندة اختلف في تقديرها. فذكر صاحب الغزوات أنها مكونة من 180 جنديا[2]، بينما أشار كل من كاتب جلبي وسميح إلتر أنها كانت مكونة من 300 جندي[3]. ولكن الغريب في رواية صاحب الغزوات أنه ذكر بأن خير الدين لم يشترك مع أخيه في فتح الجزائر، ولم يعلم بغزو أخيه لها إلا عندما عاد من تونس إلى جيجل، حيث أخبره أهلها بذلك. وكان أخوه قد ترك له وصية في جيجل يأمره فيها بأن يرسل إليه المدد إلى الجزائر[4].

غير أن رواية خير الدين في مذكراته تفيد بأن عروجا تركه في جيجل نائبا عنه. وصرح أن وفد الجزائر وصل إلى جيجل حينما كان مع أخيه فيها، وذلك بعد فشل المحاولة الثالثة لفتح بجاية[5].

وكيفما كان الأمر فإن خير الدين رئيس لم يشترك مع أخيه في فتح الجزائر حسب ما جاء في المصادر التركية التي تبدو أقرب إلى

---

(1) المدني، ص 172-174.
(2) الغزوات، ص 27.
(3) كاتب جلبي، ص 29؛ إلتر، ص 51.
(4) الغزوات، ص 27.
(5) انظر مذكرات بربروس، ص 74.

المنطق والواقع، خلافا لما ذهب إليه الأستاذ المدني الذي لم يشر إلى أي مصدر قديم أو حديث يمكن الرجوع إليه.

أما الزعم بأن خير الدين لم يعلم بفتح الجزائر إلا عندما رجع إلى جيجل فهو أمر مجانب للصواب، يرده تصريح خير الدين في مذكراته بقوله:

«عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل، وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية. كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد. كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجون تدخلنا لإنقاذهم. فخرج أخي عروج في 500 بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن استخلفني على جيجل[1]».

كما أن خير الدين صرح بأنه في الوقت الذي كان فيه عروج في طريقه إلى الجزائر، توجه هو إلى تونس حيث قابل السلطان الحفصي وعاتبه على عدم تزويده لهم بالبارود في أثناء حصار بجاية[2]. كما أن المصادر التركية أشارت إلى أنه تصدى للحملة العسكرية الفرنسية التي وجهتها فرنسا إلى بنزرت وحلق الوادي مستغلة غياب عروج عنها[3].

---

(1) نفسه، ص 74.

(2) نفسه، ص 74.

(3) انظر: كاتب جلبي، ص29؛ سيفي، ص20-21؛ إلتر، ص53-54.

هذا؛ وقد ذكرت بعض الروايات أن عروجا حينما وصل إلى مدينة الجزائر توجه إلى قلعة شرشال التي تبعد عن المدينة حوالي 150 كلم ففتحها، وترك بها حامية ثم عاد إلى الجزائر فدخلها[1]. ثم لم يلبث أن لحق به أخوه الأكبر إسحاق رئيس على رأس 4 قطع بحرية مشحونة بالرجال والعتاد، ومزودة بـ15 مدفعا بعثها إليه أخوه خير الدين رئيس من تونس[2].

و. القضاء على تمرد الشيخ سالم التومي

سبقت الإشارة إلى أن الشيخ سالم التومي زعيم قبيلة الثعالبة كان يحكم مدينة الجزائر حكما استبداديا عندما انتقلت إليه مشيختها عام 1510. كما أنه عارض استدعاء الإخوة بربروس لتحرير المدينة من الاحتلال الإسباني. لكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط الأعيان عليه[3]. ولذلك فليس غريبا أن يقود هذا الزعيم أول حركة تمرد ضد الوجود العثماني في الجزائر. فهم في نظره بقدر ما كانوا سببا في طرد الإسبان، كانوا في الوقت ذاته سببا في فقدانه لرئاسة مدينة الجزائر، ويوشكون أن يفرضوا سلطانهم على سائر البلاد. وهكذا رأى فيهم كارثة حلت بسلطانه المفقود، فراح ينتظر الفرصة المناسبة لإعلان العصيان والتخلص منهم.

ولم يطل انتظار الشيخ سالم التومي كثيرا، فعندما دخل عروج

---

(1) بن أشنهو، ص 69؛ إلتر، ص 51.

(2) الغزوات، ص 28؛ سيفي، ص 22.

(3) الوزان، ص 410؛ الميلي، ص43-44؛ بن أشنهو، ص 66.

إلى الجزائر سارع إلى نصب مدافعه مقابل حصن البنيون، وشرع في قصفه لمدة 20 يوما، إلا أنه فشل في تدميره بسبب ضعف مدفعيته، ومتانة الحصن[1]. فكان هذا الفشل غير المتوقع سببا في الشعور بخيبة الأمل لدى بعض الأهالي الذين توقعوا تدمير الحصن والتخلص من الإسبان بسهولة[2]. وزاد الأمر سوءا سلوك بعض الجنود الأتراك الذين بدأوا يعاملون الأهالي معاملة فظة لم يكونوا يتوقعونها، مما أثار موجة عامة من التذمر والسخط.

استغل سالم التومي ومن والاه من الأعيان الساخطين، فشرعوا في إثارة العامة على الأتراك. وكاد الأمر يصل إلى ثورة مضادة تجمع قبيلة الثعالبة بزعامة شيخها سالم التومي، وسكان مدينة الجزائر من جهة، والإسبان المتحصنين في قلعة البنيون من جهة ثانية[3].

اتخذ عروج موقفا سريعا وحاسما من حركة التمرد، إذ سرعان ما أمر باغتيال الشيخ سالم التومي، وإعدامه بعد استفتاء علماء الجزائر في حكم الشرع في ذلك[4]. وبعد إخماد تمرد الشيخ سالم

---

(1) إلتر، ص 52.

(2) نفسه، ص 52؛ الميلي، 3/ 44.

(3) المرجع السابق، ص 52؛ المرجع السابق، 3/ 44.

(4) عن ثورة الشيخ سالم التومي وإعدامه. انظر: إلتر، ص51-52؛ الميلي، 3/ 44، وانظر أيضا: المدني **حرب الثلاثمائة سنة**، ص174-175؛ الغنيمي، 6/ 62؛ الجيلالي، 3/ 39-40.وسوف نعود إلى الحديث عن ثورة سالم التومي لاحقا في مبحث موقف القوى المحلية من =

التومي ورفاقه، بايعه أعيان المدينة وعلماؤها سلطانا على الجزائر[1].

ز. القضاء على تمرد أهالي الجزائر بعد مقتل الشيخ سالم التومي

لم يكن هدوء أهالي الجزائر سوى هدوءا يسبق العاصفة، إذ سرعان ما ثاروا مرة أخرى. ولكن هذه المرة احتجاجا على مقتل شيخهم سالم التومي. وحاولوا مبايعة ابنه يحيى بن سالم ليكون سلطانا عليهم بدلا من عروج[2]. ودبروا مؤامرة بالتواطؤ مع الإسبان المتحصنين في قلعة «البنيون». حيث اتفقوا معهم على إحراق سفن عروج الراسية في الميناء، وحينما يخرج الأتراك لإخماد النيران يغلقون أبواب المدينة في وجوههم فلا يستطيعون دخول المدينة. وفي هذه اللحظة يسرع الإسبان إلى المدينة، حيث يقوم عملاؤهم من الأهالي بفتح الأبواب لهم، ويقتلون عروجا ومن معه من الأتراك وينصبون يحيى بن سالم .

= الوجود العثماني من هذه الدراسة.

(1) الوزان، ص410 بن أشنهو، ص 70؛ وانظر أيضا:

Ahmet Asrar, *Kanuni Sultan Süleyman ve İslam Alemi*, İstanbul, (tsiz) s,48.

(2) كان يحيى ابن سالم التومي قد فر إلى الإسبان في وهران بعد مقتل أبيه، طالبا منهم التدخل بسرعة لاستعادة ملك أبيه، وطرد الأتراك من الجزائر انظر المدني، ص 176؛ الغنيمي، 3/ 62 (القسم السادس)؛ الجيلالي، 3/ 40؛ علي حلمي عبد القادر، مدينة الجزائر، 1972، ص166.

وصل خبر المؤامرة إلى عروج، فتظاهر بتجاهلها، وانتظر حتى اجتمع الأعيان في المسجد الجامع لأداء صلاة الجمعة. فأمر باعتقال 80 من رؤسائهم، وأمر بإعدامهم بفتوى من علماء مدينة الجزائر.

بعد القضاء على هذه الثورة خيم السكون على مختلف أحياء المدينة، ونواحيها[1]. ثم لم يلبث حتى أعلن سكان المناطق المجاورة لمدينة الجزائر طاعتهم وتبعيتهم[2].

ح. رد الحملة الإسبانية الأولى لاستعادة الجزائر (1516)

كان الوجود التركي في مدينة الجزائر، ومبايعة أهلها لعروج أميرا للجهاد، وسلطانا على الجزائر قد أزعج الإسبان غاية الإزعاج، وجعلهم يشعرون بأن مخططاتهم الرامية إلى احتلال سواحل الجزائر وشمال إفريقيا قد أصبحت في مهب الريح.

كما أن حلفاءهم من الزعماء المحليين المنتفعين من أجواء الفوضى التي كانت تسود الجزائر قبل مجيئ الأتراك شعروا هم أيضا بأن أيامهم أصبحت معدودة إذا ما تمكن الأتراك من مقاليد الأمور في الجزائر.

وهكذا التقت مصالح الإسبان مع مصالح هؤلاء الزعماء فقرروا توجيه ضربة حاسمة تستأصل الخطر التركي من جذوره

---

(1) المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص179؛ إلتر، ص53؛ الميلي، ص 45-46؛ جوليان، 2/ 327.

(2) الوزان ،ص410.

قبل أن يستفحل أمره حسب رأيهم.

وعليه، فإنه ما كاد عروج ينهي فتنة سالم التومي حتى سارع يحيى بن سالم التومي إلى الإسبان بوهران طالبا محرضا لهم على التدخل لطرد الأتراك والانتقام لأبيه منهم[1].

لم يتأخر الإسبان في الاستجابة لهذا التحريض، فشرعوا من فورهم في الاستعداد لغزو الجزائر بعد اتفاقهم مع أمير تنس، والتحالف مع قبيلة الثعالبة في متيجة، يساندهم في ذلك الإسبان المتحصنون في قلعة البنيون. كما وجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه يد العون. وعندما تمت الاستعدادات أصدر الكاردينال خمينيس أمرا في صيف 1516 بإرسال 35 سفينة تحمل 15.000 جندي، والتوجه إلى الجزائر لمحاصرتها، والتخلص من الأتراك[2].

وعندما وصلت القوات الإسبانية تصدّى لها الأتراك والأندلسيون، تساندهم بعض القبائل وأهالي المدينة. فاضطر الإسبان إلى الانسحاب بعد أن خلفوا وراءهم آلاف القتلى. واستولى عروج على حمولة 12.000 جمل من الغنائم تركها البدو ولاذوا

---

(1) المرجع السابق، ص 176؛ الغنيمي، 3/ 62 (القسم السادس)؛ الجيلالي، 3/ 40؛ بن أشنهو، ص 70.

(2) نلاحظ أن كاتب جلبي بالغ كثيرا في ذكر عدد السفن التي اشتركت في هذه الحملة، حيث أشار إلى أن عددها بلغ 140 سفينة. انظر: ص29.

بالفرار عندما اشتد لهيب المعركة[1].

ط. رد الحملة الإسبانية الثانية على الجزائر (1516)

لم يمض وقت طويل على فشل الحملة الإسبانية الأولى لاستعادة الجزائر، حتى عاود الإسبان إرسال حملة إسبانية أخرى.

قام الإسبان بإنزال قوات قوامها 10.000 جندي إلى الساحل، كما احتفظوا بقوات أخرى في سفنهم الأربعين التي جاءت لاستعادة الجزائر.. وعندما أرخى الليل سدوله خرج عروج خفية من أحد أبواب قلعة الجزائر في ثلاثة آلاف مجاهد، وقام بعملية التفاف حول الجبال[2] وعسكر خلف الإسبان. كانت ليلة عاصفة شديدة الظلام. لم يتمكنوا بسببها من معرفة تحرك عروج، الذي فاجأهم بهجوم مباغت فلم يستطيعوا أن يعرفوا من أين أُتوا. فبدأ الإسبان يقتلون بعضهم بعضا من هول المفاجأة. ثم قاموا بإنزال جميع من كان في السفن من الجنود إلى البر، فبلغ عددهم ما بين 20.000 و30.000 جندي. لكنهم لم يكن أحدهم يرى الآخر من شدة الظلام. واصلت القوات العثمانية والمحلية القضاء على الفرق الإسبانية. وفي آخر الليل خرج من قلعة الجزائر 2.000 مقاتل

---

(1) **الغزوات**، ص29-30؛ إلتر، ص55؛ سيفي، 23؛ كاتب جلبي، ص29. ذكر الجيلالي أن خسائر الإسبان في هذه الحملة بلغت 8000 قتيلا، و400 أسيرا. ولم يشر إلى خسائر المسلمين. انظر الجيلالي 3/ 40-41.

(2) يقصد الجبال المحيطة بمدينة الجزائر.

آخر. فشرعوا هم أيضا في إبادة القوات الإسبانية. فلم يكد النهار يطلع حتى كان الإسبان يلوذون بالفرار مخلفين وراءهم 2.700 أسير، وعدد لا يحصى من القتلى[1].

ي. عروج يبسط نفوذه على المناطق الداخلية

كانت الحملة الإسبانية تمثل أخطر تحدّي يواجه عروجا. بل لا نبالغ لو قلنا إن هذه المعركة كانت هي المحك الحقيقي لمدى صلابة القوة التركية. فلو فشل عروج في التصدي للحملتين الإسبانيتين لأمكن لنا أن نقول بأن بقاءه في الجزائر يعتبر معجزة من المعجزات. فقد رأينا كيف أحسن خصوم الأتراك من الزعماء المحليين استثمار فشل الأتراك في تدمير قلعة البنيون، جاعلين من ذلك أداة تحريض وإثارة. ولكن انتصار عروج على الإسبان أعاد الثقة في نفوس الأهالي، بل جعل سكان المناطق المحيطة يتطلعون للانضمام إليه والخضوع لسلطته.

وهكذا؛ فإنه بعد أن تمكن عروج من القضاء على تمرد الشيخ سالم التومي وكسر شوكة الإسبان، أعلن نفسه سلطانا على الجزائر، وضرب العملة باسمه، ودانت له المناطق المحيطة بمدينة الجزائر[2].

فقد استطاع عروج أن يبسط نفوذه على مدينة المدية ومليانة

---

(1) كاتب جلبي، ص29؛ سيفي، ص23؛ إلتر، ص55؛ **الغزوات**، ص29-30؛ وانظر أيضا: المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص181-183.

(2) الوزان، ص408-411؛ بن أشنهو، ص70؛ Asrar,s.48 ;Uzunçarşılı,II,s.367

وتنس[1]. بينما استولى خير الدين على دلس ونواحيها. كما اعترفت بسيادته بلاد القبائل. وساعده على ذلك ما كان بين زعماء البربر من خلاف على زعامة تلك النواحي[2]. فلم يمض وقت يسير حتى صارت إمارة الجزائر تشمل الوسط الجزائري كله تقريبا[3].

ك. تحرير قلعة تنس (1518)

في إطار الصراع على العرش الزياني، ثار الأمير يحيى الثابتي على عمه أبي حمو الثالث الذي اغتصب العرش من ابن أخيه أبي زيان الثالث الملقب بالمسعود وسجنه. وأيد الإسبان الأمير يحيى الثابتي في صراعه مع عمه، وأرسلوا إليه سفينة حربية مشحونة بالجنود، وقصدوا تنس حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها بدعوى حماية أميرها. فبعث أهاليها إلى عروج يستدعونه لتخليص مدينتهم من الإسبان ومن وعميلهم الذي اعتبروها خائنا لهم بخضوعه للإسبان.

فما كان من عروج إلا أن بعث إليهم أخاه خير الدين على رأس حملة عسكرية. وعندما وصل خير الدين إلى سواحل تنس لجأ الإسبان إلى القلعة متحصنين بها. فاستولى خير الدين على المدينة، وضرب حصارا على القلعة. إلا أن الثابتي لم يلبث أن لاذ

---

(1) الجيلالي،3/ 42؛ جوليان،327-328؛ التميمي، **أول رسالة**، ص117.

(2) الجيلالي، ص3/ 42.

(3) المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 176.

بالفرار تحت جنح الظلام بمن معه من الجنود الإسبان[1].

ل. محاولة الاستيلاء على تلمسان واستشهاد عروج (1518)

كانت تلمسان مسرحا للتنافس على الحكم بين أفراد البيت الزياني. إذ كان يتنازعه أبو حمو الثالث، وابن أخيه أبو زيان المسعود. فاتجه الأول إلى الإسبان مستنجدا بهم ليساعدوه في الوصول إلى الحكم؛ بينما التجأ أبو زيان إلى عروج طالبا نجدته وإنقاذ البلاد من التدخل الإسباني[2].

وقد أدى اعتراف الملك الزياني أبي حمو الثالث باحتلال الإسبان لوهران سنة 1512 إلى ظهوره بمظهر الخائن أمام شعبه . فأدى ذلك إلى انفضاض الناس عنه، وراحوا يبحثون عن قيادة جديدة[3]. وهكذا فما كادت الحملة الإسبانية الثانية لإعادة احتلال مدينة الجزائر تبوء بالفشل، حتى أرسل أهالي تلمسان إلى عروج يدعونه

---

(1) *Kazıcı,Xu,s.329* ؛ **الغزوات**، ص31، كاتب جلبي، **تحفة الكبار**، ص 30.

(2) انظر تفاصيل هذا الصراع في مبحث : أوضاع الجزائر قبيل الدخول العثماني من هذه الدراسة؛ وانظر أيضا: شوقي عطا الله، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، القاهرة، 1977، ص85؛ الميلي، ص 3/ 47-51.

(3) جلال يحيى، **المغرب الكبيرة**، القاهرة، (بدون تاريخ)، 3/ 16.

لتخليص مدينتهم من الوصاية الإسبانية المفروضة عليهم[1].

توجه عروج لنجدة أبي زيان. وعندما وصل إلى قلعة بني راشد بهوارة[2] اتخذ منها مركزا لحماية مواصلاته، وترك فيها أخاه الأكبر إسحاق رئيس على رأس حامية عسكرية لحماية خطوط رجعته. وأمرهم بالتضييق على الإسبان في وهران، وعرقلة تحركاتهم العسكرية حتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان[3].

عند اقتراب عروج من مشارف تلمسان استقبله أهلها استقبال الفاتحين[4]. فلما رأى السلطان أبو حمو ذلك فرَّ بما معه من ذخائر وأموال إلى فاس، قبل أن يجمع أمره على اللجوء إلى الحامية الإسبانية في وهران، محتميا بها ومستعينا بها عل استعادة عرشه[5].

أجلس عروج على عرش تلمسان السلطان أبا زيان المسعود بدلا من عمه أبي حمو الثالث. ثم حاول في سياسته نحو الإمارة الزيانية أن يوفق بين رغبته في توحيد البلاد تحت سلطة مركزية

---

(1) المطوي محمد العروسي، **السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت، 1986، ص 676؛ الزبيري، 33-35؛ الطمار، ص 229؛ الميلي، 3/ 47-51.

(2) هوارة: قلعة صغيرة تبعد عن مدينة معسكر حوالي 25 كلم، وعن مستغانم حوالي 55 كلم. تعتبر من أخصب المناطق فري غرب الجزائر. ولأجل ذلك كان الإسبان يعتمدون عليها في تأمين احتياجاتهم الغذائية.

(3) المدني، ص 187-188.

(4) الميلي، 3/ 47-51.

(5) نفسه، 3/ 47-51؛ Uzunçarşılı,II,s.367.

قوية في الجزائر، وبين بقاء الحكم الزياني في تلمسان. لكن كانت رغبته في ذلك بمثابة الجمع بين هدفين متناقضين. فلم يستقر الوضع في تلمسان سوى فترة قصيرة من الزمن، ثم عادت الاضطرابات من جديد إلى تلمسان. زادها سوءا فظاظة الجنود الأتراك في تعاملهم مع أهالي تلمسان. فكانوا بذلك قد أعادوا نفس الخطأ الذي ارتكبوه في مدينة الجزائر، حينما أساءوا معاملة أهلها؛ الأمر الذي أفضى إلى تمردهم على النحو الذي سبقت الإشارة إليه سابقا[1].

كان الإسبان يراقبون الوضع في تلمسان. وما إن رأوا تذمر الأهالي حتى سارعوا إلى التدخل بمساندة الناقمين من أنصار أبي حمو. بل لم يتردد السلطان الزياني الذي أجلسه عروج على عرش تلمسان التواطئ مع المتآمرين على ولي نعمته[2]. وهكذا استغل مثيروا الشغب خروج عروج لإخضاع القبائل المتمردة في الغرب الجزائري، وانشغاله بالتفاوض مع الوطاسيين عن إمكانية وكيفية التعاون معهم لمواجهة الاحتلال الإسباني، فأعلنوا تمردهم في الوقت الذي كان فيه عروج في غاية الضيق والحرج[3].

أمر عروج بإعدام أبي زيان الذي سبق وأن نصّبه سلطانا على تلمسان[4]. بينما توجه أبو حمو الثالث إلى وهران، واجتاز البحر إلى

---

(1) المصدر نفسه، 3/ 47-51.

(2) المدني، ص 188-189؛ Uzunçarşılı,II,s.367.

(3) خيري فارس، **تاريخ الجزائر**، ص26-27؛ جوليان، ص327-328.

(4) الميلي، 3/ 47-51.

إسبانيا لمقابلة الملك شارلكان مستعينا به على عروج[1]. فأصدر الملك الإسباني أوامره إلى حاكم وهران بأن يستعمل كل إمكانياته لإرجاع أبي حمو الثالث إلى عرش تلمسان، وإبعاد خطر الأتراك عنها ومدّه بما يحتاج إليه من رجال وعتاد وأموال.

فخرج أبو حمو على رأس جموع من الأعراب، معه فرقة من الجيش الإسباني. فداهموا أولا قلعة بني راشد حيث يرابط إسحاق رئيس. وفرضوا على القلعة حصارا شديدا إلى أن اضطر الأتراك إلى طلب الصلح بأن يأذنوا لهم بمغادرة القلعة بجميع أشيائهم وأمتعتهم، فوافق المحاصرون على ذلك. وعندما خرج الأتراك من القلعة غدر بهم الإسبان وأغاروا على إسحاق ومن معه من الأتراك فقتلوهم جميعا[2].

استولى أبو حمو على القلعة، ثم توجه بمن معه من الأعراب والإسبان إلى تلمسان فحاصرها مدة طويلة اختلف في تقديرها[3]. فخرج عروج بمن معه مقتحما الحصار تحت جنح الظلام، لكن فرقة إسبانية أدركتهم في وادي المالح واشتبكت معهم حتى قتلوا

---

(1) الوزان، ص 380-381.

(2) الراشدي، ص440؛ Hammer 3/141؛ جوليان، ص327-328.

(3) سبقت الإشارة إلى أنه اختلف كثيرا في مدة الحصار الذي فرضه الإسبان على عروج في تلمسان، ففي كتاب **الغزوات** ورد أن الحصار استمر بعد استيلاء الإسبان على قلعة القلاع 26 يوما، ص34.

جميعا[1].

أعاد الإسبان أبا حمو الثالث إلى عرش تلمسان، وعقدوا معه معاهدة تلزمه بالمحافظة على التحالف معهم، وأن يدفع لهم سنويا 12.000 مثقالا من الذهب، و12 فرسا، و6 صقور إناث. وظل ملتزما بذلك طيلة حياته. وعندما توفي آل الحكم إلى أخيه عبد الله، فامتنع هذا الأخير عن دفع الإتاوة للإسبان، وذلك ثقة منه في مساندة السلطان العثماني[2].

م. تقويم جهود عروج في التمهيد للدخول العثماني إلى الجزائر

بالرغم من قصر الفترة التي قضاها عروج في نضاله لتحرير الجزائر من الاحتلال الإسباني وتوطئة الطريق لبسط النفوذ التركي فيها، إلا أن ما حققه خلال فترة قصيرة لا تزيد عن ست سنوات (1512-1518) تجعل المرء يندهش لضخامة هذه الإنجازات التي تحتاج فعلا إلى سنوات طويلة.

فبالرغم من كون عروج بدأ نضاله مع أخيه دون أن تكون لهما أية قوة قبلية أو سياسية تسندهما[3]، إلا أنه استطاع بفضل حزمه

---

(1) الغزوات، ص 36؛ الطمار، ص 230-231؛ جوليان، ص327-328؛ التميمي، **أول رسالة**، ص 117؛ الميلي، 3/ 47-51؛ Kazıcı,XII,s.329.

(2) الوزان، ص 2/ 10.

(3) يلاحظ هنا أن دعم الدولة الحفصية في تونس للأخوين بربروس لم=

وقوة إرادته وطموحه السياسي البعيد أن يحسن استغلال الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر في هذه الفترة [1] ليؤسس دولة قوية شملت حتى استشهاده منطقة الوسط الجزائري. ممتدة من جيجل شرقا حتى مستغانم غربا، ومن البحر شمالا حتى المدية جنوبا[2]. فتمكن بذلك من رسم الطريق لخلفائه من بعده لإقامة نظام جديد في المغرب الأوسط[3].

= يزد عن السماح لهما باتخاذ قلعة حلق الوادي قاعدة لهما. أما الدولة العثمانية فإن دعمها لأتراك الجزائر لم يبدأ فعليا إلا بعد استشهاد عروج، والذي يفهم من سياق الأحداث هو أن أول مساعدة عسكرية عثمانية، وصلت إلى الجزائر متأخرة نسبيا. كما أنها كانت ذات مدلول رمزي أكثر من كونها دعما حقيقيا. أما الدعم الفعال فقد بدأ حقيقة في الفترة التي تولى فيها خير الدين زمام الأمور كما سيتضح ذلك لاحقا.

(1) فارس، **تاريخ الجزائر**، ص 26.

(2) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**. بيروت 1992، ص 162.

(3) فارس، **تاريخ الجزائر**، ص 27. بالرغم من النجاح الباهر الذي حققه عروج؛ إلا أن الدكتور محمد علي عامر يجازف بإطلاق حكم الفشل على هذا الإنجاز العظيم الذي تحقق في فترة قصيرة جدا لا تزيد عن ست سنوات. جاعلا من استشهاد عروج دليلا على فشله. دون أن ينتبه إلى أنه بهذا الحكم المجانب للواقع يوهم القارئ بأن عروجا كان مغامرا يهدف إلى بناء مجد لنفسه يتمثل في إقامة دولة خاصة به. ونعتقد أنه لو قال بأن عروجا لم يمهله الأجل حتى يتمكن من تحقيق ما كان يهدف إليه، لكان حكمه أقرب إلى المنطق. إلا أنه جازف بالقطع =

وبطبيعة الحال فإن هذا التوسع، بقدر ما كان على حساب الاحتلال الإسباني في المناطق الساحلية، فإنه كان كذلك على حساب الدولة الزيانية والإمارات المحلية في المناطق الداخلية أيضا. الأمر الذي أسهم في تأجيج نار عداوة أمراء البيت الزياني والأمراء المحليين للوجود التركي في الجزائر، الذين اعتبروه تهديدا مباشرا لوجودهم في المناطق التي لم تطأها أقدام الاحتلال الإسباني.

وتأسيسا على ما سبق؛ فقد كان الوجود التركي الذي وضع لبناته الأولى عروج، يمثل بداية النهاية الفعلية للدولة الزيانية والزعامات المحلية. والبداية الفعلية لإرساء مفهوم الدولة الواحدة الموحدة لدى الجزائريين.

وبالرغم من رغبة الأتراك في تأسيس دولة جزائرية موحدة قوية، إلا أن سياستهم كانت تقوم على مسالمة هؤلاء الزعماء، واستثمار ولائهم للأتراك لتكوين تحالف محلي ضد الإسبان الذين كانوا يمثلون عدوا مشتركا بينهما. ولكن الأحداث التي تلت استشهاد عروج أثبتت أن هذا المطمح عزيز يستحيل تحقيقه.

وكما كانت الجهود التي بذلها عروج وأخوه خير الدين بداية نهاية الدولة الزيانية؛ فإنها كانت كذلك إيذانا بزوال الاحتلال

= بالفشل كما لاحظنا. وهو منهج نرى بأنه لا يصح في تقويم حوادث تاريخية بالغة التعقيد كما هو الحال في مثل هذه الأحداث. ولمعرفة رأي محمد علي عامر، انظر ذلك في كتابه الموسوم بـ: **تاريخ المغرب العربي الحديث**، مرجع سابق، ص 47.

الإسباني كله من سواحل الجزائر وشمال إفريقيا. بدءاً من تقليص وجودهم في المدن الساحلية، وانتهاء بحصرهم في قلعة وهران والمرسا الكبير في الغرب الجزائري. فقد تمكن عروج من إنهاء الاحتلال الإسباني من المناطق التي حررها مثل: جيجل، ودلس، وتنس، وشرشال، ومستغانم، ومعسكر، وحاصر بجاية مرات عديدة. فتمكن بذلك من توجيه ضربة قوية جعلت الإسبان يتحولون من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع عما استولوا عليه من حصون وموانئ[1]. ولم يكتف عروج بذلك فحسب؛ بل استطاع أن يفشل جميع المحاولات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال المدن الساحلية التي طردوا منها.

ومن الناحية الاستراتيجية كان عروج أبعد نظرا من الإسبان الذين انحصر وجودهم وراء أسوار المدن والقلاع التي قاموا باحتلالها على طول الساحل الجزائري. بينما أدرك عروج أن عليه أن يعطي أهمية كبيرة للتوسع في المناطق الداخلية لكي يتمكن من فرض سيطرته على الساحل الشمال إفريقي، ومن ثمّ محاصرة الإسبان في القلاع التي قاموا باحتلالها.

لكن ما ينبغي ملاحظته هنا، هو أن عروجا كان يعتمد على عبقريته الشخصية، وكفاءته العسكرية العالية يسانده عدد قليل من الجنود، في مواجهة قوى استعمارية لها إمكانيات أكبر من إمكانياته

---

(1) فارس، **تاريخ الجزائر**، ص 27.

المحدودة[1]. كل ذلك كان يتم في وسط مشحون بالدسائس والمؤامرات، وفي بيئة لم تعرف الاستقرار منذ فترة طويلة. ومن ثم فلا غرابة أن يذهب عروج نفسه ضحية أحد الأمراء الذين أفرزهم هذا الجو المتعفن، والذي لم يتردد في الاستعانة بأعداء الأمس مقابل بقائه على رأس عرش قد أذن نجمه بالأفول.

وهكذا يمكننا القول أن المشروع الضخم الذي كان عروج يقوم بإرساء أسسه، كان عرضة للانهيار في أي لحظة لولم يتابع أخوه خير الدين السير على نفس الطريق بقوة ومهارة[2]. تسنده الدولة العثمانية التي لم يتسن لعروج الاستفادة من دعمها بسبب ظروف سياسية لم تكن مواتيه له، وبسبب تسارع الأحداث السياسية المتلاحقة التي اختتمت بمأساة استشهاده مع رفاقه على النحو الذي عرفناه ليبدأ فصل جديد من تاريخ الوجود التركي العثماني في الجزائر.

---

(1) نفسه، ص 27؛ فارس، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، مرجع سابق، ص 111.

(2) نفسه، ص 28؛ فارس، **المرجع السابق**، ص 111.

مرحلة خير الدين
(1543-1518)

1. مبايعة أهالي الجزائر وأعيانها خير الدين بربروس سلطانا على الجزائر

عندما وصل خبر استشهاد عروج إلى الجزائر، بايع أهالي الجزائر وأعيانها وعلماؤها أخاه خير الدين أميرا عليهم. وفي هذا الوقت الحرج وصلت إلى الجزائر أنباء تمرد الكثير من القبائل، وكذلك خروج كل من تنس وشرشال عن الطاعة. أما في تلمسان، فقد تسلم الأمير الزياني السلطة وامتد نفوذه إلى مليانة. فغدا بذلك على مقربة من الجزائر[1].

أرسل خير الدين قوات لتأديب شرشال وتنس. أما القبائل القوية فقد أخرها إلى وقت آخر ريثما يتمكن من ضبط الأمور الداخلية الناتجة عن استشهاد أخيه[2].

كان خير الدين رئيس يعلم أن دوره سوف يجيء، وأن الإسبان لن يكتفوا بقتل عروج في تلمسان، بل سوف يقومون بمهاجمة مدينة الجزائر حيث يتحصن خير الدين ومن معه من الغزاة الأتراك.

---

(1) إلتر، ص 71.

(2) نفسه، ص 71.

ولذلك فقد أمضى شتاء 1519 في الاستعداد لمواجهة الحملة الإسبانية المرتقبة. فقام بترميم قلعة الجزائر، وتصليح وإعداد 400 قطعة بحرية، بالإضافة إلى عدد كبير من المدافع التي تمكن الأهالي من الدفاع عن المدينة[1].

ب. انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية (1519)

أدرك خير الدين رئيس حراجة موقفه بعد استشهاد أخيه. فقد كان مدركا لمدى الخطر الذي يواجهه سواء من الإسبان الذين لن يكتفوا بقتل عروج، بل سوف يعاودون احتلال كامل سواحل الجزائر من جديد. كما كان على علم أيضا بمدى هشاشة البناء الذي أقامه بسبب اضطراب ولاءات الزعماء والأهالي على حد سواء. كما أن اتساع رقعة الصراع مع الإسبان، ومدى القدرة على بسط النفوذ على بلاد واسعة كالجزائر جعله يفكر في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية قبل الشروع في أي خطوة أخرى[2].

وهكذا؛ فإنه عندما فرغ من تحصين المدينة دعا علماء الجزائر، وأعيانها إلى اجتماع عام، ذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكِّنُهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه. ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكون قد انتهت. وعليهم أن يختاروا واحدا منهم يجعلوه أميرا عليهم[3]. أما هو فقد

---

(1) مذكرات بربروس، ص 90.

(2) جوليان، ص 328-329.

(3) كاتب جلبي، ص 33؛ الغزوات، 41؛ الجيلالي، 3/ 46-47؛=

قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر. فناشده العلماء قائلين:

«بأنه يتعين عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها، وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضة للعدو الكافر. وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره. والمصلحة التامة تقضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها»[1].

فلما أكثروا عليه ذكَّرهم بموقف سلطان تلمسان منه ومن أخيه، وموقف سلطان تونس الذي خذلهم في بجاية حيث منع عنهم البارود في أشد ساعات الحرب حرجا[2]. وأعلمهم أنه لم يبق له من يستند إليه بعد الله. ولذلك فإنهم إذا أرادوا حماية بلدهم فعليهم أن يعلنوا تبعيتهم للسلطان العثماني. فهو الوحيد القادر على مساندتهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجونه من عتاد. ولا يكون ذلك إلا بالدعاء له في الخطبة، وضرب السكة باسمه. وأشار عليهم أن يكتبوا للسلطان بذلك. فاستحسن أعيان الجزائر ذلك، وكتبوا رسالة باسمهم إلى السلطان؛ كما كتب خير الدين كتابا مماثلا. ثم جهز 4 سفن وجعل على رأسها الشيخ الفقيه أحمد ابن القاضي[3].

= ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ وانظر أيضا: فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، 113-114.

(1) الغزوات، ص41؛ ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ التميمي، أول رسالة، ص 119؛ الجيلالي، 3/ 46-47.

(2) ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ وانظر أيضا: العروي، **السلطنة الحفصية**، تونس، 1992، ص678-679.

(3) ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ وانظر الرسالة التي بعث بها أهالي الجزائر =

= إلى السلطان سليم الأول *Topkapı SarayıArşivi,No:6456*، راجع قسم الملاحق، الملحق رقم: (2)؛ العروي، ص 41؛ وانظر أيضا: كاتب جلبي، 33؛ *Şukran Hkkut, s.55 Uzunçarşılı,II,369; Hammer .III.142; Danişmend, II.51-52; Şerefettin Turan, Barbaros Hayreddin Paşa, DİA.V,65;*

أوزتونا، **الدولة العثمانية**، 1/ 245؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 2002، ص69. المدني، ص196-199؛ بن أشنهو، ص 143-145؛ الجيلالي، 3/ 4647؛ بوعزيز، **من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر (بدون تاريخ) ص 305-308.

هذا؛ وقد أشارت جل المصادر التي تحدثت عن الوفد الذي أرسله أهالي الجزائر أنه كان برئاسة حاجي حسين. إلا أنه بالنظر إلى متن الرسالة المرسلة إلى السلطان سليم الأول يتضح أن رئيس الوفد كان الفقيه العالم المدرس أبا العباس أحمد بن علي بن أحمد ابن القاضي كما ورد في ذيل الرسالة حرفيا. انظر الرسالة في قسم الملاحق. إلا أن الجدير بالإشارة هو أن خير الدين قد أرفق حاجي حسين مع وفد مدينة الجزائر لكي يكون ممثلا عنه ورسوله الخاص الذي حمل رسالة خير الدين إلى السلطان. وعليه؛ فإن فد مدينة الجزائر كانت فيه شخصيتان هامتان. الأولى هي: الشيخ أحمد ابن القاضي ممثلا عن أهالي مدينة الجزائر؛ والثانية: حاجي حسين ممثلا عن خير الدين ومتحدثا باسمه. وبهذا يمكن أن يزول الإشكال ويرتفع اللبس. وكيفما كان الأمر، فإنه لا مانع من أن يكون خير الدين قد بعث في فترة لاحقة حاجي حسين في سفارة تالية لمقابلة السلطان سليم الأول. ويتأكد هذا حينما نعلم أن الرسل لم تفتأ تتابع بين الجزائر وإستانبول خلال هذه المرحلة من تاريخ الجزائر. غير أن عدم وجود وثائق أرشيفية =

عندما وصلت السفارة إلى إستانبول في 1518[1]، استقبلهم السلطان واحتفى بهم[2]. وقبل عرض أهالي الجزائر. ثم أرسل 2.000 من قوات سلاح المدفعية (طوبجولر)، و4.000 من المتطوعين والانكشارية، وجاء معهم كثير من المهاجرين الأتراك. كما أعطى السلطان للجنود الذين يذهبون إلى الجزائر نفس امتيازات الانكشارية تشجيعا لهم على التطوع للجهاد فيها. أما بالنسبة لخير الدين فقد أرسل السلطان إليه السيف، والخلعة السلطانية، والسنجق وفرمانا يقضي فيه بتعيينه بيلرباي على الجزائر[3].

في الحقيقة كان إعلان خير الدين ومعه أهالي الجزائري تبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير للسلطان سليم، الذي كان يطمح إلى أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي. فقد نقل أحمد جودت باشا عن بعض كتمة سر السلطان قوله:

«... إن البحر المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد إلى بوغاز سبتة. فكيف يليق أن تجتمع فيه مدن مختلفة، ثم أنهم

= تؤيد هذا الافتراض تجعل الأمر لا يخرج عن دائرة الاحتمال والافتراض التي تبقى مفتوحة إلى أن يزول الشك باليقين، حينما تقع أيدينا على وثائق تؤيد أو تنفي مثل هذه الاحتمالات.

(1) خيري فارس، **تاريخ الجزائر**، ص 30.

(2) الشناوي، 2/ 911.

(3) **الغزوات**، ص41-44؛ كاتب جلبي، 33؛ هايدو، ص36؛ أوزتونا، **الدولة العثمانية**، 1/ 253؛ الجيلالي، 46-47؛ جوليان، ص328-329؛ *Asrar*,s 48; Kazıcı, XII,s.329-330.

لا يكونون تحت حكم الدولة العلية. فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية هو من قصور الهمة المزري بشأن الدولة. إني آليت على نفسي وعاهدتها إن مد الله في عمري أني أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشئ الأساطيل الكافية لنيل المرغوب، وأستولي على ثغور البحر المتوسط»[1].

بل تذكر بعض المصادر أن السلطان كان يعتزم السير بنفسه إلى المغرب، ولكن الأجل لم يمهله[2].

وهكذا أثبت خير الدين بقرار ضم الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية عبقريته السياسية بعدما اثبت عبقريته العسكرية في معارك التي خاضها ضد الممالك الأوربية عامة وإسبانيا خاصة. وبهذا القرار الحكيم لم يحظ بتأييد الأهالي فحسب، بل حاز على تأييد السلطان نفسه حيث لم يتردد في تقديم دعمه غير المشروط لخير الدين فور وصول الوفد إلى إستانبول[3].

ت. أسباب انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: ما الأسباب التي جعلت خير الدين يعجل بطلب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية

---

(1) أحمد جودت باشا، **تاريخ جودة**، ترجمة عبد القادر أفندي، بيروت، 1890، 1/ 146.

(2) المصدر نفسه، 1/ 45.

(3) انظر: حسين مؤنس، 3/ 163؛ جوليان، ص 328-329.

بالرغم من أن الكثير من أمثاله يجنحون إلى الاستقلال بما تحت أيديهم من ملك وسلطان؟ ولماذا أكد ذلك بإرسال وفد لهذا الغرض إلى السلطان سليمان القانوني؟

إن الباحث حينما يدقق النظر في طبيعة الصراع الدائر في هذه الرقعة الملتهبة من العالم الإسلامي تلوح له عدة أسباب ودوافع أسهمت بشكل أو بآخر في الإسراع بطلب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية. وهذه الأسباب يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

1. إدراك خير الدين لمحدودية قدراته العسكرية بالمقارنة مع الإمكانيات الهائلة التي يملكها الإسبان، والتي جعلت منهم دولة قادرة على خوض العديد من الحروب في إسبانيا وشمال إفريقيا ضد المسلمين، وفي أوربا ضد البروتستانت، وضد ملك فرنسا منافس شرلكان على زعامة أوربا، فضلا عن تقديم مختلف أشكال الدعم للنمسا لكي تتمكن من التصدي لحملات العثمانيين في شرق أوربا.

2. إن معرفة خير الدين لموازين القوى في الصراع الإسلامي - المسيحي جعلته يرجح ضم جهده إلى أقوى دولة إسلامية في ذلك العصر، أي الدولة العثمانية. فهي وحدها التي كانت مؤهلة لقبول ضم الجزائر إلى ممتلكاتها، وبالتالي: حمايتها بدعمها بالمال والعتاد والرجال عندما يقتضي الأمر ذلك[1].

---

(1) ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ وانظر أيضا: التميمي، أول رسالة من =

3. تخوفه من الزعماء المحليين في الجزائر. سواء كانوا أمراء أو شيوخ قبائل أو أعيان مدنٍ[1]. فقد رأى من خلال سابق تجربته معهم مدى استعداد هؤلاء الزعماء للثورة والتمرد عند أول فرصة تتاح لهم. كما أدرك مدى قدرتهم على تهييج العامة ضد الأتراك مستعملين سلاح الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى. والأسوأ في هذا كله، استعداد الكثير منهم للارتماء في أحضان الإسبان، حتى ولو كان ذلك على حساب الدين والوطن. وطالما أن حكام الشمال الإفريقي في هذه الفترة كانوا على هذه الشاكلة، فلا غرابة أن يرتاب في الولاءات الفورية التي كان يبديها هؤلاء الزعماء، لينقضوها بنفس السرعة عندما تتاح لهم الفرصة!!.

وعلى هذا فإن سعي خير الدين لجعل الجزائر إيالة عثمانية، إنما كان يرمي إلى البحث عن صمّام أمان في وجه أي حركة تمرد أو غدر يمكن أن يقوم بها الزعماء المحليون في أثناء انشغاله بأعداء الخارج.

= أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519، المجلة التاريخية المغربية، العدد، 5، سنة، 1976 ص99، القسم الفرنسي. والوثيقة توجد بأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول تحت رقم: 6456. انظر قسم الملاحق من هذه الدراسة، وانظر أيضا:

Ahmed Akgündüz, Belgeler Gerçekleri Konuşuyor, İstanbul, sh,14-18.

(1) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، ص 35.

4. عدم وجود قوة إقليمية في منطقة الصراع (شمال إفريقيا)

يمكن التحالف معها، أو حتى الانضمام إليها لمواجهة الخطر الإسباني. فالمغرب كان يعيش في أزمات داخلية عرفنا بعضها في مدخل هذه الدراسة، وتونس رغم كونها كانت تعيش استقرارا نسبيا في السلطة. إلا أن سلطانها كان قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزا عن فرض سلطانه على ما تحت يده من البلاد، فضلا عن أن يكون قادرا على حماية الجزائر. فقد احتل الإسبان بجاية، وعنابة، ودلس، ومدينة الجزائر. وهي كلها كانت مُدُنًا تابعة إداريا وسياسيا للدولة الحفصية خلال الفترة التي نقوم بدراستها. ومع ذلك لم يتخذ السلطان الحفصي أي خطوة جدية للدفاع عنها وطرد الإسبان منها. بل رأينا كيف أنّ تخوفه من انتصار الأتراك دفعه للامتناع عن تزويدهم بالبارود لتحرير بجاية التي كانت تدخل ضمن ممتلكاته. وسوف نرى لاحقا كيف أن هذا السلطان لم يتردد في تحريض الزعماء المحليين على الثورة على خير الدين[1]؛ بل قام بالتواطؤ مع الإسبان أثناء حملتهم على تونس سنة 1534[2].

---

(1) لمعرفة الدور الذي لعبه السلطان الحفصي في التحريض ضد الوجود العثماني في الجزائر انظر المباحث الخاصة بثورة ابن القاضي وقارة حسن، وكذا ردود الأفعال الدولية عن الدخول العثماني إلى الجزائر من هذه الدراسة.

(2) العروي، **السلطنة الحفصية**، تونس، 1990، ص 378-679.

ث. نتائج انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية

حقق انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية أهدافا سياسية وعسكرية كثيرة أهمها تأمين حدود مصر الغربية، وتوسيع ممتلكات الدولة العثمانية دون أن تتحمل أية تبعات عسكرية أو مالية كبيرة كما تحملت ذلك في مصر والشام[1].

كما جعلت الدولة العثمانية من الجزائر ولاية ذات وضع خاص، فعُرِفت بناء على ذلك بنيابة الجزائر. ذلك لأن طبيعة موقعها وظروفها حولتها إلى قاعدة للوجود العثماني في غرب البحر المتوسط[2]. فصارت تبعا لذلك مسؤولة عن إدارة شؤون الحكم في طرابلس الغرب، في المرحلة الأولى من الوجود العثماني في شمال إفريقيا. كما أوكلت إليها مهمة إلهاء الإسبان عن المشاركة في حروب أوربا ضد الدولة العثمانية في المجر والنمسا[3]، وذلك بالتصدي للعدوان الإسباني على سواحل شمال إفريقيا، وتأمين عمليات إنقاذ المسلمين في الأندلس.

كما كان من أثر ذلك أن سادت موجة عامة من الرعب في أوربا،

---

(1) إلتر، ص 73.

(2) ابن غلبون، **التذكار**، ص100؛ وانظر أيضا: بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحاضر**، ص 26.

(3) يحيى بوعزيز، **من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر 1984، ص 45.

خصوصا في إسبانيا عند إعلان انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية. لأن هذا الانضمام كان يعني بالنسبة لها وصول الخطر العثماني ليس لتهديد قواعدها العسكرية المتناثرة في شمال إفريقيا فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تهديد وجودها في الأندلس التي ما زال هاجس إعادة فتحها من طرف الأتراك العثمانيين يلوح لهم في كل حملة يقوم بها الغزاة[1]. بل وتأكد هذا الرعب حينما عزم السلطان سليمان القانوني على فتح روما، بعد استيلائه على مملكة نابولي. فأرسل لأجل ذلك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس لاحتلال أولونيا الواقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي، وذلك سنة 1537[2].

ومنح خير الدين بعد لقائه بالصدر الأعظم إبراهيم باشا في حلب لقب بيلرباي، وهو أرفع المناصب السياسية في الدولة العثمانية والذي كان بمثابة نائب السلطان على تلك المناطق. لقد كان هذا المنصب يخوله مسؤوليات إدارية واسعة، وتجعل منه قائدا عاما للجيش، وممثلا للسلطان في إقليمه[3].

---

(1) المدني، 205.

(2) Danişmend,II.s.192.

(3) يرى بعض الباحثين أن الجزائر أصبحت إيالة عثمانية اعتبارا من سفر خير الدين بربروس إلى إستانبول بدعوة من السلطان سليمان القانوني له سنة 1533. انظر: عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، ص 47؛ إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية**، مرجع سابق، ص 109. إلا أن التدقيق في الحوادث التاريخية الخاصة بهذه المرحلة يجعلنا نعتقد بأن هذا الرأي ليس بوجيه. وذلك لأن الجزائر تم ضمها إلى الدولة =

إن الأحداث التي كانت تعيشها هذه المنطقة الحساسة من غرب المتوسط تتطلب شخصية قوية ذات صلاحيات كبيرة، تمكنها من إصدار القرارات الحاسمة والعاجلة في مجال الصراع المسلح مع إسبانيا. وقد تفهمت الدولة العثمانية هذه الظروف، وتعاملت معها بمرونة كبيرة كما هي سياستها مع الكثير من الإيالات التابعة لها في ذلك العصر[1].

= العثمانية بعد وصول وفد يمثل أهالي مدينة الجزائر إلى إستانبول برئاسة الشيخ أحمد ابن القاضي كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وتم قبول عرض أهالي الجزائر. وأرسل السلطان سليم الأول مع مبعوث خير الدين حاجي حسين فرمانا تعيينه بيلرباي على الجزائر. وحينما ننظر في ذيل الرسالة التي أرسلها إلى أهالي الجزائر إلى السلطان، فإننا نجدها مؤرخة في سنة 924هـ وهو ما يوافق 1519 م. وأما الذي حدث في أثناء زيارة خير الدين سنة 1533 بناء على دعوة السلطان سليمان القانوني، فإنما كان تأكيدا لولايته كبيلرباي على الجزائر، بالإضافة إلى منصبه الجديد المتمثل في القيادة العامة للأسطول العثماني. ولأن خير الدين هو أول وال عثماني يتولى منصبين على هذا القدر من الحساسية والخطورة في وقت واحد؛ فقد كان يحتاج إلى إصدار فرمان سلطاني آخر يؤكد ولايته للجزائر، دفعا للبس وقطعا للقيل والقال التي بدأ بعض الوزراء الحاسدين يتحدثون بها. إذ لم يترددوا أن همسوا في آذان بعضهم بعضا بأن السلطان قد ولى قرصانا على الأسطول العثماني.. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: مذكرات خير الدين بربروس، ص 171.

(1) فارس، **تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، ص30. هذا؛ وقد صنفت الجزائر إداريا خلال هذه الفترة ضمن ما كان يعرف بـ: **مستثنى أيالتلر** =

ولا خلاف في أن انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية يمثل بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر. فقد شهد هذا العصر ميلاد دولة

= *MÜSTESNA EYALETLER*. (أي: **الولايات الاستثنائية**) وتتميز هذه الولايات باستثنائها من الأحكام العمومية التي تنظم بقية الولايات التابعة للدولة. وهذه الولايات هي: مصر، اليمن، الحبشة، البصرة، بغداد، طرابلس الغرب، تونس، الجزائر.

وأهم ما يميز هذه الولايات أنها لم تكن مقسمة وفق التقسيم الإداري الذي كان معمولا به في بقية والولايات الأخرى. كما أن الأراضي الزراعية لم تكن منظمة وفق التنظيمات العامة التي كانت مطبقة في الولايات الأخرى. فلم يكن فيها ما يعرف بأراضي التّمار (الإقطاع) و(الزعامة) و(الاختصاص) التي كانت تمنح للقيادات المحلية. بل روعيت النظم المحلية التي كانت موجودة في تلك الولايات قبل إلحاقها بالدولة العثمانية، وأبقي عليها كما كانت من قبل، طالما أنها لا تتعارض مع الأطر العامة للقوانين العثمانية.

وهذا الاستثناء يعود إلى أن تلك الولايات كانت تمتاز بخصوصيات خاصة: كأن يكون معظم أهاليها يتكونون من قبائل رحّل، أو يتشكلون من أديان ومذاهب شتّى، أو أن تلك الولايات كانت تتمتع بموقع استراتيجي خاص، أو أنها تقع على مسافة بعيدة جدا عن مركز الدولة إلى غير ذلك من الأسباب الخاصة. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر مداخلتنا في الملتقى الدولي حول «العلاقات التركية الجزائرية منذ الفترة العثمانية حتى اليوم» المنعقد نظمته جامعة إستانبول في 27 ديسمبر 2012، والتي كان عنوانها: **تأسيس إيالة الجزائر** . وانظر أيضا:
Mithat Sertoğlu, *Osmanlı Tarih Lûgatı*, İstanbul 1986, s.106-234.

جزائرية جديدة ممتدة تقريبا على نفس الحدود الجغرافية التي تمتد عليها الآن. فتحققت بذلك الوحدة السياسة والجغرافية للدولة الجزائرية الناشئة على نحو لم يحدث من قبل. الأمر الذي أفضى لاحقا إلى بروز الأهمية السياسية والعسكرية للجزائر خلال الفترات اللاحقة من هذا التاريخ، باعتبارها لاعبا إقليميا يساهم في صناعة السياسة الدولية لغرب البحر المتوسط.

ومن جهة أخرى أدى بروز الجزائر على ساحة الأحداث الدولية في ذلك العصر إلى جعل شارلكان يتخبط في سياسته الدولية بين الاستمرار في تثبيت وجوده في أوربا، وتصديه لحروب البروتستانت وفرنسا، وبين التفرغ الكامل للمسألة الجزائرية التي تؤرقه بغارات بحارتها على السواحل الإسبانية وسائر السواحل الأوربية المطلة على البحر المتوسط[1].

كما كان من أثر انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية أن أهالي طرابلس الغرب عندما رأوا الدعم المادي والمعنوي الذي حظي به أهالي الجزائر نتيجة لانضمام بلادهم إلى الدولة العثمانية، أن بعثوا في سنة 1519 وفدا عنهم يعرضون فيه تبعيتهم للسلطنة العثمانية، وذلك بغية تخليصهم من الاحتلال الإسباني. فاستجاب لهم السلطان العثماني، وعين لهم واليا يدعى مراد آغا لمعرفته باللغة العربية[2].

---

(1) نفسه، ص 41.

(2) تيسير بن موسى، **المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني**، طرابلس 1988، ص16. ويلاحظ هنا أن الباحث أتوري روسي متردد في=

ج. التصدي للحملات الإسبانية وبسط النفوذ العثماني :

1. التصدي للحملات الإسبانية على الجزائر سنتي 1519- 1520

فزعت إسبانيا لانضمام الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية، لأن ذلك كان يعني بالنسبة لها وصول الخطر العثماني إلى سواحلها. ولذلك فقد اتفقت مع حليفها أبي حمو الزياني ملك تلمسان على الاشتراك في غزو الجزائر، بحيث يهاجمها الإسبان من البحر، بينما

= قبول صحة هذه الرواية، مدعيا أن مراد آغا الذي كان مساعدا لخير الدين وصل بين عامي 1539 و1542 إلى تاجوراء بسفينتين تحملان 300 جندي تركي. انظر أتوري روسي، **ليبيا من الفتح العربي حتى 1911**، ترجمة خليفة التليسي، بيروت 1974، ص 169. بينما يذكر المؤرخ الليبي ابن غلبون تاريخا متأخرا عن الذي أورده كل من تيسير بن موسى، وأتوري روسي. فقد أشار إلى أن قدوم مراد آغا كان في 1555. انظر ابن غلبون، **التذكار**، مصدر سابق، ص 100. ولا نرى تعارضا بين هذه التواريخ، لأن مراد آغا استقر أولا في تاجوراء باسم الدولة العثمانية، وشرع في مقاومة فرسان القديس يوحنا الذين طردوا من جزيرة مالطا، فمنحهم شرلكان طرابلس بوساطة من البابا. ولم يتم فتح طرابلس إلا في 1551 على يد سنان باشا. انظر تيسير بن موسى، ص 16؛ كوستانستو برنيا، **طرابلس من 1510 إلى 1850**، تعريب خليفة محمد التليسي، مصراتة، ليبيا، 1985، ص 32؛ وانظر أيضا بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث**، ترجمة عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1991، ص26-27.

تقوم القوات الزيانية بمهاجمتها من البر[1].

وصلت الحملة الإسبانية التي كانت مشكّلة من 40 سفينة على متنها خمسة آلاف مقاتل[2]، يقودها «هوجو دي منكاد» *HUGO DE MONCADE* الذي كان نائبا عن ملك صقلية. فتصدى لها خير الدين بقواته التركية والمحلية، بعد أن استدرجوا الإسبان للنزول إلى البر[3]. ثم مفاجأتهم بقطع خطوط إمدادهم الخلفية مستغلين الاضطراب الذي أصاب الإسبان بسبب تأخر وصول قوات أبي حمو الزياني، والاختلاف الذي نشب بين قائد الحملة ونائبه. فانتهت الحملة بهزيمة كبيرة أجبرت الإسبان على الفرار مخلفين وراءهم آلاف الأسرى والقتلى[4].

---

(1) المدني، ص 272.

(2) لم تتفق المصادر التي أشارت إلى هذه الحملة على عدد المراكب التي استخدمت، أو عدد الجنود الذين اشتركوا في هذه الغارة. فبينما ذكر المدني، ص205-211، وإلتر، ص75-78، وبن أشنهو، ص117-119 بأن عدد المراكب كان ما أشرنا إليها، إلا أن كاتب جلبي أشار إلى أن عدد المراكب بلغ 70 مركبا، على متنها 20.000 جندي، مضافا اليهم 3.000-4.000 تم أخذهم من وهران. انظر، ص 31.

(3) ذكر كاتب جلبي أن عدد الذين تصدوا للحملة الإسبانية كان 600 جندي من الأتراك، و20.000 من العرب. انظر ص 30.

(4) انظر تفاصيل المعركة في كاتب جلبي، ص31؛ المدني، ص205-211؛ إلتر، ص 75-78؛ بن أشنهو، 117-119؛ محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في أخبار الأمير عبد القادر**، الجزائر، بدون تاريخ، ص 94؛ الجيلالي، 3/ 45.

بعد فشل الحملة الإسبانية الأولى التي قادها هوجو دي منكاد على الجزائر، جهزت إسبانيا حملة أخرى سنة 1520 مكونة من 110 قطع بحرية، يقودها نائب الإمبراطور شرلكان على صقلية الأميرال فرديناند. إلا أنها منيت بهزيمة كبيرة عندما تعرض لها خير الدين بربروس بهجوم معاكس أثار الاضطراب في قيادة الأسطول الإسباني. وغدت السفن الإسبانية تصطدم ببعضها، وتتجه اتجاهات مختلفة. وأسفرت الحملة الفاشلة عن أسر القائد فرديناند مع ستة وثلاثين قبطانا وثلاثمائة بحار إسباني. غير الآلاف من الأسرى والسفن التي أغرقت أو استولي عليها[1].

2. إعادة بسط النفوذ العثماني في الجزائر والقضاء على حركات التمرد

لقد كان الإسبان يعتبرون أخطر القوى الأجنبية التي تهدد الجزائر والوجود العثماني فيها. كما أن الزعماء المحليين وسلطاني تونس والمغرب لعبوا دورا كبيرا في إثارة مختلف حركات التمرد الشعبية ضد العثمانيين. إلا أن التصدي لهؤلاء جميعا لم يكن ليتحقق قبل تمتين الوحدة الداخلية، بإخضاع المناطق الخارجة عن الطاعة. ثم التفرغ لإجلاء الإسبان الذين ما زالوا يحتلون بجاية ووهران والمرسى الكبير. ويعملون على تحريض الزعماء المحليين على الثورة والتمرد.

---

(1) إلتر، ص 78-79.

وهكذا فإن خير الدين باشا ما إن تمكن من رد الحملتين الإسبانيتين على الجزائر، حتى توجه إلى تنس التي خرجت عن طاعته فور علمها بمقتل عروج. فلم يتردد سلطانها في الاستنجاد بالإسبان الذين قاموا بمساندته بخمس عشرة سفينة أرسلوها إليه. إلا أن خير الدين استطاع أن يتصدى لها، ويستولي على تنس مخلفا وراءه حامية لحراستها قبل أن يعود إلى الجزائر[1].

وفي الوقت الذي كان فيه خير الدين مشغولا بإعادة تنظيم أمور الجزائر، والتصدي للحملات الإسبانية قام سلطان تلمسان بتوزيع الأموال على زعماء القبائل والأمراء المحليين الموالين له وإثارتهم للخروج عن طاعة خير الدين. فسار هذا الأخير إلى تلك المناطق وقام بإعادة إخضاعها ثم العودة إلى الجزائر[2].

- **إخضاع تلمسان**

قبل الحديث عن إعادة فتح تلمسان، من المفيد التذكير بأن عروجا عند دخوله تلمسان قام بإطلاق سراح أخوين للسلطان أبي حمو الزياني كانا محبوسين في سجونه. أحد الأميرين السجينين كان يدعى عبد الله، والآخر يدعى المسعود. وبعد إطلاق سراحهما لجأ كل منهما إلى فاس واستقر بها.

وحينما قتل عروج وجلس أبو حمو مرة أخرى على عرش

(1) كاتب جلبي، 32.

(2) **الغزوات**، ص 45.

تلمسان بدعم من الإسبان، لجأ أخوه الأمير عبد الله إلى وهران ملتمسا دعم الإسبان في مطالبته بعرش تلمسان، بينما لجأ الأمير مسعود إلى خير الدين طالبا منه نصرته على أن يكون حليفا وتابعا له.

وافق خير الدين على مساندة الأمير مسعود، وأرسل كتابا إلى زعماء القبائل العربية في الغرب الجزائري يدعوها إلى خلع سلطان تلمسان أبي حمو الزياني، ومبايعة أخيه المسعود. فأجابوه إلى ذلك، واجتمع للمسعود عشرون ألفا منهم، بالإضافة إلى قوات تركية كان خير الدين قد بعثها إليه. فسار بها جميعا إلى تلمسان التي فر منها سلطانها أبو حمو عندما رأى قوات أخيه المدعومة بالأتراك. فدخل المسعود وجلس على عرش تلمسان تابعا لخير الدين[1].

غير أنه لم تمض فترة وجيزة حتى أعلن المسعود انقلابه على خير الدين واستقلاله عنه. فما كان من الأمير عبد الله إلا أن سارع إلى خير الدين عارضا خضوعه وتبعيته له مقابل نصرته على أخيه. انتهز خير الدين هذا الصراع القائم بين أفراد البيت الزياني لاستثماره في فرض سلطانه على تلمسان، وتفويت فرصة تدخل إسبانيا لدعم أحد أطراف الصراع لصالحها، وأعلن دعمه للأمير عبد الله ضد أخيه المسعود على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني[2] ولكن ما كاد خير الدين يغادر تلمسان حتى أقبل المسعود في جيش

---

(1) المصدر السابق، ص 47.

(2) نفسه، ص 47.

من أنصاره، وفرض حصارا شديدا على تلمسان استمر 3 أشهر. فأرسل على إثر ذلك خير الدين قوات لمساندة حليفه المحاصر في تلمسان. فتمكنت القوات العثمانية من فك الحصار عن تلمسان والقضاء على قوات المسعود، وأسره، ووضعه في السجن حيث لقي حتفه فيه[1].

• تحرير مستغانم وقلعة بني راشد مرة اخرى

كانت قلعة مستغانم قريبة من تلمسان، وقد خضعت للإسبان منذ استيلائهم على وهران والمرسا الكبير عام 1506. فقرر خير الدين الاستيلاء عليها لتمهيد الطريق للأمير عبد الله حتى يتمكن من التحرك منها في طريقه إلى تلمسان. فوجه خير الدين 28 سفينة لفتح مستغانم، على متنها قوات كبيرة من الجنود والعتاد. وفرض عليها حصارا بريا وبحريا حتى اضطرها إلى التسليم بعد فترة قصيرة من محاصرتها[2]. وبعد فتحها جعلها الأمير عبد الله مقرا مؤقتا له، بينما توجهت فرقة من الأتراك إلى قلعة بني راشد التي أعاد الإسبان احتلالها بعد مقتل إسحاق رئيس، فتم فتحها بسهولة.

كانت قلعة بني راشد تمثل حلقة وصل بين وهران وتلمسان عبر الطرق البرية الداخلية، بينما كانت مستغانم تقع عبر الطريق الساحلي. وهكذا يكون خير الدين قد قطع عن تلمسان خطوط

---

(1) كاتب جلبي، 34.

(2) نفسه، ص 33.

الإمداد الإسباني من البر والبحر. ولذلك فإنه عندما تمكن من فتح قلعة بني راشد توجهت القوات التركية إلى تلمسان فاقتحمتها ليلا بعد الاتفاق مع الأهالي على فتح أبواب المدينة. وتمكن المسعود من النجاة بنفسه مع مائتين من فرسانه[1]، قبل أن يقبض عليه ويلقى في السجن حيث لقي حتفه كما سبق ذكره. أما الأمير عبد الله فقد جلس على عرش تلمسان معلنا تبعيته للدولة العثمانية، حيث أمر بسك العملة باسم السلطان سليم خان، وقراءة الخطبة باسمه في المنابر[2].

• القضاء على ثورة ابن القاضي وقارة حسن (1521)

كان الشيخ أحمد بن القاضي أحد علماء الدين، تولى القضاء في بجاية للحفصيين فترة من الزمن قبل أن يقوم الإسبان باحتلالها. ثم انتقلت إليه زعامة القبائل البربرية ببلاد زواوة سنة 1511. كما كان أحد الزعماء المحليين الذين دعوا الأخوين بربروس للتدخل لتحرير بجاية من الاحتلال الإسباني، واشترك معه في حصارها[3]. إن الموقف المساند للأتراك من الطبيعي أن يجعله مقربا من خير الدين وأن يكون من أوثق الناس به. ولأجل مكانته عند خير الدين اختير ليكون على رأس الوفد الذي أرسله أعيان مدينة الجزائر لمقابلة

---

(1) **الغزوات، ص 49**؛ **كاتب جلبي**، المصدر السابق، ص 33.

(2) **المصدر السابق**، ص 49.

(3) المدني، 211- 214؛ بن أشنهو، ص 147-148؛ التميمي، أول رسالة، مصدر سابق، ص 118.

السلطان العثماني في إستانبول، عارضين عليه حماية بلدهم وإلحاقها بالدولة العثمانية[1]. وفي هذا المعنى يقول المؤرخ المغربي محمد الصغير الوفراني مبينا السبب الذي جعل ابن القاضي يستدعي الأتراك لتحرير بجاية:

«... ولما رأى (ابن القاضي) قوة شوكة النصارى الكفار وانتشارهم في المغرب وضعف مقاومتهم، كاتب الترك، وعرَّفهم عزة هذه البلاد، لِمَا سمع من شدة الأتراك في المعارك، ونجدتهم في الحروب والمضايق[2]، وإرهابهم الكفرة. فقصَد بحسن نية أن يرفعوا من عزة الإسلام ما انخفض، ويقووا من أمره ما ضعف..»[3].

وعندما انتقلت إمارة الجزائر إلى خير الدين، كافأه على جهوده بأن جعله واليا على القسم الشرقي للجزائر حتى حدود المملكة الحفصية[4]. بينما عين على المنطقة الغربية زعيما محليا يدعى محمد بن علي[5].

---

(1) نفسه، ص 118.

(2) لعله يشير إلى حملات الأتراك التي قاموا بها لنجدة مسلمي الأندلس ونقلهم عبر مضيق جبل طارق الذي تسميه المصادر التركية مضيق سبتة.

(3) الوفراني، محمد الصغير، **نزعة الحادي بأخبار القرن الحادي**، إنجي، المغرب 1888، ص17.

(4) بن أشنهو، ص 148.

(5) يلاحظ أن هذا ثاني تقسيم إداري يقوم به الأتراك بعد دخولهم إلى =

وفي الوقت الذي كان فيه خير الدين يحاول تثبيت وجوده في الجزائر، لكي يتفرغ بعد ذلك لطرد الإسبان من مدنها الساحلية، راسل السلطان الحفصيُّ أحمدَ بن القاضي محرضا له للثورة على خير الدين، واعدا إياه بأن يكون معه يدا واحدة ضد الأتراك[1]. إلا أن الشيخ أحمد ابن القاضي رفض ذلك ورد على السلطان الحفصي يوبخه على هذه الخيانة. متسائلا عن الداعي الذي جعله يكيد لخير الدين على هذا النحو وهو الذي جاء لنصرة المسلمين ومجاهدة الكفار[2].

ثم لم يلبث ابن القاضي أن توفي، وولي إمارة كوكو ابن له يحمل نفس اللقب العائلي الذي اشتهرت به عائلة ابن القاضي[3]. فكاتبه السلطان الحفصي مرة أخرى محرضا له للثورة على الأتراك، واعدا إياه بالدعم والمساندة. بل أغراه بأنه يقوم بمهاجمتهم من الشرق

= الجزائر. وقد سبقت الإشارة إلى أن التقسيم الأول كان في عهد عروج حيث قسم البلاد المفتوحة إلى قسمين، جاعلا من أخيه خير الدين شرق الجزائر، واختص نفسه بالقسم الغربي منها. المدني، ص 211.

(1) مما جاء في رسالة السلطان الحفصي التي بعثها إلى الشيخ ابن القاضي قوله: «**لنكن أنا وأنت يدا واحدة لاستئصال شأفة الأتراك، ونطرد خير الدين من الجزائر. فأكون أنا سلطانا عليها مكانه، ووقتها سوف أغدق عليك أموالا طائلة**..». انظر: مذكرات بربروس، مصدر سابق، ص 109.

(2) نفسه، ص 109.

(3) نفسه، ص 109.

بينما يهاجمهم ابن القاضي من الجنوب. وقارة حسن من الغرب. وهكذا يجد خير الدين نفسه بين كفي كماشة، ولن يكون في وسعه سوى التسليم بالأمر الواقع ومغادرة الجزائر إلى الأبد ليخلو الجو لابن القاضي لكي يجعل من نفسه سلطان على الجزائر. فوافق ابن القاضي على إعلان ذلك وأعلن تمرده بعدما راسل البحار التركي قارة حسن، الذي وعده بأن يجعله قائدا للأسطول وواليا على غرب الجزائر[1].

وفي هذه الأثناء أرسل السلطان الحفصي قواته للإغارة على المناطق التابعة لخير الدين في شرق الجزائر. فوجه خير الدين إليه قوات لصدها. وتمكنت بالفعل تحقيق انتصار ساحق عليها وأسر السلطان الحفصي. إلا أن خير الدين قدّر بأن إطلاق صراحه والعفو عنه سوف يظهره بمظهر النبيل الذي يعفو عند المقدرة[2].

وبينما كان خير الدين منشغلا قافلا إلى الجزائر بعد انتصاره على القوات الحفصية، إذا به يفاجأ بهجوم مباغت تشنه عليه قوات ابن القاضي من كل جانب. وبسبب شدة المفاجأة وسرعة المباغتة التي لم يكن يتوقعها خير الدين من ابن القاضي، فقد الأتراك في هذه المعركة 750 بحارا، ولم يتمكن من الانسحاب إلى الجزائر إلا بصعوبة بالغة. ووجد الأتراك أنفسهم بين نارين كلفتهم خسائر كبيرة. ولم ينج منهم سوى عدد قليل تمكنوا من الانسحاب مع

---

(1) الغزوات، ص45؛ وانظر أيضا: كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص33.
(2) مذكرات بربروس، ص 109.

خير الدين إلى الجزائر بصعوبة بالغة[1].

علق خير الدين على هذه الحادثة التي تركت في نفسه إحساسا بالمرارة قائلا:

«لقد كان تقديرا إلهيا، حيث هزمت ملك تونس وقمت بأسره، ولم أتمكن من الانتصار على أعرابي مثل ابن القاضي!»[2].

استطاع ابن القاضي أن ينتهز هذا الوضع الجديد ويستولي على النواحي الشرقية للجزائر. بل تمكن من إثارة سكان الجبال، وأعيان بعض مدينة الجزائر ضد الأتراك فانتشر التمرد في سائر المناطق التي كانت خاضعة لخير الدين[3].

وأمام تقلص نفوذ خير الدين في شرق الجزائر ووسطها، وتذبذب سلطان تلمسان، وعدم اطمئنانه على نفسه وعلى القوات العثمانية القليلة التي كانت معه في الجزائر؛ بالإضافة إلى انشغال السلطان القانوني الذي خلف والده ياووز سليم سنة 1520 بحروبه في شرق البحر المتوسط وشرق أوربا؛ كل هذه الأمور وغيرها أجبرت خير الدين على مغادرة مدينة الجزائر، واللجوء إلى قلعة جيجل التي كانت أول مدينة استقر بها مع أخيه عروج.

---

(1) المصدر السابق، ص 50؛ محمد بن عبد القادر، ص 95؛ محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، 114-115.

(2) مذكرات بربروس، ص 109.

(3) بن أشنهو، ص 149.

وكان أهلها أكثر إخلاصا ووفاء للأتراك من أهالي مدينة الجزائر[1].

مكث خير الدين في جيجل ثلاث سنوات متنقلا بينها وبين جزيرة جربة[2]. قام خلالها بتوثيق صلته بأمير قلعة بني عباس المنافس لابن القاضي في بلاد القبائل. ومد نفوذه إلى مدينة القلّ، ثم إلى قسنطينة وعنابة في الفترة [1520- 1522][3]. وبهذه السياسة استطاع تقليص نفوذ السلطان الحفصي في شرق الجزائر إلى حد كبير. كما قام خلال هذه الفترة بتنشيط الغزو البحري، ونقل عدد كبير من مسلمي الأندلس إلى السواحل الجزائرية[4].

في الواقع لم يكن ابن القاضي رجل دولة، إنما كان زعيما قبليا لا يملك مؤهلات تسيير أمور الدولة وإدارة بلاد واسعة مثل الجزائر. ولذلك فإنه ما إن استولى على الجزائر بعد انسحاب خير الدين منها حتى أساء معاملة الأهالي بشكل جعلهم يضجّون من ظلمه. ولم يكتف بذلك، بل منع المهاجرين الأندلسيين الفارّين من ظلم الإسبان من النزول بالجزائر. فانقلب عليه أعيان مدينة

---

(1) كاتب جلبي، ص 35؛ المدني، ص 213؛ إلتر، ص 83.

(2) في رأي صاحب الغزوات أن خير الدين مكث 3 سنوات، وحسب رأي غيره مكث ما بين خمس أو ست سنوات. انظر: المدني، ص211-213؛ *De Grammon,p.23*

(3) بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين، ومنير البعلبكي، بيروت 1968، 450-451؛ المدني، ص 213.

(4) **الغزوات**، ص 60؛ إلتر، ص 84؛ فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، ص 114-115.

الجزائر، وأرسلوا إلى خير الدين يعلنون فيه تبعيتهم وطاعتهم له ونبذهم لابن القاضي. ويدعونه إلى تحرير مدينته ليس من الإسبان في هذه المرة بل من ظلم وتسلط ابن القاضي[1].

كان خير الدين يراقب من جيجل تطور الأوضاع في الجزائر، لأنه كان مدركا بأن الأهالي سوف ينبذون ابن القاضي مهما طال خداعه لهم. وهكذا فما إن جاءه وفد الجزائر طالبا منه العودة إلى الجزائر باسم الأهالي حتى أعلن قبوله للدعوة. فعجّل بالسير إلى الجزائر ترافقه جموع كبيرة من رجال القبائل الراغبين في الاشتراك معه في قتال ابن القاضي[2].

اشتبكت قوات ابن القاضي بقوات خير الدين في مضيق ثنية بني عائشة بمنطقة القبائل. وأسفر الاشتباك عن انهزام ابن القاضي وتفرق عنه أنصاره. ولم يبق معه سوى عدد قليل من المنتفعين به، الذين سرعان ما غدروا به فقتلوه غيلة، وجزّوا رأسه وألقوه بين يدي خير الدين معتذرين له عن تمردهم ومناصرتهم لابن القاضي الذي غرّر بهم[3].

---

(1) **مذكرات بربروس** ص 128؛ **الغزوات**، ص 63؛ رضا نور، **تورك تاريخي**، إستانبول، 1925، 2/ 289.

(2) **الغزوات**، ص 213.

(3) كاتب جلبي، ص35 – 36؛ بن أشنهو، 149؛ رضا نور، 2/ 289. الذي أشرنا إليه سابقا عن مقتل ابن القاضي على يد أنصاره هو ما دلت عليه المصادر التي رجعنا إليها. لكن المزاري، زعم أن خير الدين=

ثم لم يلبث خير الدين أن سار إلى فرحات ابن أخي ابن القاضي[1]. فولى هذا الأخير هاربا، ومكث سنتين فارًّا من خير الدين إلى أن استقر رأيه على طلب الصلح مقررا على نفسه دفع ضريبة سنوية يؤديها إلى خير الدين[2].

وهكذا تم إخماد أخطر حركة تمرد ضد الوجود العثماني في الجزائر، بعد أن كادت أن تأتي على كل جهود التوحيد والتحرير التي قام بها الأخوان عروج وخير الدين بربروس خلال 20 عاما من النضال[3].

= هو من قام بقتل خير الدين ظلما ووصفه بالشهيد، وذلك بسبب خوفه من ابن القاضي. يقول ما نصه: «.. **ولما قتل إسحاق بالقلعة – قلعة بني راشد – وعروج ببني يزناسن، تخوف خير الدين من الشيخ أحمد بن القاضي وقتله فمات شهيدا. وذلك أول سفكهم للدماء ظلما ببر الجزائر**». انظر المزاري، 1/ 249-250.

(1) يقصد هنا ابن القاضي الثائر، وليس الشيخ العلامة أحمد ابن القاضي. وهو ما يفهم من سياق الأحداث حسبما ورد في مذكرات بربروس، انظر: ص 133.

(2) **الغزوات**، ص 64-66؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص 36.

(3) لقد التبس الأمر على معظم المؤرخين الذين تحدثوا عن ثورة ابن القاضي بسبب تكرار نفس اللقب العائلي الذي حمله آل ابن القاضي لفترة طويلة. فاعتقدوا أن القاضي الشيخ العلامة أحمد ابن القاضي الذي ساند الأتراك وتحمس لدعوتهم إلى بجاية ثم إلى مدينة الجزائر، وترأس أعيان المدينة الذين قابلوا السلطان العثماني سليم الأول طالبين منه حماية بلدهم وتحريرها من الاحتلال الإسباني. أقول لقد ظن هؤلاء =

وأما قارة حسن، فقد كان أحد القادة الأتراك المقربين منه والموثوقين عنده. أرسله خير الدين للقضاء على بعض حركات التمرد في الغرب الجزائري. فراسله ابن القاضي محرضا له على التمرد، واعدًا إياه أن يجعله حاكما على جميع المناطق التي يقوم بالاستيلاء عليها. فانتهز قارة حسن فرصة انشغال خير الدين بقمع ثورة ابن القاضي وأعلن هو الآخر تمرده. ولم يكتف بذلك بل اتفق مع الإسبان على توحيد الكلمة لطرد خير الدين من الجزائر[1]. فاشتد الأمر على خير الدين إذ أصبح كل من شرق البلاد وغربها خارج سيطرته. ولكنه ما إن فرغ من القضاء على ثورة ابن القاضي، حتى سار إلى نواحي شرشال حيث تمكن من القضاء على حركة قارة حسن، وإعدامه بعد إلقاء القبض عليه[2].

= الباحثون أن هذا الرجل بكل هذه المواقف العظيمة انقلب على خير الدين. ولما لم يجدوا مطعنا في ابن القاضي راحوا يقومون بتأويل هذه الثورة على غير وجهها ويبحثون عن أعذار يبررون فيها هذا الانقلاب. واختصروا الأمر في استبداد عروج وأخيه بعدما ذاقوا حلاوة الحكم والسلطة. وحينما ندقق الأمر نجد أن الثائر على خير الدين هو ابن الشيخ ابن القاضي المذكور، وليس العلاّمة أحمد ابن القاضي الذي ساند الأتراك وترأس وفد أعيان الجزائر الذين قابلوا السلطان سليم الأوّل. وقد صرح خير الدين بنفسه بهذا في مذكراته. فإذا صح ما ورد في المذكرات فإن الالتباس يزول بالكامل، ولا يبقى معنى لترويج خطأ متوارث عل مرّ السنين.

(1) **الغزوات**، ص 63.

(2) نفسه، ص52؛ بن أشنهو، ص126؛ إلتر، ص85؛ رضا نور، 2/ 289.

بعد القضاء على ثورة ابن القاضي، وفد شيوخ القبائل التي ساندته على خير الدين معلنين اعتذارهم وخضوعهم له. فقبل منهم ذلك وأقرهم على ما كانوا عليه من امتيازات سابقة[1].

• قمع تمرد أهالي مدينة الجزائر (1527)

لم يكد خير الدين ينتهي من ثورة ابن القاضي وقارة حسن وسلطان تلمسان، حتى ثارت مدينة الجزائر مرة أخرى بتأثير دعاية مضادة للوجود العثماني قام بها بعض أتباع ابن القاضي من أعيان المدينة الذين رأوا في حركة خير الدين خطرا على مصالحهم الذاتية.

حاول خير الدين حل المشكل بطريقة سلمية مستعينا بالعلماء الذين حذروهم من عواقب التمرد. ولكن زعماء الثورة رفضوا وساطة العلماء وأصروا على تمردهم. فأصدر العلماء حينئذ فتوى تقضي بوجوب القضاء على رؤوس الفتنة وتحريم التعاون معهم. فقام خير الدين بتفريق الأهالي الثائرين، واعتقال زعماء الثورة وإعدامهم. وبذلك انتهت حركة التمرد في مدينة الجزائر، وخلد الناس إلى الطاعة والسكون[2].

• إعادة السيطرة على المناطق المتمردة (1527 - 1528)

قضى خير الدين سنتي 1527–1528 في متابعة إعادة السيطرة

---

(1) كاتب جلبي، ص 35–36.

(2) الغزوات، ص52–56؛ كاتب جلبي، المصدر السابق، ص34؛ محمد بن عبد القادر، ص96.

على المناطق المتمردة، والضرب بشدة على أيدي زعماء التمرد. حيث أمر بإعدام حكام كل من شرشال وتنس[1]. وفي عام 1528 تمردت مدينة قسنطينة، وقتل الثوار القائد الذي عينه خير الدين لإدارتها. فقام خير الدين على إثر ذلك بقمع التمرد والسيطرة على المدينة من جديد[2].

وأما سلطان تلمسان مولاي عبد الله الذي نصبه خير الدين بدلا من أخيه المسعود فقد انقلب هو الآخر على خير الدين، ولم يلتزم بما كان تعهد به. ولم يدفع المبلغ السنوي لخير الدين لمدة 6 سنوات مستغلا انشغال خير الدين بقمع حركات التمرد التي اندلعت في مناطق مختلفة من الجزائر. ولم يكتف بقطع الالتزام المالي فحسب، بل قطع الخطبة باسم السلطان العثماني، وسار يخطب باسمه. ولكي يضمن الحماية لنفسه تحالف مع الإسبان ضد خير الدين.

فأرسل خير الدين إليه رسالة يحذره عاقبة عصيانه، إلا أنه رفض ذلك وأصر على تمرده. فقاد خير الدين قواته وسار إليه. فأسفرت المعركة عن هزيمة القوات الزيانية، وأسر سلطانها الذي أمر خير الدين بإعدامه وتنصيب ابنه محمدا في مكانه. فقام هذا الأخير بقراءة الخطبة باسم السلطان العثماني وضرب العملة باسمه، ودفع الضرائب المتأخرة والتي بلغت 90.000 دوقة

---

(1) إلتر، ص 85.

(2) نفسه، ص 85.

ذهبية[1].

وهكذا؛ استطاع خير الدين بعد كفاح دام 10 سنوات تقريبا من إعادة فرض سيطرته شبه الكاملة على منطقة شرق ووسط وقسم كبير من غرب الجزائر، قبل أن يتفرغ للقضاء على الاحتلال الإسباني.

ح. تدمير حصن البنيون وأثره في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر

عندما استقر الأمر لخير الدين، بعد قضائه على حركات التمرد والشغب التي قادها بعض من الزعماء المحليين ضد الأتراك، شرع يعد العدة لطرد الإسبان من مدينة الجزائر، وهو الهدف الذي كان السبب الرئيسي في قدوم الإخوة بربروس إليها بناء على دعوة أعيانها. فكان من الطبيعي أن يجعل طرد الإسبان من حصن البنيون

---

(1) هذا ما ورد في مذكرات بربروس، ص 131 - 132؛ إلا أن المؤرخ التركي كاتب جلبي لم يذكر مقتل السلطان الزياني ولم ينف ذلك. بل ذكر بأن السلطان الزياني فرّ بعد انهزامه أمام خير الدين. ثم لم يلبث أن بعث إلى هذا الأخير معتذرا عن تمرده، متعهدا بقراءة الخطبة وضرب النقود باسم السلطان العثماني. انظر: كاتب جلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، مصدر سابق، ص36؛ ووافقه في ذلك سميح إلتر، ص85. ولئن كان من الواضح أن سميح إلتر استند إلى ما ذكره كاتب جلبي؛ إلا أني لم أتمكن من معرفة مستند ما ذكره كاتب جلبي، خصوصا وأنه زعم أن ما ورد في كتابه ينقله ملخصا من المذكرات التي لم أجد فيها ما نقله في كتابه تحفة الكبار! وهذا يفتح باب احتمال استعانته بمصادر أخرى غير مذكرات بربروس لم يشر إليها في كتابه المذكور.

أول عمل عسكري يقوم به.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسبان كانوا يحتلون الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر، وأسسوا عليها قلعة عرفت بحصن البنيون *LE PENON D'ALGER*. وذلك منذ إعلان أعيان المدينة خضوعهم للإسبان بعد احتلال وهران. وفي الواقع كان الإسبان باحتلالهم لهذه القلعة قد وضعوا المدينة تحت مراقبتهم، فلم يعد الأهالي قادرين على ممارسة أي نشاط بحري دون الرجوع إلى الإسبان. ومن ناحية أخرى فإن الأهالي كانوا ملزمين بدفع جزية سنوية فُرِضَت عليهم بناء على المعاهدة التي عقدت بينهم وبين الإسبان مقابل اكتفائهم باحتلال القلعة المشار إليها. وقد ذكر المؤرخون الذين تحدثوا عن الفترة موضوع دراستنا أن الأهالي كانوا عندما يتأخرون عن دفع الجزية المفروضة عليهم لسبب أو لآخر، فإن الحامية الإسبانية المتمركزة في القلعة تقوم بقصف المدينة بمدفعيتها. فذاق الأهالي من جراء ذلك الأمَرَّيْنِ: مرارة احتلال الجزيرة وما تبعه من حصار بحري، ومرارة الجزية والإذلال اللذين يمارسهما الإسبان ضدهم. وهكذا فإنهم عندما بلغتهم أنباء انتصارات الأخوة بربروس البحرية وحصارهم لبجاية، وطردهم للجنويين من جيجل، قاموا بإرسال وفد يدعونهم باسم أهالي الجزائر للقدوم عليهم لتحرير مدينتهم من الإسبان. فاستجاب الأخوة بربروس لذلك وقدموا إلى الجزائر سنة 1516.

وقد حاول عروج تدمير حصن البنيون فور دخوله إلى الجزائر،

إلا أن حصانة القلعة وتتابع الأحداث التي تلت دخول الأتراك حالت دون تحقيق هذا الهدف.

وفي السنوات التي سبقت تحرير القلعة، كانت الحامية الإسبانية المتمركزة في حصن البنيون تعيش في حالة بؤس كبير بسبب إهمال الحكومة الإسبانية للقلعة. ولم تعد تزود الحامية بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد عسكري. وبالرغم من أن قائد الحامية دون مارتن دي فرغاس ***Don martın de vergas*** كان قد طلب المدد من حكومته عندما سيطر خير الدين على مدينة الجزائر، إلا أن طلبه قوبل بالإهمال. ووصل الأمر بالجنود إلى أنهم لم يعودوا قادرين على التزود بما يحتاجون إليه من مؤن عدا ما كان يصلهم من إسبانيا. بل كانوا يضطرون إلى جلب مياه الشرب من جزيرة ميورقة[1].

كان خير الدين على علم بالمصاعب التي كان يعاني منها الجنود الإسبان المتمركزون في القلعة، كما كان على يقين بأن تلك القلعة مادامت في يد الإسبان، فإنهم يمكنهم استخدامها بفعالية كبيرة

---

(1) انظر الوثيقة التي أرسلها قائد القلعة إلى جميع الولاة الإسبان يشرح فيها الضائقة التي تعيشها الحامية الإسبانية بقلعة البنيون، ويطلب منهم التعجيل بإرسال الماء والأرزاق والسلاح والأموال. وذلك في: *Müzaffer Arıkan ve Paulino Tolede, XIV-XVI.Yüzıllarda Türk- İspayol İlişkileri ve Denizcilik Tarihimizle ilgili İspanyol Belgeler, Ankara 199 .s,144; Salazar Kütüphanesi A.16.s.151.*

عندما يشاءون. ومن ثم فإنها رغم كل ما كانت تعانيه من مصاعب فقد كانت تشكل خطرا كبيرا على مدينة الجزائر.

ومن جهة ثانية فإن خير الدين كانت سفنه قد بلغت 20 سفينة، كما كان القباطنة ورؤساء البحر الذين يساندونه يملكون ضعف هذا العدد. مما يعني أنهم في حاجة ماسة إلى ميناء يمكّنهم من الرسو فيه بدلا من ميناء جربة الذي يقع على مسافة بعيدة عن الجزائر، مما يحول دون الاستفادة منه في حال وقوع حرب في السواحل الجزائرية الوسطى أو الغربية. وهكذا أصبح طرد الإسبان من قلعة البنيون حتميّة لازمة فرضها الواقع الجديد الذي تزامن مع الوجود العثماني في مدينة الجزائر.

1. تدمير حصن البنيون (1529)

وهكذا؛ ففي شهر مايو 1529 أرسل خير الدين إخطارا إلى قائد القلعة دون مارتن دي فرغاس ***Don martın de vergas*** يدعوه فيه إلى إخلاء القلعة، ومغادرتها مع جنوده فورا. لكن قائد القلعة أجاب بالرفض[1]. فأمر خير الدين بنصب المدافع والشروع في قصف القلعة..

دام القصف العنيف 20 يوما تمكنت المدافع العثمانية على إثرها من إحداث عدة ثغرات في سور القلعة. ثم شن البحارة العثمانيون

(1) إلتر، ص 86-87؛ المدني، ص 216.

بمساندة الأهالي هجوما عاما على القلعة من جميع أطرافها إلى أن تمكنوا من اقتحام القلعة، وقتل وأسر جميع من كان فيها من الجنود الإسبان[1].

---

(1) اختلف المؤرخون كثيرا في عدد الأسرى الذين تم أسرهم أثناء فتح قلعة البنيون. فقد ذكر كاتب جلبي أن عدد الأسرى كان 500 أسيرا. انظر: كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص 87؛ بينما ذكر إلتر بأن عددهم كان 700 أسيرا. انظر: إلتر، ص 86-87؛ في حين أشار المدني حسب تقرير إسباني محفوظ في أرشيف سيمانكاس إلى أن عدد القتلى الإسبان كان 65؛ بينما كان عدد القتلى من المسلمين 11 تركيا، و35 عربيا. أما عدد الأسرى فقد كان 90 جنديا إسبانيا، و25 من النساء والأطفال. انظر المدني، مرجع سابق، ص 216. لكننا لم نتمكن من الاطمئنان إلى أي من التقديرات. فسميح إلتر لم يذكر أي مصدر استند إليه في تقدير عدد القتلى والأسرى. أما تقدير التقرير الإسباني فإننا نلمس منه التقليل من عدد الأسرى للتهوين من أهمية الإنجاز الذي حققه فتح هذه القلعة. فحصانة القلعة واستعصاؤها على الفتح لمدة 10 سنوات يوحي بأن عدد القتلى والأسرى كان أكبر بكثير مما ذكره التقرير. أما خير الدين، فلم يشر في مذكراته إلى عدد أسرى القلعة. غير أنه صرّح بأن مجموع الأسرى الذين استخدمهم في بناء ميناء الجزائر بعد نسف القلعة كان 30.000 أسير. انظر: **مذكرات بربروس**، ص 136؛ ولا ريب أن هذا العدد يبدو ـ لأول وهلة ـ كبيرا جدا أو مفرطا في المبالغة؛ إلا أنه بالرجوع إلى ما ذكره الراهب الإسباني هايدو -على سبيل المثال- من أن عدد الأسرى في مدينة الجزائر في منتصف القرن 16 كان يقارب 25 ألفا. بل رفع بعضهم هذا العدد إلى 30ألفا؛ في حين أنزله آخرون إلى 16 ألفا. وكيفما كان فإن هذه الأرقام توحي=

بعد فتح قلعة البنيون أعطى خير الدين أوامره بتدميرها وتسويتها بالأرض. واستخدام أسرى الذين كانوا متحصنين بها ممن نجوا من القتل، مع وغيرهم من الأسرى الذين كانوا يقبعون في سجون مدينة الجزائر بنقل الحجارة من برج تامنفوست، الواقع على الطرف المقابل من شرق خليج الجزائر. حيث وصل الجزيرة التي كانت تقوم عليها القلعة بالبر عن طريق جسر من الصخور صار يحمل منذ ذلك التاريخ اسم «جسر خير الدين». ثم أمر بأن توصل الجزر الصغيرة ببعضها في شكل دائري ذي فتحة واحدة. وهكذا تم إنشاء ميناء الجزائر الذي أصبح منذئذ مقرا لأسطول الجزائر. ولضمان حماية السفن الراسية في الميناء أمر خير الدين ببناء ثكنة عسكرية وبرج للمراقبة عرف باسم برج الفنار[1].

لقد كان خير الدين يرمي من وراء تدميره لقلعة البينيون وبناء رصيف ميناء الجزائر إلى استخدامه للدفاع عن مدينة الجزائر، وقطع كل أمل للإسبان في العودة واحتلال مدينة الجزائر مرة أخرى.

هذا؛ وفي الوقت الذي كان فيه خير الدين يضيق الخناق على

= بأن عدد الأسرى كان كبيرا جدا، وما ذكره خير الدين لا يختلف كثيرا لما ورد في المصادر الأوربية، مما يعطي انطباعا بأن هذا العدد حتى وإن كان دقيقا إلا أنه قد يكون قريبا من ذلك.

(1) تتفق جميع المصادر التي تؤرخ للفترة موضوع الدراسة بأن خير الدين هو الذي قام ببناء ميناء الجزائر ببنائه عقب تدمير حصن البنيون. انظر: كاتب جلبي، ص87؛ إلتر، ص86-87؛ المدني، ص 215-217.

الحامية الإسبانية في حصن البنيون، بعث القائد الإسباني إلى إسبانيا يطلب المدد. فوصلت 9 سفن إسبانية حربية بعد أن كان الأتراك والجزائريون قد أتموا اقتحام وتدمير الحصن. وعندما اقتربت السفن الإسبانية من ساحل الجزائر لم يعثروا على القلعة، وأردوا الفرار، فأدركهم خير الدين بـ5 سفن حربية من نوع قادرغة، واستولى على السفن الإسبانية بعد معركة عنيفة، وقتل من فيها، وأسر 2.700 أسيرا نقلوا جميعا إلى الجزائر، حيث استخدموا لاحقا مع زملائهم في بناء رصيف ميناء مدينة الجزائر[1].

2. اثر تحرير حصن البنيون

لا شك أن تحرير حصن البنيون يعتبر نصرا كبيرا حققه الأتراك، إن لم يكن أهم انتصاراتهم في وسط الجزائر. فباستيلائهم عليه يكونون قد ضمنوا استمرارية وجودهم في مدينة الجزائر. خصوصا بعد بناء ميناء الجزائر، واتخاذهم له قاعدة وجودهم البحري في شمال إفريقيا بدلا من ميناء حلق الوادي بتونس الذي كان بعده عن مسرح العمليات العسكرية يحول دون التمكن من المحافظة على الإنجازات السياسية العسكرية المكتسبة في وسط وغرب الجزائر.

وهكذا؛ فإنه ما إن تمكن الأتراك العثمانيون من تدمير حصن البنيون، واستقرارهم في مدينة الجزائر حتى تضاعفت غزواتهم البحرية على طول سواحل غرب البحر المتوسط. فأصبحوا بذلك

---

(1) كاتب جلبي، ص 37.

القوة الضاربة الأولى في المنطقة[1]. فزرعوا الرعب والفزع في قلوب النصارى[2]. وأصبحت الجزائر تراقب جميع الطرق البحرية الكبرى للبحر المتوسط[3]. وتعددت غارات غزاة الجزائر على إسبانيا وإيطاليا، وجزر غرب البحر المتوسط حتى أصبح شارلكان يجد صعوبة بالغة السفر من برشلونة إلى نابولي[4].

ومن جهة أخرى نتج عن تحرير حصن البنيون بصفة آلية تحرير كامل ساحل الجزائر الأوسط بشكل نهائي، وجعل إعادة احتلاله مرة أخرى من طرف الإسبان أمرا مستحيلا، أثبتته حملاتهم الفاشلة على شرشال والجزائر التي تلت طردهم من حصن البنيون.

ولم يقتصر أثر تحرير البنيون على ساحل مدينة الجزائر الأوسط فحسب، بل تعداه إلى المناطق الشرقية والغربية منه. ففي شرق الجزائر شرعت القبائل البربرية في الضغط على الإسبان المحتلين لبجاية، وفي الوقت ذاته اغتنم أبو محمد عبد الله أخو أبي حمو الزياني الذي كان الإسبان قد نصبوه سلطانا على تلمسان بعد مقتل عروج، فقطع صلته بالإسبان وأرسل إلى خير الدين معلنا تبعيته له[5].

---

(1) انظر أمثلة كثيرة ساقها كاتب جلبي عن غزوات الأتراك في غرب البحر المتوسط بعد تحير حصن البنيون، كاتب جلبي، ص185؛ وانظر أيضا: إلتر، ص 87-88.

(2) De Grammont, *l'expeditıon de chrles-Quint*, 1874,p.55.

(3) Braudel, *la Mediterrannée au temps de Philippe*,p.11.

(4) بلحميسي، غارة شرلكان، ص 95.

(5) الميلي، 3/ 57-58.

وهكذا انحصر الاحتلال الإسباني في بجاية ووهران. ولم يعد في مقدورهم سوى القيام بتنظيم حملات عسكرية سريعة على الموانئ الجزائرية مستغلين انشغال أو غياب وحدات الأسطول العثماني عن الجزائر. كما فعلوا في غاراتهم على شرشال والجزائر. بالإضافة إلى تحريضهم للأمراء والزعماء المحليين على التمرد بغية إضعاف الوجود العثماني في الجزائر، عساهم يتمكنون يوما من إعادة ما فقدوه من مدن وقلاع.

3. ردود الأفعال الإسبانية على تدمير حصن البنيون

سادت موجة من الرعب نفوس ملوك أوربا، وبدأوا يدركون خطورة الوجود العثماني الذي جعل من الجزائر قاعدة متقدمة على الضفة الجنوبية الغربية من البحر المتوسط[1].

أما في إسبانيا فإن الإمبراطور شرلكان استشاط غضبا حينما بلغه تدمير حصن البنيون وقتل وأسر جميع رجال حاميته فيه، بالإضافة إلى القضاء على الحملة التي أرسلها لمساندة الحامية الإسبانية[2]. كما ارتفعت وتيرة الهجمات التي كان الغزاة الأتراك والجزائريون يقومون بها على سواحل إسبانيا وإيطاليا، وجزر الباليار، وغيرها من جزر البحر المتوسط. حتى ضاق أهل تلك

---

(1) الزبيري، ص 36-37.

(2) ذكر صاحب الغزوات أن شرلكان صار ينتف رأسه، ويحثو عليه التراب. ثم أخذ خنجرا يريد أن يقتل نفسه من شدة الغيظ. انظر الغزوات، ص 77- 79.

السواحل وضجوا بالشكوى لملكهم شرلكان مما يفعله بهم أهل الجزائر[1]. وطالبوه بضرورة تأمينهم وتأمين سواحلهم[2].

أما الحاميات الإسبانية التي بقيت قائمة في بجاية ووهران، فقد أصبحت تعيش في خوف دائم، لا سيما بعد أن قطع عبد الله سلطان تلمسان التموين عنها، وإعلانه تحالفه مع الأتراك. فصارت تلك الحاميات تعيش في خوف وجوع معا. لأن تموينها كان يتم عبر إسبانيا، وكثيرا ما كان يتأخر عن الوصول إليها[3].

وفي محاولة لتخفيف أثر صدمة سقوط قلعة البنيون أمر الإمبراطور شرلكان باتخاذ إجراءات وقائية عديدة لمواجهة الوضع الجديد منتهزا في ذلك فرصة الصلح الذي عقده مع فرنسا لتوجيه حملته على الجزائر[4]. وقد كان من أهم بنود هذه الإجراءات ما يلي:

1. توجيه حملة مكونة من أربعين سفينة حربية إلى الجزائر سنة 1530[5]. وأصدر أوامره بتعيين البحار الجنوي الشهير أندريا

---

(1) مؤلف مجهول، **مخطوط المحكمة**، نقل من التركية إلى العربية، توجد منه نسختان بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1100. كما توجد نسخة منه مذيلة بكتاب الغزوات الذي يعتقد أنه النسخة المترجمة إلى العربية من مذكرات خير الدين بربروس.

(2) الغزوات، ص 77-78.

(3) بريموداي، ص 56.

(4) المصدر نفسه، ص94.

(5) هذا ما أشار إليه سميح إلتر؛ أما الأستاذ المدني فقد أشار إلى أن الحملة =

دوريا قائدا لها[1].

بلغت الاستعدادات الإسبانية خير الدين بربروس فجهز 35 سفينة في ميناء الجزائر، وشرع ينتظر ظهور الأسطول الإسباني. ولكن الحملة الإسبانية توجهت إلى قلعة شرشال، حيث قامت بعملية إنزال عسكري في مينائها[2]، وشرعت في شن هجوم كبير عليها. فتصدت لها الحامية العثمانية، يساندها في ذلك المهاجرون الأندلسيون والأهالي بإطلاق قذائف المدفعية من أسوار القلعة على الأسطول الإسباني. ثم التحمت فرقة الانكشارية بالقوات الإسبانية في هجوم مفاجئ لم يكن يتوقعه الإسبان أجبروا معه على التراجع. فكانت صلابة المقاومة، وورود أنباء عن توجه خير الدين

= كانت مكونة من عشرين سفينة. انظر المدني، ص 225.

(1) أندريا دوريا، بحار جنوي شهير، ولد في حدود 1498. عمل محافظا لدى البابا في مطلع شبابه. ثم التحق بالأسطول الجنوي سنة 1513. ثم عمل في الأسطول الفرنسي. وبفضل مهارته البحرية سجل الأسطول الفرنسي عدة انتصارات على الأسطول الإسباني. كما مارس أندريا دوريا القرصنة لحسابه الشخصي فجمع من ذلك أموالا كثيرة. يعتبر أندريا دوريا أعظم بحار في العالم المسيحي في القرن 16م. وحينما قاد الحملة على شرشال كان عمره 62 سنة. إلتر، الهامش، ص 94.

(2) اختار الإسبان الهجوم على شرشال تفاديا للاصطدام بقوات خير الدين المتمركزة في الجزائر، ولكون شرشال قريبة من مدينة الجزائر، والتي لا تبعد عنها سوى 120 كلم فقط. إضافة إلى أن عروجا كان قد جدد بناء قلعتها، وأسس فيها مصنعا لبناء السفن الحربية. انظر المدني، ص225

على رأس أسطوله للتصدي للحملة الإسبانية، سببا في تعجيل أندريا بالانسحاب إلى سواحل إسبانيا مخلفا وراءه 1.500 قتيلا و640 أسيرا[1].

وقد كان من أثر هذه الهزيمة التي مني بها الإسبان أن زاد تعلق الأهالي بالأتراك، وثقتهم في قدرتهم على حمايتهم من الاعتداءات الإسبانية. وامتد نفوذ الأتراك إلى تلمسان التي صار أهلها يتطلعون هم أيضا لإنقاذ مدينتهم من النفوذ الإسباني الذي يمارسونه على سلطانهم[2].

2. وأما الإجراء الثاني فقد تم اتخاذه بعد فشل الحملة الإسبانية على شرشال. حيث تم توجيه حملة أخرى لاحتلال ميناء هنين الذي كان يعتبر منفذا بحريا هاما للدولة الزيانية بسبب قربه من تلمسان بحوالي 45 كلم فقط. وكانت الدولة الزيانية تتخذ من هذا الميناء مركزا للتبادل التجاري مع الممالك الأوربية، خصوصا البندقية[3].

لقد كان احتلال ميناء هنين يرمي إلى تطويق الجزائر من الغرب والشرق، بالإضافة إلى حرمان تلمسان من منفذها البحري الوحيد الذي بقي خاضعا لها، وذلك بغية الضغط على سلطانها عبد الله

---

(1) المرجع السابق 95-96؛ 221-225؛ وانظر أيضا:
Danişmend,II.s.152-153.

(2) المرجع السابق، 225.

(3) الوزان، مصدر سابق، ص 380.

الموالي لخير الدين لكي يتراجع عن ولائه له[1].

وهكذا ففي سنة 1531 تلقى القائد الفارو الإسباني دي بازان ***D.ALVARO DE BAZAN*** أمرا بمهاجمة المدينة، واحتلال مينائها الذي لم تكن فيه سوى حامية صغيرة تابعة للدولة الزيانية.

فرسا الأسطول الإسباني المكون من 11 سفينة حربية، وناقلتين عسكريتين أمام مرسا المدينة. فتم احتلال الميناء والمدينة بعد محاولة دفاع يائسة قام بها الأهالي الذين كانوا يفتقرون إلى قيادة كفؤة، وجيش قوي يتولى حماية المدينة[2].

وقد كتب الكاردينال خمينيس رسالة إلى الإمبراطور شارلكان شرح له فيها الكيفية التي تم بها احتلال المدينة يوم 11 سبتمبر 1531 مبينا له أهميتها. فجاء في رسالته:

«لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة. فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيفة، ولها قلعة منيعة. ولا تبعد عن تلمسان إلا 12 مرحلة. وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن نتبادلها مع العرب. كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالأخص على إبقاء ملك تلمسان تحت أيدينا. فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة، وتحصنا بها».

وبعد أن وصف له كيفية احتلال المدينة على النحو الذي مر

---

(1) بريموداي، ص 57-60.

(2) المدني، ص 237.

ذكره سابقا، يقول:

«ولم تكن المدينة تنتظر هذا الهجوم، ولم تكن بها كل حاميتها. فسهل علينا الأمر من جراء ذلك . ولم تكلفنا العملية كثيرا، حيث أن عدد القتلى من رجالنا لم يتجاوز الأربعين، أما عدد الجرحى فمائة رجل»[1].

وبالرغم من سقوط ميناء هنين وقلعتها إلا أن الأهالي في المناطق الداخلية فرضوا حصارا شديدا على الحامية الإسبانية التي استقرت في المدينة لحراستها. ولم يكن في مقدورها التوغل داخل البلاد لتأمين احتياجاتها التموينية. فساءت حال الجنود الإسبان كثيرا الذين لم يكونوا يتلقون المدد بشكل منتظم من إسبانيا. فلم يستطيعوا المكوث في المدينة أكثر من ثلاثة أعوام، ثم اضطروا إلى إخلائها في شهر ديسمبر 1534 . بعد أن قاموا بتدميرها تماما[2].

أما ما كان يطمح إليه الإسبان من فرض ولاء السلطان الزياني لهم فقد وُفِّقُوا فيه إلى حدّ كبير. إذ لاحظنا بأن الإسبان ما إن استولوا على هنين حتى أعلن السلطان الزياني تمرده على خير الدين. فما كان من هذا الأخير إلا أن توجه إليه بنفسه على رأس قواته لتأديبه وإعادته إلى الطاعة والانقياد. ولم يجد خير الدين صعوبة في القضاء على حركة التمرد، والقبض على الأمير عبد الله. وبعد توسط العلماء

---

(1) انظر نص الرسالة في التي نقلها المدني ضمن وثائق سيمانكاس *SİMANCAS* في حرب الثلاثمائة سنة، ص 236-238.

(2) نفسه، ص 238 – 239.

والأعيان عفا عنه خير الدين مجبرا إياه على دفع غرامة قدرها 30.000 دينار ذهبي[1].

3. وأما الخطوة الثالثة التي فكر الإمبراطور في اتخاذها للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر فهي القيام بحملة كبيرة يقودها شرلكان نفسه لإعادة احتلال مدينة الجزائر[2]. وسوف نتحدث عن هذه الحملة لاحقا.

خ. مضاعفة الحملات لإنقاذ مسلمي الأندلس

وبالرغم من كل المصاعب التي كانت تواجه الأتراك العثمانيين في هذه المرحلة من تاريخ وجودهم في الجزائر، إلا أن غزاة الجزائر لم يكفوا عن مهاجمة السفن والسواحل الإسبانية، وإلحاق أضرار كبيرة بها، وتأييد ثورات الأندلسيين التي كانت تندلع بين الحين والآخر. ونقل الكثير منهم إلى المدن الساحلية بالجزائر[3]، حتى أصبح نقل المهاجرين الأندلسيين عقب كل غارة على السواحل الإسبانية أمرا مألوفا[4].

غير أن الفترة التي نقوم بدراستها شهدت تصاعدا كبيرا في حملات الاضطهاد والإرهاب الديني ضد مسلمي الأندلس، فلجأ الكثير منهم إلى الجبال محتمين بها. وأرسلوا إلى خير الدين

---

(1) إلتر، ص 98.

(2) نفسه، ص 51.

(3) **الغزوات**، 80-82.

(4) نفسه، ص 88.

يستعجلونه في التدخل لحمايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم. وهنا نجد خير الدين يستغل فرصة غياب أندريا دوريا الذي خرج للإغارة على قلعة مودون **_Modon_** بجزيرة المورة **_Mora_** بأمر من الإمبراطور شرلكان، ردا على الحملة الهمايونية التي قادها السلطان سليمان القانوني ضد النمسا سنة 1532. أقول استغل خير الدين هذه الفرصة وأرسل على إثر ذلك 36 سفينة لنقلهم إلى سواحل الشمال الإفريقي. وتمّ نقل 70 ألف مسلم منهم في 7 رحلات متوالية إلى الجزائر[1].

د. تولي خير الدين لقيادة الأسطول العثماني ومحاولة ضم تونس

1. تولي خير الدين لقيادة الأسطول العثماني

عندما خرج السلطان سليمان القانوني لغزو النمسا في الحملة الهمايونية الخامسة سنة 1532 انتهز أندريا دوريا فرصة انشغال الجيش العثماني بحروبه في النمسا فأغار على قلعة مودون **_Modon_** بجزيرة المورة **_Mora_** بأسطول مكون من 123 قطعة بحرية. إلا أنه اضطر إلى الانسحاب عندما تصدت له الحامية العثمانية المكلفة بحماية القلعة.

وكان أندريا دوريا قد قام بالإغارة على تلك القلاع بناء على أمر من الإمبراطور شرلكان الذي طلب منه أخوه ملك النمسا

---

(1) نفسه، 82 ؛ Kazıcı,XII,s.331.

فرديناند مساعدته على التصدي للعثمانيين بفتح جبهة عسكرية تنطلق من البحر[1].

وعندما فشل دوريا في الاستيلاء على قلعة مودون قام بالإغارة على قلعة قورون **Koron**، حيث استولى عليها بعدما وافق على انسحاب الحامية العثمانية مع عائلاتهم وممتلكاتهم.

ثم استولى بعد ذلك على قلعة باليابارد ا **Balyabarda** التي تقع شمال غرب جزيرة المورة. كما استولى بعدها على قلعة ليبانت **İnabaht**

كان لسقوط هذه القلاع عن طريق الهجوم البحري الذي قام به أندريا دوريا أهمية كبيرة في تاريخ الصراع بين الدولة العثمانية وآل هابسبورغ. إذ كان ذلك يؤذن بانتقال الصراع بين الدولتين من البر إلى البحر. حيث يكون البحر المتوسط ميدانا لهذا الصراع الطويل[2].

لقد أدرك السلطان القانوني أهمية وجود أسطول عثماني قوي، يمكنه حماية السواحل العثمانية. ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأن تسند مهمة بناء هذا الأسطول وقيادته إلى شخصية ذات تجربة طويلة في المعارك البحرية. وهكذا وقع اختياره على خير الدين بربروس ليتولى هذه المهمة الخطيرة[3].

---

(1) Uzunçarşılı,II.s.335

(2) *Asrar,age,s.213152-153; Danışmend,II.s.160-162.*

(3) Kazıcı, XI, s.331

ولذلك فإنه ما كاد يعود من حملته الهمايونية على النمسا حتى قام بعقد صلح مع فرديناند، ثم وجه إلى خير الدين بربروس فرمانا سلطانيا سنة 1533 جاء فيه:

«إني عازم على غزو إسبانيا. فاجعل رجلا تعتمد عليه ينوب عنك وأقدُمْ عليَّ. فإن لم تجد من تعتمد عليه فأعلمني بذلك»[1].

فقام خير الدين بتعيين ابنه حسن آغا نائبا عنه، ثم خرج في 40 سفينة متوجها إلى إستانبول[2]. وفي طريقه أغار على سواحل سردينيا، وصقلية كما هاجم القلاع القريبة من جنوة وقام بنهبها. وصادف في سواحل مسينا 18 قطعة بحرية فاستولى عليها وأسر جميع من فيها. كما استولى على سفينتين أخريين كانتا متجهتين إلى نابولي.

وفي نافارين ***Navarin*** صادف خير الدين الأسطول العثماني الذي كان يقوده قبطان داريا أحمد باشا. فتوجه الأسطولان إلى إستانبول مرورا بمضيق جنة قلعة ***Çanakale***[3].

استُقبل خير الدين بحفاوة كبيرة في إستانبول من طرف السلطان سليمان القانوني[4]. وتشاور معه حول جبهة الصراع في البحر المتوسط، كما استمع إلى رأيه في البحار الجنوي أندريا دوريا. كما

---

(1) .Asrar, s.213; Danişmend, age, II.s.160-162

(2) .Asrar, s.213

(3) إلتر، ص 103.

(4) Asrar, s.213 ؛ عامر، ص 44-45؛ إيفانوف، ص 109.

أبدى خير الدين ملاحظاته المتعلقة بنقاط الضعف في الأسطول العثماني، وضرورة إعادة تجهيزه بسفن جديدة. فكلفه السلطان بالإشراف على دار بناء السفن بإستانبول، وإعداد أسطول كبير يمكّنه من التصدي لأندري دوريا[1].

هذا؛ وقد ذكر المؤرخ التركي دنشماند ***Danişmend*** أن خير الدين كرر في هذا اللقاء عرضه على القانوني إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، واعتبارها إيالة من إيالاتها. فقبل القانوني العرض بسرور كبير، وعين خير الدين في منصبه باعتباره بيلربايا عليها[2].

شخصيا وجدت صعوبة كبيرة في فهم التعارض بين ما ورد في المصادر المختلفة التي تطرقت إلى إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية. فقد كان واضحا أن الجزائر أصبحت ولاية عثمانية منذ وصول فرمان السلطان سليم الأول القاضي بتعيين خير الدين بيلرباي على الجزائر. وذلك بناء على طلب وفد مدينة الجزائر كما سلف ذكر آنفا. إلا أن ما أورده دانشماند يدعو إلى التساؤل عن مدى صحة هذا العرض إن صح في الواقع؟

في تقديري أن خير الدين تم تثبيته في منصبه كبيلرباي على الجزائر، وأضيف له منصب آخر هو تولي القيادة العامة للأسطول العثماني. ودفعا لتوهم أن يكون خير الدين قد عزل من بيلربكية

---

(1) Gökbilgin,M.tayyib,Süleyman I,İA,III.s.119; age,XI.s.332.

(2) Danişmend, age, II.s.161.

الجزائر ليتولى قيادة الأسطول أمره السلطان سليمان القانوني أن يلحق بالصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان حينها في حلب، حتى يأخذ موافقته على تثبيته بيلربايا على الجزائر.

والسؤال الآخر الذي يطرح نفسه في هذا الخصوص: لماذا لم يقم السلطان بتعيين خير الدين بيلرباي على الجزائر مثلما عينه قائدا عاما للأسطول؟

إن التدقيق في صلاحيات الصدر الأعظم إبراهيم باشا يتضح له بأن تعيين الولاة وعزلهم كان يدخل ضمن صلاحيات الصدر الأعظم. واحتراما لهذه الصلاحية كلف خير الدين بمراجعة الصدر الأعظم كي يستلم منه هذا المنصب. أما تعيين خير الدين على رأس الأسطول العثماني فقد كان من صلاحيات السلطان باعتباره القائد الأعلى للجيوش العثمانية.

وفي الحقيقة إن هذا العرض المتكرر لضم الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية جعل الباحثين يقعون في ارتباكات كبيرة حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه الجزائر إيالة عثمانية. فحسب ما سلفت الإشارة إليه قبل قليل يتضح أن الجزائر أصبحت إيالة عثمانية منذ وصول الوفد المرسل من قبل أهالي الجزائر إلى إستانبول بعد استشهاد عروج ومجيء خير الدين. ولكن سبق وأن عرفنا أن الأخوين بربروس كانا قد أرسلا وفدا آخر إلى السلطان سليم الأول عندما كان في أدرنة. وقد كان يرأس الوفد فيما يبدو أحد أعيان الجزائر

يدعى حاجي بشير[1]. وقد استقبل الوفد بحفاوة كبيرة. وأرسل السلطان معه الخلعة السلطانية والسيف المرصع وغيره من الهدايا. بالإضافة إلى تزويد الأخوين بربروس بسفينتين حربيتين على متنهما 2.000 جندي من الانكشارية وعدد من المدافع. مع الإذن لهما بأن يجندا قدر ما يشاءان من الشباب في الأناضول[2].

وقبل ذلك كان وفد آخر قد وصل إلى الإسكندرية حينما كان السلطان سليم قد أنهى لتوه فتح مصر[3]. ونفهم من هذا الوفد حسب سياق الحوادث أنه وصل لتهنئة السلطان بفتح مصر. ولكن كيف نفهم قبول السلطان تبعية الجزائر إلى الدولة العثمانية من خلال الوفد الذي أرسل في حياة عروج، ثم يتكرر العرض عندما أرسل الأهالي الوفد بعد مقتل هذا الأخير. ثم يتكرر الطلب للمرة الثالثة حينما ذهب خير الدين بنفسه إلى إستانبول؟!

إن ما يمكن استنتاجه من خلال العرض السابق للأحداث، يرجح أنه من المحتمل أن تكون الدولة العثمانية قد قبلت تبعية الجزائر لها، فوضعتها تحت حمايتها، لقاء قراءة الخطبة باسم السلطان سليم الأول باعتباره خليفة المسلمين، دون أن تكون مندرجة ضمن التقسم الإداري للولايات العثمانية. وما يدعو إلى هذا الافتراض

---

(1) أوزتونا 130.

(2) نفسه، 115.

(3) كاتب جلبي، 66.

هو أننا لم نجد ما يثبت أن السلطان العثماني أرسل فرمانا يعلن فيه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية وتعيين عروج واليا عليها مثلما حصل عندما ذهب وفد مدينة الجزائر إلى إستانبول كما سنرى لاحقا. فالسلطان خلال هذه المراسلة اكتفى بإرسال دعم رمزي تمثل في إرسال 2.000 جندي وسفينتين مشحونتين بآلاف القذائف المدفعية التي تم صنعها في إستانبول.

يؤيد هذا الاحتمال الدعم العسكري المحدود الذي أرسل بعد بعثة حاجي حسين كان دعما رمزيا إذا نظرنا إلى عدد المعدات والجنود الذين تم إرسالهم. وحتى إرسال الخلعة والسيف المرصع اللذين أهديا إلى عروج لم يكونا يحملان ما يدل على أن الجزائر صارت إيالة عثمانية. بقدر ما يمكن أن يفهم منهما أنه دعم معنوي. خاصة وقد جرت عادة السلاطين أن يلبسوا من يرضون عنه من رجالهم الخلعة كعلامة على الرضا والقبول. يؤيد هذا الاستنتاج ما جاء في كتاب الغزوات أن هذه الهدايا وصلت إلى عروج حينما كان في تونس، مما كان سببا في تخوف السلطان الحفصي، وبداية تحول المساندة الحفصية للأخوين بربروس إلى عداوة مكبوتة قبل أن يجاهر بها السلطان الحفصي بعد مغادرتهما تونس واستقرارهما في الجزائر بشكل نهائي.

كما يمكن أن يفهم من هذا أيضا أن الدولة العثمانية قبلت حمايتها للجزائر. وهو ما يمكن فهمه من العبارة التي وردت في مذكرات خير الدين بربروس.

وخلاصة القول أن سياق الحوادث يدل أن الجزائر تم إلحاقها بشكل رسمي إلى الدولة العثمانية منذ إرسال الوفد الذي مثل أهالي الجزائر برئاسة ابن القاضي سنة 1519. وأما الذي حدث أثناء رحلة خير الدين إلى إستانبول فلم يكن ضما للجزائر، وإنما يفهم منه تأكيد ولاية خير الدين عليها. خصوصا وأنه صار يقوم بمهمة أخرى وهي قيادة الأسطول العثماني. وربما يمكن اعتبار هذا التاريخ (1533) المرحلة التي أصبحت فيه الجزائر ولاية عثمانية حسب التقسيم الإداري للولايات والمناطق التابعة للدولة العثمانية. إذ لاحظنا أن خير الدين اعتبارا من هذا التاريخ صار يحمل لقب بيلرباي الجزائر، بالإضافة إلى لقبه الآخر الذي هو: قبطان داريا. وذلك باعتباره قائدا عاما للأسطول العثماني.

وعلى هذا فإن الرأي القائل بأن الجزائر أصبحت إيالة عثمانية اعتبارا من سفر خير الدين إلى إستانبول سنة 1533 يبدو بعيدا عن الصواب[1].

وفي الوقت الذي وصل فيه خير الدين بربروس إلى إستانبول، كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا معسكِرا في حلب[2]. وبما أن هذا الأخير كان يعتبر قائدا عاما للجيوش العثمانية، فإن قرارات التعيين والعزل تدخل ضمن صلاحيات الصدر الأعظم.

ولهذا فإن السلطان أمر خير الدين بأن يسافر إلى حلب ليقوم

---

(1) إيفانوف، ص 109.

(2) *Kazıcı, XI, s.332*؛ نجيب عاصم، 4/ 237.

الصدر الأعظم بتعيينه بشكل رسمي بيلربايا على الجزائر، وقائدا عاما للأسطول العثماني[1]. إن هذا الموقف إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى رعاية السلطان للصلاحيات الإدارية المخولة لغيره، حتى وإن كانت هذه الصلاحية تتعلق بمنصب خطير كمنصب البيلرباي أو القبطان داريا[2].

وكيفما كان الأمر فإن خير الدين سافر إلى حلب، واستقبله الصدر الأعظم في مراسيم رسمية مهيبة. ونظم على شرفه احتفالات رسمية استمرت يومين، وذلك باعتباره بطلا عثمانيا في البحر الأبيض، وبيلرباي الجزائر. ثم أجرى معه مشاورات طويلة حول الوضع في البحر المتوسط، والأسطول العثماني. وعلى أثر ذلك قام الصدر الأعظم بتعيين خير الدين باشا في منصب قام قبطان داريا، أي قائدا عاما للأسطول العثماني بالإضافة إلى منصبه السابق كبيلرباي على الجزائر. وبعد انتهاء الاجتماعات التي جمعته بالصدر الأعظم قفل خير الدين باشا عائدا إلى إستانبول[3].

شرع خير الدين فور عودته إلى إستانبول في بناء سفن جديدة لدعم الأسطول العثماني، فتمكن من بناء 61 سفينة حربية، مضافة إلى السفن التي أحضرها معه من الجزائر والبالغ عددها 18 قطعة. كما أضاف إليها 4 سفن أخرى كان قد استولى عليها في طريقه من

---

(1) .age, I.s.161; Kazıcı, age, XI, s.332

(2) Kazıcı,Xı,s.332

(3) .age,II.s,161; Kazıcı, XI, s.332; Asrar, s.213

الجزائر إلى إستانبول. وألحق بالأسطول 20 سفينة نقل أخرى فبلغ عدد وحدات الأسطول العثماني التي تم إعدادها 84 قطعة بحرية[1].

2. محاولة بسط النفوذ العثماني على تونس 1534

كان لتونس أهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للبحر المتوسط؛ وبين مقر الدولة العثمانية، وإيالة الجزائر. فقد كانت تونس تتحكم في المضيق الذي يفصل بينها وبين صقلية. كما كان لها أهمية كبيرة في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي كل شمال إفريقيا. وقد أدرك خير الدين أهميتها، لا سيما وقد عانى كثيرا من مؤامرات سلطان تونس منذ دخوله إلى الجزائر. وهكذا فقد أقنع خير الدين السلطان القانوني بضرورة الاستيلاء على تونس، وضمها إلى الدولة العثمانية لكي يتسنى لها فرض سيطرتها على كامل الشمال الإفريقي، والتحكم في الطرق البحرية في غرب البحر المتوسط. فوافق السلطان على ذلك وأذن له في غزوها[2].

هذا؛ وقد كان الاستيلاء على تونس تحكمه عدة عوامل سياسية كلها في صالح خير الدين. أهمها: اضطراب البلاد التونسية وتجزؤها وكراهية الأهالي لسلطانها مولاي الحسن الذي اشتهر بسفهه وعبثه[3]، منذ جلوسه على عرش السلطنة خلفا لأبيه مولاي محمد

---

(1) Danişmend,,II.s.168 ؛ إلتر، ص 104؛ Asrar,s.213.

(2) كاتب جلبي، ص 20؛ فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص 116؛ وانظر أيضا المطوي، ص 685.

(3) نفسه، ص 116.

الخامس سنة 1525. حيث أمر بقتل جميع إخوته الذكور، ولم ينج منهم سوى أخيه الرشيد الذي لجأ إلى خير الدين بالجزائر مستنصرا به ضد أخيه[1].

وعندما ضاق الناس ذرعا بمفاسده وسفهه، أرسلوا إلى أخيه مولاي الرشيد يدعونه للقدوم إليهم يعدونه بتقديم يد المساعدة على استلام الحكم بدلا من أخيه السلطان الفاسد[2].

في الوقت الذي كانت الأوضاع في تونس تسير على هذا النحو؛ كان خير الدين قد استصحب معه الأمير الحفصي مولاي الرشيد إلى إستانبول ليستخدمه كورقة ضغط ضد السلطان الحسن الحفصي في تونس[3]. ولكن حينما غادر خير الدين إستانبول، أبقى السلطان سليمان القانوني مولاي الرشيد عنده في إستانبول، وخصص له معاشا كبيرا قدره 500 أقجة يوميا، مع تأمين كافة احتياجاته[4].

عندما أتم خير الدين استعداداته في إستانبول غادرها بأسطول عثماني قوّته العسكرية مكوّنة من 800 انكشاريا، و8.000 بحارا[5].

---

(1) اختلفت الروايات في عدد إخوته الذين أمر بقتلهم، بين 22 و34 و45. انظر: Danişmend.II.s 61.

(2) ابن دينار، مصدر سابق، ص 163-164؛ **الغزوات**، ص 92؛ إلتر، ص 112.

(3) كاتب جلبي، ص 20؛ Danişmend,age,II.s.61

(4) بجوي، مصدر سابق، ص 492؛ كاتب جلبي، 20

(5) Danişmend,II.s.168

فأغار على سواحل إيطاليا وقام بتخريب ونهب قلاع سبيرلونغا، وكترارو، وسان لوسيدو، وريجيو وغيرها. فاستولى من ذلك على غنائم هائلة[1]. فأثارت غزوات خير الدين على السواحل الإيطالية رعبا كبيرا في أوربا بأسرها، خصوصا لدى البابا الذي بدأ يعتقد أن الأتراك عازمون على فتح روما. ولذلك أمر باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذا الوضع الخطير[2].

كان خير الدين يوهم جميع القوى الأوربية والشمال إفريقية بأن وجهته التي يسير إليها هي روما، حتى يصرف أنظار الدول الأوربية خصوصا إسبانيا عن مهاجمته في تونس. وبهذه الغارات المظفرة تمكن من إجبار أوربا على تشتيت قواتها على طول سواحلها المطلة على البحر المتوسط كي لا تتعرض لغزو البحارة الأتراك[3].

وفي صبيحة يوم 15ماي 1534 رسا الأسطول العثماني في ميناء بنزرت التونسي. حيث قام باحتلال حلق الوادي بسهولة، وأنزل قواته إلى البر. فاستقبله الأهالي بترحاب كبير. وأعلن

---

(1) ورد في كتاب الغزوات أن خير الدين ساق معه إلى تونس 11.000 أسيرا. وقد كان هذا العدد الهائل سببا في تغيير سير المعركة أثناء حملة شرلكان على تونس. إذ تمكن هؤلاء الأسرى من فك قيودهم والاشتراك في القتال ضد الأتراك. الأمر الذي أدى إلى هزيمة خير الدين وانسحابه من تونس كما سنعرف لاحقا. انظر: **الغزوات**، ص91.

(2) age,II.s.168

(3) age.II.s.

الدعوة باسم السلطان العثماني على منابر بنزرت، مما يعني إلحاقا رسميا لتونس بالدولة العثمانية[1]. ثم دخل تونس بخمسة آلاف من الفرسان استولى بهم على قلعة المدينة[2]. وعندما علم مولاي الحسن بنزول خير الدين فرّ هاربا إلى الصحراء مستجيرا بحلفائه من أعراب البوادي[3]. بينما تم إلقاء القبض على أنصاره الذين تصدوا للأتراك وسجنوا في القلعة. كما تم إعدام بعض الزعماء الذين وضعوا ترتيبات المقاومة[4].

فوجئ التونسيون بعدم استصحاب خير الدين لمولاي الرشيد، فأدركوا أن بلادهم سوف تحكم باسم السلطان العثماني وليس باسم سلطانهم الحفصي الجديد مولاي الرشيد، الذي كانوا ينتظرون قدومه مع خير الدين.

لقد كان أهالي تونس قد ألفوا الإدارة الحفصية على مدى 300 سنة، ولم يكن في وسعهم هضم فكرة زوال دولتهم على هذا النحو المفاجئ. لقد كانوا يأملون في استبدال سلطان فاسد بآخر أصلح منه. أما أن يتم القضاء على دولة شبّ عليها الصغير وشاب عليها الكبير بهذه السرعة وعلى هذا النحو فهو ما كان بالغ الصعوبة بالنسبة لهم.

---

(1) ابن أبي الضياف، 2/ 11؛ المطوي، مرجع سابق، ص 685؛ كاتب جلبي، ص 20.

(2) إلتر، ص104.

(3) المصدر السابق، 2/ 11.

(4) المرجع السابق، ص 112.

ولا شك أن الدعاية السيئة التي أشاعها الأمير الحفصي المخلوع وأنصاره عن الأتراك قد لعبت دورا كبيرا في تأليب الرأي العام عليهم، ودفع أهالي تونس إلى الانقلاب على خير الدين، قبل أن يفيقوا على هول الصدمة التي أحدثتها حملة شارلكان على تونس خلال محاولة خير الدين ضم تونس إلى الدولة العثمانية.

هذا؛ وعقب استيلاء خير الدين باشا على تونس أرسل بعض أعيان المدينة سرا إلى مولاي الحسن يدعونه إليهم، معلنين تبرأهم من خير الدين وانضمامهم إلى مولاي الحسن. فجمع قواته ومن انضم إليه من أنصاره وأغار بهم على تونس. غير أنه سرعان ما لاذ بالفرار بعدما فقد 300 من رجاله. فلجأ إلى القيروان حيث استطاع أن يجمع 15.000 من أنصاره. فسار إليه خير الدين والتقى الجمعان في الصحراء. لكن ما إن شرع خير الدين في إطلاق النار من مدفعيته التي لم يكن للقبائل المناصرة لمولاي الحسن عهد بها، حتى سارع شيوخ تلك القبائل إلى إعلان استسلامهم وخضوعهم. وأقبلوا على خير الدين مقدمين له فروض الطاعة والولاء[1].

أما مولاي الحسن فإنه لاذ بالفرار موليا وجهه شطر الملك شارلكان مستنصرا به لاستعادة عرشه من خير الدين[2].

---

(1) ابن أبي الضياف، 2/ 11-12.

(2) المصدر نفسه، 2/ 12؛ المدني، 229.

3. حملة شرلكان على تونس 1535

كان تولي خير الدين لقيادة الأسطول العثماني، وغاراته على السواحل الإيطالية تشير إلى أن الأتراك عازمون على فتح جبهة جديدة للصراع مع أوربا المسيحية التي كان شرلكان ممثلها السياسي، كما كان البابا ممثلها الديني.

ثم كان استيلاء خير الدين على تونس، واستنجاد الملك الحفصي مولاي الحسن بشرلكان. بالإضافة إلى مراجعة فرسان القديس يوحنا له لكي يقدم لهم العون اللازم لمواجهة الخطر الذي بات خير الدين يشكله على وجودهم في جزيرة مالطة التي لجؤوا إليها بعد إخراجهم من جزيرة رودس[1].

كل هذه العوامل كانت دافعا قويا لكي يقرر شارلكان غزو تونس. ليس رغبة في إعادة الملك الحفصي إلى عرشه أو دفاعا عن فرسان مالطة، وإنما ليضمن لنفسه قاعدة عسكرية مهمة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. تحقق له عددا من الأهداف الاستراتيجية. أهمها:

1. تأمين السواحل الإيطالية من غارات الغزاة الأتراك والجزائريين.
2. تأمين خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا.
3. تأمين الحماية اللازمة لفرسان جزيرة مالطة الذين وكلت إليهم مهمة السيطرة على طرابلس الغرب.

---

(1) Danışmend,age, II.s.175

4. والأهم من هذا كله محاولة قطع خطوط المواصلات بين الأسطول العثماني الذي يقوده خير الدين، وقواعده في الجزائر. ومحاصرة مدينة الجزائر من الشرق والغرب، تمهيدا للخطوة التالية الرامية إلى احتلالها والقضاء النهائي على الوجود العثماني في شمال إفريقيا.

وهكذا؛ استغل شرلكان فرصة وجود الجيش العثماني في بغداد حيث كان في طريقه لغزو تبريز ليقوم بغزو تونس وهو مطمئن إلى عدم وصول أي إمدادات إلى خير الدين[1]. فأبحر الأسطول الإسباني من برشلونة يوم 31 مايو 1535 في حملة عسكرية كبيرة مكونة من 500 قطعة بحرية على متنها 30 ألف مقاتل من إسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، والبرتغال، والبابا، وبلجيكا، بالإضافة إلى فرسان مالطة[2]. فوصلت الحملة إلى سواحل تونس يوم 16 جوان 1535[3].

لم تكن القوة التي مع خير الدين كافية بحيث يمكنها أن تتصدى لحملة كهذه[4]. إذ لم يكن لديه سوى 7.000 من الأتراك، ونحو

(1) Danişmend. II.s.175

(2) age.II.s.175؛ إلتر، ص115؛ ذكر صاحب الوزير السراج أن عدد القوات التي كانت مع شرلكان بلغت 100 الف جندي. انظر ابن السراج، مصدر سابق، ص 20.

(3) Danişmend, age, II.s.176

(4) أشار ابن أبي الضياف إلى أن أعيان تونس عندما بلغهم استعداد شرلكان لغزو تونس، طلبوا من خير الدين أن يحضر أسطوله للدفاع=

5.000 من أهالي تونس المؤيدين له[1]. وبالرغم من عدم تكافؤ القوة بين قوات شرلكان، وقوات خير الدين. إلا أن الأتراك والتونسيين تمكنوا من الصمود أمام القوات الغازية شهرا كاملا، أظهروا خلاله ثباتا عظيما، قبل أن يسقط ميناء تونس في أيدي الغزاة في 15 جويلية 1535[2].

لم تكن صعوبة الوضع الذي كان عليه خير الدين نابعا من الفرق الهائل بين القوات المسيحية، وقواته المدافعة عن تونس فحسب؛ بل كانت القوات المحلية التي التفت حول السلطان التونسي مولاي

= عن تونس. إلا أن خير الدين لم يجبهم إلى ذلك اعتمادا على مساندة أهل تونس في الدفاع عن المدينة. انظر 2/ 12. ولكن الذي يبدو هو أن خير الدين لم يفعل ذلك لكي لا يترك مدينة الجزائر بدون أسطول باعتبارها مركز قيادته في شمال إفريقيا

(1) أشار الوزير ابن السراج أن عدد القوات التي كانت مع خير الدين بما فيهم أهالي تونس الذين انضموا إليه بلغت 18.000 جندي. انظر: المصدر السابق، 2/ 205؛ ووافقه ابن أبي دينار، ص 184-185. مع احتمال أن يكون هذا الأخير قد نقل عن الوزير السراج، إذ يلاحظ أن معظم الحوادث التي يوردها عن هذه المرحلة تكاد تكون منقولة حرفيا عنه. أما ابن أبي الضياف فقد ذكر أن عدد القوات التركية التونسية كانت 12.000 جندي. انظر، ابن أبي الضياف، مصدر سابق ،2/ 12-13. وقد أيد سميح إلتر هذه الرواية. انظر ص 117 وانظر أيضا: Danişmend.II.s.168.

(2) age, II. s.177

حسن، تمثل ضغطا إضافيا عليه. فكان على خير الدين أن يواجه في الوقت نفسه عدوا خارجيا يتمثل في الجيش الإسباني ومن يسنده من القوات المسيحية الغازية، وعدوا داخليا يتمثل في جموع الأعراب التي جمعها سلطان تونس[1].

وزاد الأمر خطورة أنه في الوقت الذي كانت فيه معركة تونس تجري على أشدها، انتهز الأسرى خلو المدينة من الحرس الذين خرجوا إلى مشارف المدينة للدفاع عنها. فتخلصوا من قيودهم[2] وهاجموا قلعة المدينة التي لم يكن بها سوى عدد قليل من الجنود فقتلوهم جميعا، وأغلقوا أبواب المدينة ليمنعوا خير الدين وجيشه من التحصن بها[3].

يقول المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف واصفا معركة تونس

---

(1) Danişmend,age,II.s.177

(2) يرى سميح إلتر أن خير الدين كان قد عهد بمسؤولية المحافظة على المدينة إلى رجل يدعى فرنك جعفر. ووضع في عهدته سبعة آلاف أسير. ولكن فرنك جعفر خان خير الدين وأطلق سراح الأسرى، الذين استولوا على المدينة وأغلقوا أبوابها. انظر، إلتر: ص 117؛ بينما يرى أحمد أسرار أن القوات المحلية التي أيدت خير الدين في أول الأمر غدرت به، وهي التي أطلقت سراح الأسرى المسيحيين تقربا منها إلى شرلكان. انظر: Asrar,age,223.

(3) ابن أبي الضياف، 2/ 13؛ ابن السراج، 2/ 205؛ ابن أبي دينار، ص 185؛ إلتر، ص 117.

بقوله:

«.. فخرج لهم خير الدين في 12.000 من صناديد المقاومين، وصدقوا العزيمة في القتال. فاستولى إلى البرج المذكور (برج العيون) ثم رجع بمن معه إلى المدينة، فاضطرب عليه أهلها. فبعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم جنح لطاعة السلطان ابن أبي حفص. فجمع أعيان الناس وتكلم معهم فاختلفوا عليه. فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب. وجاءه المدد من الأعراب، ظاهرهم معه وقلوبهم عليه، فانهزموا بالجيش»[1].

فحسب هذه الرواية يبدو أن سبب انهزام خير الدين يعود إلى الانقسام الذي حصل بين أنصاره من أهالي تونس. بينما يفهم من سياق ما ورد في المصادر والمراجع السالفة أن سبب انهزامه يعود إلى تمرد الأسرى، وتواطؤ السلطان الحفصي المخلوع مع الإسبان، مدعوما بأنصاره من داخل مدينة تونس وخارجها.

وكيفما كان الأمر؛ فإن خير الدين قد وجد نفسه مجبرا على الانسحاب من تونس إلى عنابة عن طريق البر. ومن هناك ركب سفنه التي أقلّته مع من بقي من رجاله إلى الجزائر[2].

عقب انسحاب الأتراك استولى الإسبان على حلق الوادي، وغنموا 40 مدفعا مع كميات من الأسلحة والمعدات العسكرية

---

(1) ابن أبي الضياف، 2/ 12-13.

(2) ابن أبي دينار، ص 185؛ إلتر، ص 117؛ Hammer, III.s.148 Danişmend, II.s.190; Asrar, s.214.

كان الأتراك قد تركوها عند انسحابهم. بينما دخل السلطان الحفصي تونس تحت حماية الإسبان، بعد أن اتفق سرا مع شرلكان على إباحته لهم نهب المدينة ثلاثة أيام[1].

وهكذا؛ ففي الوقت الذي عاد فيه أهالي تونس لممارسة أعمالهم اليومية بشكل طبيعي، إذا بالجنود الإسبان يغيرون عليهم على حين غفلة يعملون السيف في من استطاعوا الوصول إليه، كما قاموا بنهب كل ما وصلت إليه أيديهم. ولم ينج من المذبحة سوى من تمكن من الفرار بنفسه وأهله[2]. حتى ذكر المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف أنه:

«قتل في هذه الوقعة الثلث من أهل تونس، ونجا الثلث، وأسر الثلث. والمأسور يفتدي إن كان له مال. وقد بلغت الفدية ألف دينار. وتغيرت البلاد وطمست أعلامها»[3].

أما المؤرخ الفرنسي هنري فارو ***Henri Faro*** فقد صرح بأن عدد القتلى من سكان تونس خلال الثلاثة أيام قد بلغ 70 ألفا[4].

في أثناء عملية القتل والنهب، كان الإسبان يبحثون في المنازل والصناديق ومخازن الطعام، وحتى الآبار البعيدة عن كنوز تونس.

---

(1) عن مذبحة الإسبان في تونس، انظر: ابن أبي الضياف، 2/ 13؛ ابن السراج، ص2/ 205؛ ابن أبي دينار، ص186؛ إلتر، 117- 118.

(2) المدني، ص 233.

(3) ابن أبي الضياف، 2/ 13.

(4) H.Garrot, Histoire generale de l'Algerie, Paris 1889, s.38

ولم يتركوا مكانا إلا وبحثوا فيه. وبعد ذلك قاموا بتهديم المدارس والجوامع، ومزقوا وأحرقوا نوادر الكتب القيمة. وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بجثث القتلى من مختلف الأعمار. ولم ينج من هذه المجزرة لا المسلمون ولا اليهود، حتى غدت المدينة خالية من الأهالي[1].

ولم يكتف الإسبان بقتل من قدروا عليه، بل أرسل شرلكان إلى الأعراب يغريهم بالقبض على من يفر إليهم من أهالي تونس. وجعل لهم جائزة على كل أسير يأتون به إليه.

«فخرج العربان في طلبهم، وأخرجوهم من كل شِعْب ووادي، وأتوا بهم إلى النصارى. فكان طلب العربان أشدّ على المسلمين من النصارى. وأخذوا ما شرط لهم. والبعض فدى نفسه من البادية. وبلغت فدية الرجل ألف دينار وأكثر. ومن لم يفد نفسه يرسلوه إلى النصارى...»[2].

وهكذا؛ فقد تعرضت تونس لعمليات قتل جماعي وانتهاك للأعراض، ونهب للممتلكات لم يشهد له ذلك العصر مثيلا[3]. حتى تحولت المدينة بأكملها إلى ركام من الخراب والدمار[4]. ولم يبالغ المدني كثيرا حينما شبهها بمجزرة القدس يوم دخلتها الجيوش

---

(1) إلتر، ص 117-118.

(2) الوزير السراج، 2/ 205.

(3) Asrar ,age, s.223

(4) bak.Hammer, V, s.171-177

الصليبية أول مرة، أو مذبحة بغداد يوم دخلها التتار بقيادة هولاكو[1].

ومهما اختلفت الأرقام التي يوردها المؤرخون في عدد الضحايا التي خلفتها تلك المجزرة، فهي بلا شك كانت فاجعة كبيرة. وإلا فما الذي يمكن توقعه من جيش موغل في التعصب والساديّة يتلذذ بقتل البؤساء من الأطفال النساء والعجزة في وهران وبجاية، قبل أن يكرر ذلك بطريقة أكثر دموية في تونس؟!.

ولا نحتاج إلى كثير من التدقيق لتوقع هول الفظائع التي تعرض لها أهالي تونس، مكتفين بما ذكرناه سابقا، ونزيد عليه ما جاء في الرسالة التي وجهها الإمبراطور شرلكان نفسه إلى حاكم بجاية يقول له فيها بعد استيلائه على تونس:

«ولكن بما أن سكان تونس لم يستقبلوا ملكهم استقبالا حسنا كما هو واجبهم. فقد رأينا أن نأمر بنهب المدينة انتقاما منهم على سلوكهم»[2].

وبعد أن أنهى الإسبان مجازرهم، عقد شرلكان مع السلطان التونسي معاهدة نصت على ما يلي:

1. اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الإسبانية.
2. ملكية الإسبان ملكية مطلقة لميناء حلق الوادي وقرطاجنة

---

(1) المدني، ص 233.

(2) انظر نص الرسالة ضمن وثائق أرشيف سيمانكاس نقلا عن المدني، 234.

وعنابة والمهدية.

3. التزام السلطان أن لا يدخل بلاده أحدا من مهاجري الأندلس، يهوديا كان أو مسلما.

4. إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

5. السماح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية في منتهى الحرية.

6. يتعهد مولاي الحسن في كل سنة بتقديم 12 حصانا، و12 مهرا للإمبراطور.

7. دفع 12.000 دوقة[1] سنويا للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي.

8. إذا تخلف مولاي الحسن عن أي شرط، سيدفع 50.000 دوقة. وفي المرة الثانية 100.000، وفي المرة الثالثة تؤخذ البلاد منه[2].

وهكذا نجد أن تونس لم تخضع للعثمانيين سوى سنة واحدة تقريبا، لتصبح بعد استيلاء الإسبان عليها محمية إسبانية. وظلت خاضعة لهم لمدة 39 سنة. أما بنو حفص فقد كانوا يحكمون تونس خلال هذه المدة حكما اسميا فقط، إلى أن استولى عليها العثمانيون

---

(1) الدوقة: عملة فلورنسية (نسبة إلى فلورنسا) وهي تعادل درهمين عثمانيين. وقد استخدمتها الدولة العثمانية كعملة ذهبية فقط. انظر إلتر، ص119.

(2) انظر صورة عن المعاهدة التي أملاها شرلكان على سلطان تونس في قسم الملاحق، مصورة عن أرشيف سيمانكاس، نقلا عن المدني 234؛ وانظر أيضا إلتر، ص 119-120.

مرة أخرى سنة 1569[1].

4. احتلال الإسبان لمدينة عنابة 1535

ما كاد خير الدين يغادر عنابة بعد انسحابه إليها من تونس سنة 1535 ويعود إلى الجزائر، حتى بادر الإسبان إلى مهاجمة عنابة التي كانت تابعة اسميا لسلطان بني حفص بتونس، والتي اعترف سلطانها أبو الحسن الحفصي بالتنازل عنها للإسبان بناء على ما نصت عليه المعاهدة التي عقدت بين الملك الحفصي وشرلكان[2].

فهاجم الإسبان المدينة في أوت 1535. وبعد مقاومة دامت 3 أيام انسحب أهلها منها. فترك الإسبان بالمدينة حامية عسكرية تتولى حراستها[3].

5. مهاجمة جزر الباليار، وجنوب إيطاليا

بعد احتلال تونس وعنابة من طرف الإسبان. أراد خير الدين

---

(1) A.Asrar, s.223 .

(2) انظر صورة من المعاهدة المبرمة بين شرلكان والسلطان أبي الحسن الحفصي في قسم الملاحق. حيث يلاحظ القارئ أنها نصت على تنازل السلطان الحفصي عن بونة (عنابة) للإسبان. وقد قام عبد الله عنان بتصوير المعاهدة من أرشيف سيمانكاس الإسباني، ونشرها في **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد**. المجلد 19، 1976-1978، ص17.

(3) انظر نص الرسالة التي بعث بها قائد الحملة الإسبانية على مدينة عنابة إلى الإمبراطور شرلكان بتاريخ 29 أوت 1535، والتي بين فيها تفاصيل الحملة في المدني، ص 239-240.

أن يُشعر إسبانيا بأن استيلاءهم على هاتين المدينتين لن يؤثر على طبيعة الصراع أو نتيجته. وأنه قادر على نقل الصراع إلى إسبانيا، وتهديد جزرها، ومدنها الساحلية في الوقت الذي يشاء. ولإثبات ذلك استغل خير الدين فرصة انشغال الأسطول الإسباني بتونس، ليتوجه على رأس أسطول كبير مكون من 32 قطعة بحرية، أغار بها على جزر الباليار. حيث احتل مدينة ماهون بجزيرة مايورقة، واستولى من هناك على عدد هائل من الغنائم، بالإضافة إلى 6.000 أسير أمر بإرسالهم جميعا إلى الجزائر[1].

كانت هذه الغارة ردا عمليا على احتلال تونس. وأفسدت على شرلكان نشوة النصر التي شعر بها عقب احتلاله لتونس وعنابة. وفي الوقت نفسه خففت من وقع انسحاب الأتراك منها. وبالفعل لم يكن لاحتلال تونس أي تأثير حقيقي على مجريات الأحداث في الجزائر خاصة، والشمال الإفريقي عامة. فقد استمرت الحملات على السواحل الإسبانية، والغارات السريعة على السفن الأوربية كما كانت عليه من قبل أو أكثر.

ولم يكتف خير الدين بما حققه في جزر الباليار؛ بل أغار على قلعة قسطيلية ***Castello*** في جنوب إيطاليا. وقام بتخريبها بعد أن استولى على عدد كبير من الأسرى، عاد بهم جميعا إلى إستانبول التي كان قد سبقه إليها السلطان سليمان القانوني عائدا من حملته على

(1) Danişmend,II.s.190; Asrar,s.214

تبريز[1].

ذ. محاصرة جزيرة قورون Koron 1537

وفي سنة 1537 خرج خير الدين بربروس بأمر من السلطان القانوني على رأس أسطول عثماني مكون من 280 قطعة بحرية من مختلف الأحجام. فأغار به على أولونيا ***Avlonya***، مرورا بقورون ***Koron***، ومودون ***Modon***، وبروزة ***Preveze***[2].

لقد كان القانوني يهدف من وراء هذه الحملة إلى فتح روما بعد أن يستولي على مملكة نابولي. فيحقق بذلك الحلم الذي طالما راود خيال أجداده السلاطين العثمانيين منذ عصر الفاتح[3].

وفي الوقت الذي غادر فيه خير الدين إستانبول، كان القانوني قد خرج على رأس الحملة الهمايونية السابعة متوجها إلى أولونيا عن طريق البر. ولكن قبل أن يبلغ الجيش العثماني غايته، ترامت إلى القانوني أنباء عن نقض جنوة لمعاهدة السلم التي كانت تربطها بالدولة العثمانية منذ سنة 1502. وأعلنت تحالفها مع الإمبراطور شرلكان في حربه ضد العثمانيين[4].

فكانت هذه الخطوة سببا في دفع القانوني إلى تأجيل حملته على

---

(1) age,II,s.190-191

(2) age,II.s.192

(3) age,II,s.192

(4) age, II.s.192

روما، وأعطى أوامره إلى قواته بالتوجه إلى جزيرة قورفو ***Korfu*** الواقعة على ساحل بحر الأدرياتيك، والتي كانت تابعة لجنوة[1]. فقام الأسطول العثماني بفرض حصار على الجزيرة من البحر، بينما قام 25.000 جندي بمحاصرة قلعتها من البر لمدة 12 يوما. لكن سوء الأحوال الجوية، ووصول أنباء عن تحرك القوات الصفوية في إيران نحو تبريز، وإرسال الجنويين لوفود معلنة رغبتها في تجديد معاهدة الصلح، كل هذه الأسباب وغيرها دفعت القانوني إلى رفع الحصار عن القلعة والعودة إلى إستانبول[2].

أما الأسطول الذي كان يقوده خير الدين فإنه أغار في أثناء رجوعه إلى إستانبول على 12 جزيرة من الجزر الواقعة على بحر الأدرياتيك والتي كانت تابعة لجمهورية البندقية. فحاز من ذلك على غنائم هائلة عاد بها جميعا على إستانبول[3].

ر. معركة بروزة وسيطرة العثمانيين على البحر المتوسط 1538

ترامت إلى مسامع السلطان سليمان القانوني الجهود التي كان البابا بول الثالث لتوحيد أوربا ضد الأتراك. وكللت جهوده بعقد هدنة مدتها عشر سنوات بين ملك فرنسا فرنسوا، وبين الإمبراطور

(1) age,II.s.195

(2) age,II.s.195

(3) age,II.s.199

شرلكان. ثم لم تلبث البندقية أن انضمت إلى هذه المعاهدة[1].

ثم تبع ذلك عقد تحالف صليبي سنة 1538 ضم معظم الدول الأوربية الكبيرة في ذلك العصر مثل إسبانيا، وألمانيا، والبرتغال، والبندقية. بالإضافة إلى الدول الصغيرة كجنوة، ومالطا، وفلورنسا. ولم يتخلف عن هذا الحلف سوى فرنسا، وإنجلترا. وقد تم هذا الحلف برعاية البابا، وزعامة شارلكان[2].

كان هدف شرلكان من هذا التحالف، الاستفادة من هذا الأسطول للقضاء على القاعدة العثمانية في الجزائر. بينما كانت البندقية تهدف إلى استعادة الجزر التي استولى عليها العثمانيون في بحر إيجة[3].

وهكذا فقد شهدت سنة 1538 احتشاد أكبر أسطول أوربي في عرض البحر المتوسط، لم يعرف تاريخ الحروب البحرية له مثيلا منذ معركة أكسيوم التي قادها ولي عهد إمبراطورية روما أوكتافيانوس ماركوس أنتونيوس ***Octavianus Macus Antonius*** ضد أسطول كليوبترا، والتي وقعت في سواحل اليونان سنة 31 قبل الميلاد[4].

---

(1) Uzunçarşılı,II,s.377, Mehmed Maksudoğlu, Osmanlı Tarihi, s.157

(2) Yılmaz Öztuna,Türkiye Tarihi, İstanbul,1965, VI, s.9

(3) age,II,s.377 ؛ هارلود لامب، **سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم**، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد 1961، ص207.

(4) Öztuna,VI,s.11 ؛ هارود لامب، ص 210.

كانت قيادة هذه الحملة قد أسندت من طرف شرلكان إلى البحار الجنوي الشهير أندريا دوريا. حيث وضع تحت تصرفه أسطولا مكوّنا من أكثر من 600 قطعة بحرية. منها 308 سفينة حربية كبيرة، مزودة ب 250 مدفع. أما القطع الباقية فقد كانت عبارة عن سفن حربية ونقل صغيرة[1]. كان الأسطول يحمل على متنه 60.000 جندي من جنسيات وأعراق مختلفة لا تجمعهم سوى غاية النهب والانتقام. كما كانت المنافسة والحسد على أشدّهما بين قادة الأسطول الصليبي. ولم يتردد قائد الوحدات البابوية، وقائد الوحدات البندقية في التحالف الصليبي في اتهام أندريا دوريا بعد الهزيمة التي منوا بها، بأنه غدر بهم وخانهم.

وبالرغم من ذلك، فقد كان قادة الأسطول الصليبي على ثقة تامة من كسب المعركة دون عناء يذكر. وذلك اعتمادا على التفوق العددي والعسكري الكبير الذي كانوا يتمتعون به. حتى أنهم قاموا باقتسام ممتلكات الدولة العثمانية قبل بداية المعركة[2].

---

(1) ذكر هارود لامب أرقاما قريبة من هذه. انظر، ص210.

(2) Öztuna,Türkiye Tarihi,VI,s.9. وقد ذكر هارولد لامب أن الحلفاء اتفقوا على أن البندقية ستسترجع ما كانت تملكه في إبّان مجدها. أي تستعيد نفوذها في بحر الدردنيل. والإمبراطور شرلكان سوف يستعيد مجد روما القديم ومنه إستانبول نفسها. أما العثمانيون فسوف يجبرون على التراجع إلى ما وراء مضيق البوسفور، أي إلى داخل آسيا التي خرجوا منها قبل قرون. انظر، هارلود لامب، ص 207.

أما الأسطول العثماني فقد كان مكونا من 122 قطعة بحرية، تقل 20.000 جنديا[1]. تولى خير الدين القيادة الرئيسية للأسطول. يساعده في ذلك أمهر البحارة العثمانيين الذين لعبوا دورا كبيرا في تثبيت الوجود العثماني في البحر المتوسط وشمال إفريقيا، أمثال: صالح رئيس، وتورغوت رئيس، وسيد علي المرادي رئيس.

بالإضافة إلى ذلك أن الأسطول العثماني كان متجانسا من حيث الهدف والغاية التي يرمي إلى تحقيقها من هذه المعركة. كما كانت معظم قطعه الحربية تتكون من سفن صغيرة خفيفة تسهل عليها القيام بالمناورة والالتفاف حول سفن العدو الضخمة المثقلة بالجنود والمعدات. وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه السفن الصليبية الثقيلة تدور بتثاقل، كانت القوارب العثمانية تقوم بعمليات التفاف سريعة خلفها لتوجه إليها قذائف مدافعها بسهولة.

---

(1) يوجد اختلاف كبير في عدد جنود الأسطول العثماني. فقد أشار كل من أزون تشارشيلي *Uzunçarşıl*,II,s.377، ومقصود أوغلو *Maksudoğlu*,s,157، وضياء قازيجي *Ziya Kazıcı*,XI,s.336 إلى أن عدد جنود الأسطول العثماني بلغ 8000 جندي؛ بينما ذكر يلماز أوزتونا أن عدده كان 20.000 جندي. انظر: *Öztuna*,s.10. لكن المؤرخ التركي إسماعيل حامي دانشمند İsmail *Hami* Danişmend أشار إلى أن الرواية التي ذكرت أن القوات العثمانية كانت مكونة من 20.000 جندي مبالغ فيها بعض الشيء. غير أن المؤكد هو وجود فارق كبير جدا في العدد والعدة بين الأسطول العثماني والأسطول الصليبي. انظر: *Danişmend*,II,s.212.

ومن الناحية التقنية كان الأتراك يستخدمون مدافعا تعتبر أكثر تطورا من تلك التي يستعملها الأوربيون، والتي كان البحار التركي الشهير كمال رئيس قد قام بتطويرها قبل نصف قرن من تاريخ هذه المعركة. حيث كان الأتراك يملكون المدافع البعيدة المدى، بينما لم يكن الأوربيون يستعملون سوى المدافع القصيرة المدى. وهكذا فعندما كان الأتراك يقصفون السفن الأوربية من مسافات بعيدة، كانت القذائف الأوربية تتساقط في مياه البحر دون أن تبلغ هدفها، لكونها لم تستطع الوصول إلى السفن العثمانية.

تحرك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين باشا في 25سبتمبر 1538 متوجها صوب جنوب غرب بحر إيجة، حيث رسا بميناء أغريبوز ***Ağrıboz***. وفي هذه الأثناء بلغته أنباء قيام أندريا دوريا بمحاصرة وقصف قاعدة بروزة التي كانت تعتبر أحد أهم قواعد الأسطول العثماني على الساحل اليوناني. فأرسل خير الدين تورغوت رئيس على رأس طليعة من الأسطول مكونة من 20 قطعة بحرية لمراقبة تحركات الأسطول الصليبي. بينما توجه هو على رأس بقية الأسطول العثماني إلى قاعدة مودون ***Modon*** الواقعة على السواحل الشرقية لشبه جزيرة المورة ***Mora yarım adası***.

كان أندريا دوريا على وشك حشد قواته في كورفو ***Korfu***. غير أنه لما بلغه نبأ اقتراب الأسطول الهمايوني بقيادة خير الدين بربروس أمر برفع الحصار عن بروزة والانسحاب إلى شمالها. وذلك لاستدراج

الأسطول العثماني إلى خوض معركة غير متكافئة، بعد أن يحصره في حيّز ضيّق. ويتمكن بذلك من تدميره بسهولة، والقضاء عليه في بروزة.

كان أندريا دوريا قد قام بهذه المناورة في ليلة 28 سبتمبر. ولكن حينما طلع الصباح فوجئ بالأسطول العثماني راسيا على مسافة قريبة من الأسطول الصليبي. ذلك لأن خير الدين كان قد قام بنفس المناورة، وأخذ وضعية الاستعداد للمعركة في عرض البحر.

أمر أندريا دوريا بالاقتراب من الأسطول العثماني كي يكون في مرمى مدفعيته. وفي هذه اللحظة أصدر خير الدين أمره إلى تورغوت رئيس بالالتفاف حول الأسطول الصليبي، بينما اتخذت وحدات الأسطول العثماني شكل الهلال، وأخذت في التوسع على الجانبين تمهيدا للإطباق على أسطول العدو بواسطة الجناحين، بالإضافة إلى الهجوم الرئيسي الذي كان سينطلق من قلب الأسطول العثماني.

ساعدت الرياح التي كانت تهبّ باتجاه معاكس للأسطول الصليبي على إدارة المعركة لصالح العثمانيين الذين شرعت وحدات أسطولهم الرئيسية في قصف السفن الأوربية بقذائف المدفعية[1].

---

(1) ذكر كاتب جلبي أن عاصفة جنوبية هبت باتجاه معاكس للأسطول العثماني. الأمر الذي كان يشكل خطرا كبيرا على سير المعركة. فقام خير الدين بكتابة بعض آيات من القرآن الكريم في صحيفة ثم مسح بها سطح الماء متضرعا إلى الله. فهدأت الريح وأخذت اتجاها =

في هذا الوقت كان تورغوت رئيس قد أتم التفافه حول السفن المعادية، وشرع في قصف سفن التحالف الصليبي الثقيلة التي سادها الاضطراب والفوضى، فراحت تنشد النجاة في محاولة يائسة للفرار. فكان من نتيجة هذا الاشتباك أن تم إغراق عدد كبير منها.

جعلت الهزيمة السريعة والمباغتة أندريا يقوم بعملية انسحاب مفاجئة وسريعة. وما إن حل الظلام حتى أعطى أوامره إلى قواته الباقية بأن تطفئ المصابيح، ثم تلوذ بالانسحاب[1]. مسجلا بذلك أكبر هزيمة في تاريخ المعارك البحرية حتى ذلك العصر، في معركة لم تزد على خمس ساعات رغم التفوق العددي الهائل الذين كان بين القوتين المتحاربتين.

وفي هذا الوقت انتهز خير الدين فرصة ارتباك الأسطول الصليبي فأمر بتعقب السفن الهاربة. فقام تورغوت رئيس بمطاردتها، والاستيلاء على عدد من السفن التي لم تتمكن من الفرار.

لقد خسر الصليبيون في هذه المعركة نصف سفنهم التي بلغت 123 سفينة حربية. بين سفن غريقة وأخرى معطوبة. كما قام العثمانيون بإغراق عدد كبير منها، والاستيلاء على 36 سفينة، بالإضافة إلى 3.000 أسيرا. أما خسائر العثمانيين فقد كانت 400

= آخر معاكس لأسطول التحالف الأوربي. انظر: كاتب جلبي، 1/ 83. وقد أكد هارولد لامب رواية هبوب العاصفة، دون الإشارة إلى دورها في سير المعركة. انظر هارولد لامب، ص215.

(1) هارولد لامب، ص 215-216.

شهيدا، و800 جريحا[1].

كانت أهم نتيجة تمخضت عن هذه المعركة هي سيطرة العثمانيين على شرق ووسط البحر المتوسط بدون منازع[2].

ز. حملة شرلكان على الجزائر 1541 والنتائج المترتبة عن فشلها

أراد شرلكان أن تكون هذه الحملة ضربة قاصمة للوجود العثماني في الشمال الإفريقي كله، وفي الجزائر خاصة. وقد ارتبطت هذه الحملة بعدة عوامل، أهمها:

1. رغبة شرلكان في الانتقام للشرف الإسباني الذي لُطِّخ بسبب الهزيمة العظيمة التي مُني بها الأسطول الإسباني في معركة بروزة سنة 1538[3]. وازدياد العمليات العسكرية التي يقوم بها غزاة الجزائر على السواحل الأوربية في إيطاليا، وسردونيا، وجزر الباليار. حتى ضاق أهلها ذرعا، وضجوا إلى ملكهم بالشكوى من غارات بحّارة الجزائر. فبعد انتصار بروزة، وطرد الإسبان

---

(1) Uzunçarşılı,age,II,s.378.

(2) للتوسع عن معركة بروزة، انظر:
Celalzade,***Tabakat***, 321; Lütfi Paşa,***Tarih***, s.368. Katib Çelebi, ***Tuhfetü'l-Kibar***, I,s. 81; Peçevi, I, s.213. Uzunçarşıl, ***Tarih***, II,s.374-379; Gökbilgin, ***Kanuni***,s.96-98; Şerefettin Turan, «***Barbaros Hayreddin Paşa***» DİA.V,66-67.

(3) Asrar,s. 215.

من الجزائر فرض البحارة العثمانيون سيطرتهم على شرق وغرب البحر المتوسط، حتى صار شرلكان نفسه يصعب عليه السفر من برشلونة إلى نابولي[1].

2. الانتصار السياسي الذي أحرزه الإسبان في تلمسان، والغرب الجزائري بفعل استمالتهم سلطانَ تلمسان، وتمكنهم من إخضاع الدولة الحفصية لسلطانهم بعد احتلالهم لتونس[2]. فلم تبق لهم سوى مدينة الجزائر التي أصبحت قاعدة لغارات البحارة العثمانيين. ولذلك فإن احتلال الجزائر كان سيضمن لشرلكان السيطرة على غرب البحر المتوسط، ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري إمبراطوريته، ويمكنه من فرض حصار محكم من الشرق والغرب والجنوب على فرنسا، وإخضاعها بشكل نهائي لسلطانه[3].

3. وجود خير الدين في إستانبول، وانشغاله بقيادة الأسطول العثماني، وما ترتب عليه من فراغ عظيم لا يمكنه ملؤه في الجزائر[4].

---

(1) بلحميسي مولاي، غارة شارلكان الخامس على مدينة الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد 8، السنة 1، ماي، جوان، 1972، ص 95.

(2) إلتر، ص 155.

(3) ***Un épisode de l'Expedition de 1541 contre Alger***, Reveue Africaine 3-4 trim.1931.

(4) كان خير الدين في هذه الفترة مستقرا في إستانبول للإشراف عن قرب على الأسطول العثماني الذي صار قائدا عاما له. وقد أناب عنه حسن آغا في إدارة الجزائر حتى هذا التاريخ. انظر: Asrar,s.216.

4. أن الجزائر لم يكن بها في ذلك الوقت من الجيش العثماني سوى العدد القليل حسب ما جاء في تقارير الجواسيس الإسبان واعتقادهم أن القوات المحلية غير قادرة على الدفاع عن المدينة.

5. يرى البعض أن الحملة كانت تهدف إلى تخفيف الضغط العثماني على النمسا وألمانيا. وذلك بفتح جبهة جديدة في الجزائر، حيث ستكون الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال قواتها إلى هناك[1].

أوّلا : استعدادات الطرفين

- **القوات المرابطة في الجزائر (التركية والمحلية والأندلسية):**

علم حسن آغا بخبر الحملة الإسبانية التي يعدّ لها الإمبراطور لغزو الجزائر. فشرع في إعداد العدّة لردّ العدوان. فقام بتحصين المدينة، وحشد القوات التركية والأندلسية المحلية للدفاع عن المدينة. أما من الناحية العسكرية، فاستنادا إلى بعض الوثائق التي قام بتصويرها وترجمتها الأستاذ المدني من أرشيف سيمانكاس الإسباني، جاء في تقرير سري مرسل من طرف حاكم بجاية، ومؤرخ في 29 مارس 1536 ما يلي:

«إلى صاحبة الجلالة الملكة..

وهذه أنباء وردت علينا من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم 27 فيفري، وغادروا الجزائر فوق فلك، ووصلوا إلى مدينة بجاية.

---

(1) بلحميسي، ص 95.

يوجد الآن في مدينة الجزائر 2.000 من الأتراك، و7.000 أو 8.000 من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر، ومليانة، وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو مرتد من سردينيا اسمه حسن آغا. وسكان المدينة في قلق شديد، لأنهم وصلتهم أنباء موثوق بها، تفيد تحرك أسطول جلالتكم.

وأخبرني الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة من ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة. وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة. لكن العمل لم يتم إلى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون بـ1500 من البدو المحيطين بالجزائر من أجل إكمال العمل.

أما مدينة قسنطينة، ففيها 1.500 من الانكشارية، يقودهم تركي اسمه القائد قلج علي[1] kılıç Ali. وبربروس هو الذي

---

(1) تلقّبه المصادر المحلية بالعلج على اعتبار أصله الإيطالي؛ إذ كان المسلمون يلقّبون الأسرى الأوربيين بالعلوج، وهو لقب احتقار وإهانة؛ لأن العلج في اللغة: الحمار الوحشي. ويعتقد أنّ قلج علي من أصل إيطالي أسر من طرف البحارة الجزائريين سنة 1520م، وبقي في الأسر مدّة ثم أسلم وترقّى في البحرية حتّى صار قائدا للأسطول العثماني. اشتهر بقيادته لوحدات الأسطول العثماني في معركة ليبانت سنة 1571، توفي سنة 1587. لمزيد من التفصيل. انظر : محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل، الجزائر 2009. ص 69-79.

أرسل هؤلاء الانكشارية. وبما أن قلج علي هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم»[1].

من هذا التقرير يتبين لنا أن القوة التي كانت معدة للدفاع عن المدينة كانت تتراوح بين 9 و10 آلاف جندي من الأتراك والأهالي والأندلسيين[2].

- **القوات الإسبانية**

يبدو أن شارلكان فكر في غزو الجزائر غداة احتلال تونس سنة 1535. وقد ذكر صاحب الغزوات أنه أرسل إلى المغرب جواسيسه للاطلاع على الطرق المناسبة التي تيسر له احتلال المدينة[3].

وفي سنة 1539 وافق البابا على تقديم إعانة مالية لتجهيز الحملة[4]. كما بعث شرلكان إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن، وإعدادها للسفر[5]. فجمع الإمبراطور في ميناء

---

(1) انظر نص الرسالة في المدني، ص 278-279.

(2) ذكر أحمد أسرار عددا يقارب ما ورد في التقرير الإسباني. لكنه أشار إلى أن عدد الانكشاريين كان 6.000 جندي، وعدد العرب كان حوالي 2000. انظر: Asfar,age,s.216.

(3) **الغزوات**، ص 116.

(4) بلحميسي، ص 98.

(5) التلمساني، محمد بن عبد الرحمن، **الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، ق 15.

«ماهون» بجزيرة مينورقة أسطولا ضخما اختلف المؤرخون في تقدير عدد سفنه ومقاتليه. فذُكِر أنه كان مكونا من 16 سفينة شراعية، 65 سفينة نقل عسكرية كبيرة تحمل 12.330 بحارا، و23.900 جنديا بالإضافة إلى مئات القطع البحرية الصغيرة التي كانت ترافق الأسطول. وهي أكبر قوة عسكرية بحرية تشقّ عباب غرب البحر المتوسط في القرن السادس عشر. وقد شارك في هذه الحملة نبلاء من إسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا كجنود متطوعين. كما اشترك فرسان مالطة، حيث كلف 140 منهم بقيادة فرقة عسكرية مكونة 400 جندي مدربين تدريبا عاليا[1].

كان شرلكان يعلم أن دخول حسن آغا في مواجهة مع القوات

---

(1) هذا التقدير ذكره إلتر في ص 157؛ وقدر هامر عدد وحدات الأسطول الإسباني بـ216 سفينة حربية، ولم يذكر عدد الجنود الذين خرجوا في هذه الحملة. انظر: *Hammer, V.s.233*؛ أما كاتب جلبي فقد ذكر أن تعداد الحملة كان 100 قطعة بحرية، و4000 حصـان، و50.000 عسكري. انظر كاتب جلبي، ص 58؛ وجاء في كتاب الغزوات أن عدد السفن بلغ 400-450 سفينة، أما عدد الجنود فكان 50.000 جندي. انظر الغزوات، ص 116؛ أما المدني، فقد أشار إلى أن الأسطول الإسباني كان مكونا من 450 سفينة نقل و65 سفينة حربية. و2000 فرس. بينما كان عدد البحارة 12000 بحار. انظر المدني، ص 281- 282. ويلاحظ أن هذه الأرقام تقريبية لا تعكس العدد الحقيقي للحملة بقدر ما تعكس حجمها. فهي تبين أن الحملة كانت كبيرة جدا بالنظر إلى هدفها الخطير الذي كانت ترمي إليه.

الهائلة التي حشدها شرلكان لاحتلال الجزائر، بدون وصول دعم من إستانبول يعتبر انتحارا لا شك فيه. ولذلك وقع اختياره للوقت الذي كان فيه خير الدين في إستانبول بينما خرج السلطان سليمان القانوني في حملته الهمايونية التاسعة لغزو المجر، حيث لا يمكن للعثمانيين أن يخوضوا معركتين كبيرتين في وقت واحد. وجعل ذلك موعدا لحملته الكبيرة على الجزائر.

حقيقة كان وضع الجزائر إزاء هذه الحملة في غاية الخطورة، وأصبح مصير المدينة متوقفا على نتيجة هذه المعركة. وكان السلطان القانوني مدركا لهذا الخطر، ولذلك أرسل من بودين بالمجر فرمانا همايونيا يأمر فيه خير الدين بإرسال الدعم اللازم إلى الجزائر[1].

بعد أن أنهى الأسطول الإسباني استعداداته انطلق من ميناء قرطاجنة *Carthegene* في 15 أو 16 أكتوبر 1541. فمر على وهران، حيث تزود من هناك بقوات إضافية ثم تابع سيره إلى الجزائر التي وصلها في 19 أكتوبر. فرسا الأسطول الإسباني قريبا من رأس ماتيفو في مقابل ميناء الجزائر، وبقي هناك يترقب حتى يوم الجمعة 21 أكتوبر.

ثانيا : سير الحملة

لقد لعب حسن آغا قبل المعركة دورا رئيسيا في تنظيم وإدارة المقاومة. فاستدعى أعيان المدينة، ونظم اجتماعا كبيرا دعا إليه العلماء

---

(1) Gökbilgin,T.IA,age,s127 .

والأعيان والقادة. وجعل يسكنهم ويهون عليهم أمر الإسبان، وفي الوقت نفسه كان يستشيرهم في طريقة تنظيم المقاومة[1]. ثم أمر بنصب المدافع على أبراج المدينة، كما أمر بقطع أشجار البساتين كلها كيلا يتستر بها النصارى في أثناء القتال. ثم فتح خزائن السلاح، ووزعه على أهالي المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص[2] ولما اكتملت الاستعدادات خطب في الناس يشجعهم على الصمود. بينما كان يشرف بنفسه على عمليات تنظيم وقيادة المقاومة[3].

واشترك في الاستعداد لهذه المعركة المصيرية جميع سكان المدينة، وسكان الريف المحيط بها، والأندلسيون، والأتراك[4]. كما بقيت قوات أخرى خارج المدينة لكي تقوم بحركات التفافية متوالية حول الجيش الإسباني، مهمتها تنظيم هجمات على

---

(1) التلمساني، **الزهرة**، ق 15.

(2) **الغزوات**، ص 117.

(3) بالرغم من كل هذه الاستعدادات، والمواقف الشجاعة التي أبداها حسن آغا. لم يتردد المؤرخ التونسي ابن أبي دينار القيرواني من أن يدعي بأن حسن أغا حاول الهروب فمنعه شريف بركات شيخ مدينة الجزائر . انظر المؤنس، مصدر سابق، ص 151 . وقد نسب الأستاذ المدني الادعاء الذي ذكره ابن أبي دينار عن محاولة فرار حسن آغا إلى بعض مؤرخي أوربا وإسبانيا. ولم نتمكن من التعرف على المؤرخين الذين كان يعنيهم لأنه لم يشر إلى أي منهم باسمه أو باسم الكتاب الذي ورد فيه هذا الاتهام. انظر المدني، ص 282.

(4) بلحميسي، ص 102.

أطرافه[1].

وفي صبيحة 23 أكتوبر نزل الإسبان بمنطقة الحامة جنوب المدينة. فتصدى لهم المقاومون لمنعهم من النزول إلى البر، فأطلق عليهم النصارى قذائف المدفعية من البحر فأبعدوهم، وتمكنوا من إنزال الجنود والسلاح. بينما تركوا المؤونة والعتاد في السفن معتقدين أن الاستيلاء على المدينة سوف يتم خلال ساعات. ثم أرسل شرلكان رسالة تهديد يطلب فيها من حسن آغا تسليم المدينة، فرد عليه حسن آغا بجواب شديد اللهجة[2].

وعندما حل الظلام فتحت أبواب المدينة، وشنت فرقة من المسلمين هجوما مفاجئا على معسكر الجيش الإسباني، وعادت إلى المدينة بعد أن تكبد العدو خسائر كبيرة[3].

وفي صبيحة اليوم التالي تقدمت القوات الإسبانية على رأسها الإمبراطور شرلكان نحو المدينة. ثم أعطى أوامره بقصف المدينة، فرد عليه المدافعون عن المدينة بقذائف المدفعية التي كانت منصوبة على أسوارها. فاضطر معه الجيش الإسباني إلى الانسحاب إلى **«رأس تافورة»** قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي للمدينة. حيث استأنف القصف من هناك. فبادر المسلمون بالرد عليهم.

---

(1) المدني، ص 282-283.

(2) انظر: **الغزوات**، ص 117-118.

(3) بلحميسي، ص 103.

فشعر الإمبراطور بخيبة أمل كبيرة لعدم قدرته على احتلال المدينة.

ثم شنت فرقة من الأهالي هجوما خاطفا على الجناح الأيسر للجيش الإمبراطوري، قرر على إثره الإمبراطور الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على المدينة، للتحصن بها من مثل هذه الهجمات المفاجئة، وحتى يتمكن من مراقبة سير العمليات العسكرية. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على المرتفع المعروف بـ«**كدية الصابون**» وجعل منه قاعدة لعملياته[1]. ومن هناك اتجهت القوات الإسبانية في الساحل حيث تمكنت من احتلال التلال المجاورة لكدية الصابون. وهكذا توزع العدو على المناطق الاستراتيجية. تضاعفت المقاومة الجزائرية بقصف السفن الإسبانية بالمدفعية. كما وجهوا مدافعهم في الوقت ذاته إلى قواعد الجيش الغازي المعسكر في البر. واستمر تبادل القصف حتى خيم الظلام على ميدان المعركة.

وفي يوم 25 أكتوبر بدأت الأمطار بالهطول. وفي المساء ازداد المطر غزارة، ورافقه هبوب رياح عنيفة هددت الأسطول بالغرق.

وقد وصف صاحب كتاب الغزوات هذه العاصفة بقوله:

«هاجت الريح وساقت السحاب أمثال الجبال، وأمطرت السماء كالطوفان، وهاج البحر، واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه

---

(1) أطلق الغربيون على هذا المكان اسم ***FORT L'EMPEREUR*** أي حصن الإمبراطور. انظر بلحميسي، ص 103. وانظر أيضا، إلتر، ص 185.

بما لم يعهد مثله..»[1].

فقطعت هذه العاصفة حبال السفن، وساقت عددا منها إلى البر حيث ارتطمت بالصخور. فلم تمض سوى ساعات قليلة حتى كانت 140 سفينة قد تحطمت تماما، ولم تنج إلا السفن الكبيرة التي تضررت بنسبة قليلة بفضل مهارة قباطنتها، وثقل حجمها[2].

كان ببعض السفن التي ألقتها العاصفة إلى الساحل عدد من الأسرى المسلمين من الأتراك والجزائريين. بعضهم من الجزائر، وبعضهم من تونس. فبلغ عددهم ما يقارب 1.400 أسيرا. كانت العاصفة سببا في خلاصهم، إذ تمكنوا من فك قيودهم، والنجاة بأنفسهم[3]. وفي الوقت ذاته وقع عدد من الجنود الذين تمكنوا من النجاة من الغرق في قبضة الأهالي الذين جاءوا من النواحي. «فاستأصلوهم قتلا وأسرا»[4]. فضاق الأمر بالإسبان، ولم يستطيعوا

---

(1) **الغزوات**، ص119. لقد كان فصل الشتاء قد حل وبدأ موسم العواصف. وهو الموسم الذي ينتهي فيه الغزو، وتعود فيه السفن إلى الموانئ. ويستمر ذلك إلى منتصف نيسان حيث يستأنف الغزو البحري. انظر: .Haëdo, p .177.

(2) إلتر، ص 161. يبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا. يخالف ما أشار إليه المدني من أن عدد السفن التي تحطمت بسبب ارتطامها باليابسة بلغت 16 سفينة. انظر: المدني، ص 290.

(3) المرجع نفسه، ص 162؛ وانظر أيضا: المدني، ص 290.

(4) **الغزوات**، ص120.

استعمال أسلحتهم النارية للدفاع عن أنفسهم[1].

أما الجيش المحاصر للمدينة، فقد كان وضعه أكثر سوءً. فقد أصبح الجنود يتّقون العاصفة والأمطار بالتفاف بعضهم حول بعض بعدما اقتلعت الرياح خيامهم[2].

اعتبر أهل الجزائر هذه العاصفة عونا من الله على أعدائه، فخرجوا من المدينة في هجوم شامل على أطراف القوات الإسبانية التي أربكت العاصفة نظامها، وفقدت القيادة السيطرة على الوضع. وقتل في هذه المعركة أكثر من 4.000 من الإسبان، و200 من المسلمين[3].

وفي صبيحة 26 أكتوبر تيقّن شرلكان أنه لن يستطيع اقتحام المدينة أو إخضاعها. فكان غاية ما يأمله هو أن ينجو من هذه الورطة[4]. فأمر قواته بالشروع في الانسحاب، بعد أن سبقه قائده أندريا دوريا إلى رأس ماتيفو[5]. كان الانسحاب في غاية الصعوبة بسبب شدة الأمطار وكثرة الوحل في الطريق. بالإضافة إلى الهجمات التي كان الأهالي يشنونها على أطراف الجيش الإسباني.

---

(1) الغزوات، ص120.
(2) إلتر، ص 159.
(3) المصدر نفسه، ص 120.
(4) بلحميسي، ص 104.
(5) إلتر، 159-160.

نزل الإسبان في وادي الحراش جنوب شرق مدينة الجزائر. حيث باتوا هناك بعد أن أنهكهم التعب والجوع. فاضطروا إلى أكل 400 من الخيل. وفي صبيحة 27 أكتوبر عبروا وادي الحراش بعد أن صنعوا من ألواح سفنهم المحطمة جسرا.

وأثناء انسحاب القوات الإسبانية، لم يتوقف الأهالي عن مهاجمة جانبي الجيش ومؤخرته، فقتل عدد كبير من الجنود الذين كانوا في المؤخرة. ومن تمكن من النجاة حاول الهرب من القتل بالغطس في الوادي فغرق عدد منهم بسبب شدة اندفاع المياه[1].

وهكذا لم يتمكن الجيش الإسباني من الوصول إلى رأس ماتيفو إلا يوم 29 أكتوبر. حيث قضى الإمبراطور هناك يومين للاستراحة. ثم أقلع الأسطول في أول نوفمبر متجها إلى إسبانيا.

ذكر كاتب جلبي أن عاصفة أخرى دفعت ما بقي من الأسطول الإسباني إلى بجاية التي كانت حتى ذلك الحين قاعدة إسبانية[2].

وصل الإسبان إلى بجاية في 4 نوفمبر 1541 فوجدوها محاصرة، والجوع يفتك بمن فيها من الجنود. فقام الإسبان بالاعتداء على الجالية اليهودية هناك، واستولوا على أموالهم، وكل ما يملكون[3].

وبعد أيام غادر شرلكان بجاية، فوصل إلى ميورقة، ومنها إلى

---

(1) كاتب جلبي، ص 58-59.

(2) نفسه، ص 58-59.

(3) بلحميسي، ص 105؛ المدني، ص 295.

قرطاجنة التي دخلها في 2 ديسمبر 1541[1].

ثالثا : نتائج فشل الحملة

كان لفشل حملة شارلكان على الجزائر في 1541 نتائج عسكرية وسياسية كبيرة، تركت آثارا عميقة على المخططات الإسبانية في شمال إفريقيا، ومستقبل الوجود العثماني في الجزائر في هذه المرحلة من تاريخها.

فبالنظر إلى الخسائر المادية التي منيت بها القوات الأوربية، والتي كانت كبيرة جدا. الأمر الذي دفع دي غرامون **De Grammont** إلى حدّ وصفها بالفادحة. إذ بلغت 16 مركبا من نوع غليوت ***Galyot***[2] و140 سفينة ناقلة للجنود، ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام.. إلخ[3]. وبلغ عدد المدافع التي خلفها الإسبان 200 مدفعا، وقيل 100 استولى عليها المسلمون، وزينوا بها الحصون الحربية، وسائر أسوار المدينة[4]. حتى أصبح ما غنمه المسلمون

---

(1) نفسه، ص 10 المرجع السابق، ص6.

(2) غليوت ***Galyot***: نوع من السفن الحربية التي كانت مستعملة في ذلك العصر تتميز بكونها مدببة الطرفين. انظر:
Midhat Sertoğlu, ***Osmanlı Tarih Lugtı***. İstanbbul. 1986. s119.

(3) ذكر المدني أن عدد السفن التي فقدها الأسطول الإسباني في هذه الحملة بلغ 200 سفينة بينها 30 سفينة حربية. انظر المدني، ص 297.

(4) **الغزوات**، ص122؛ المدني، ص 297.

يضرب به المثل[1]. أما المراكب فإن جلها قد عطب على السواحل. وما كان قد غرق من السفن المعدة للحرب ولحمل الزاد والمؤونة فقد بلغت 130 مركبا[2]. «**وما وصل اللعين إلى بلده إلا بائني غرابا**[3]**. وكان عدد السفن عند قدومه سبعمائة وخمسين جفنا، والعسكر سبعين ألفا**»[4]. إلا أن بعض الغربيين قللوا من شأن الخسائر التي مني بها الإسبان فذكروا أنهم لم يفقدوا سوى 14 غليوطة، و100 مركب صغير[5].

أما الخسائر البشرية، فإن المصادر الغربية إما أنها قد سكتت عنها، أو قدمت أعدادا تافهة. على غرار دي غرامون ***De Grammont*** الذي ذكر -بعد اعترافه بفداحة الخسائر المادية- بأن خسائر الإسبان البشرية كانت ضئيلة جدا[6]. أما المصادر الإسلامية فقد بالغت كثيرا في ذلك. فقد جاء في كتاب الغزوات أن:

«**عدد القتلى بسيوف المسلمين في هذا اليوم اثنا عشر ألفا..**

---

(1) إلتر، ص 162؛ Charrier, ***Negociation de la France dans le levant***, Paris. 1920 . c. I. S. 522.

(2) **الغزوات**، ص 121-122.

(3) غراب: سفينة.

(4) التلمساني، ص 18.

(5) بلحميسي، ص107. نقلا عن: P.AGUADO-BLEYE, *Manuel de, Histoiria de Espana, t.II.pp.454-455.*

(6) انظر تعليقه في De Grammont, ***Relation de l'expedition de Charles Quint contre Alger***, s.84-85.

ويقال أن فرائس الكفرة وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر دلس شرقا، وشرشال غربا»[1].

«وجاء الإسبان بأربعة آلاف من الخيل، فلم يعودوا إلى بلادهم بفرس واحد. فقد مات بعضها برماح المسلمين، والبعض أكلوها من الجوع الذي وقع بهم. وقتلوا بعضها بأيديهم لضيق سفنهم عن حمل رجالهم»[2].

أما النتائج السياسية والتي ربما تكون هي الأهم فلم تقتصر آثارها على الجزائر فحسب بل تعدت ذلك إلى خارجها. فقد عظم شأن حسن آغا عند السلطان سليمان القانوني الذي كافأه بأن أرسل إليه الخلعة السلطانية، وعينه بيلربايا على الجزائر تقديرا لشجاعته[3].

---

(1) **الغزوات**، ص 121؛ إلتر، ص 162. وإذا صح ما نسبه المدني إلى أن الجثث وقطع الأسطول المحطمة تناثرت على طول الساحل الممتد من دلس إلى شرشال قد ذكره المؤرخون الأوربيون الذين دأبوا على التقليل من خسائر هذه الحملة، فإن هذا الادعاء لا يكون مبالغا فيه. انظر المدني، ص 290-291.

(2) المصدر نفسه، 121؛ إلتر، ص163؛ وانظر أيضا: المدني، ص293.

(3) نفسه، ص121-122؛ إلتر، ص 167-168. ومن المفيد التنبيه إلى أن محمد بن عبد القادر ذكر في كتابه تحفة الزائر أن السلطان أرسل إلى خير الدين مع فرمان إمارة الجزائر. والصواب هو أن فرمان الإمارة جاء بتعيين حسن بن خير الدين الذي كان له الفضل في رد الحملة وليس لخير الدين الذي لم يشترك فيها لأنه لم يكن في الجزائر حينها. انظر محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، ص 94-95.

واتسع نفوذ الأتراك داخل البلاد. فالسلطان الزياني أبو محمد الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته للإسبان خصوصا بعد احتلالهم تونس سنة 1535. جعلته هزيمة شرلكان يعيد النظر في سياسته، ويعلن تبعيته للأتراك[1].

وتوالت انتصارات الأتراك في شمال إفريقيا بعد 1541. فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة 1555. وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي. وأُجبر الإسبان على الانسحاب من طرابلس الغرب سنة 1552، وميناء تونس سنة 1553، وبجاية سنة 1555، وحوصروا في وهران مرارا بعد 1556. وأخرجوا من تونس نهائيا سنة 1569. فزادت هيبة العثمانيين في نفوس الأوربيين، وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر. «**ويقيت الجزائر كالعروس، تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار. ولم يبق لهم عدو يخافون منه. وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها. وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن**»[2].

وفشل المخطط الإسباني الرامي إلى احتلال سواحل شمال إفريقيا، وتنصير أهله. ونزلت أخبار الهزيمة على أوربا نزول الصاعقة

---

(1) محمد بن عبد القادر، ص 94-95.

(2) المدني، نقلا عن ابن المفتي حسن بن رجب شاوش، **تاريخ باشوات وعلماء الجزائر**، ص 297؛ وانظر أيضا الغزوات، 121-122؛ فارس، **تاريخ الجزائر الحديث**، مرجع سابق، ص 120؛ وانظر أيضا: محمد بن عبد القادر، ص 94-95.

لأن ما حدث في الجزائر يعتبر أعظم هزيمة مني بها الإمبراطور شارلكان منذ جلوسه على عرش إسبانيا. فاهتز نتيجة لذلك نفوذه في أوربا، ولم يبق له أي حليف سوى هنري الثالث ملك إنكلترا[1].

واعتبر بعضهم أن هذه الهزيمة كانت سببا في ترك شارلكان عرش إسبانيا، واعتزاله في أحد الأديرة[2].

ومن ناحية أخرى كان فرح الفرنسيين يكاد يساوي فرح الجزائريين. لأن سقوط الجزائر كان سيؤدي حتما إلى سقوط فرنسا. فبادر ملك فرنسا فرنسوا الأول إلى عقد معاهدات مع السلطان سليمان القانوني[3].

س. آخر غزوات خير الدين بربروس ووفاته

في 1543 ساءت العلاقة من جديد بين إسبانيا وفرنسا، بسبب قتل الإسبان لرسولين فرنسيين في لومبارديا بإيطاليا. حيث كان أحدهما يعبر الأراضي الإيطالية حاملا رسالة إلى دولة البندقية، والثاني كان يحمل رسالة إلى السلطان سليمان القانوني. وذلك في ظل معاهدة سلام كانت منعقدة بين فرنسا وإسبانيا سبقت الإشارة إليها في أثناء الحديث عن معركة بروزة[4].

---

(1) بلحميسي، مرجع سابق، 109.

(2) Asrar, s.217.

(3) نفسه، ص 109 نقلا عن: P.Aguado-Feleye,c.II.s.454-455.

(4) Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II, s. 377; Maksudoğlu, s.157.

وبناء على هذه الحادثة فقد عادت الحرب بين البلدين، فأصدر السلطان القانوني أمره إلى خير الدين بضرب السواحل الإيطالية. فخرج في أسطول كبير واحتل غويتة **Goeta** ونيس **Nis**، وهدد روما[1]. ثم قام باتخاذ مدينة مرسيليا مقرا عاما للأسطول العثماني، حيث اجتمع الأسطول العثماني والفرنسي ليهاجما من هناك مدينة نيس لتحريرها من الاحتلال الإسباني وإعادتها إلى فرنسا[2].

وبعد حياة حافلة بالمغامرات، مكللة بالانتصارات، توفي بطل البحرية العثمانية، ومؤسس إيالة الجزائر خير الدين بربروس في إستانبول سنة 1546، ودفن في ساحل بشكتاش بإستانبول[3].

ش. تقويم جهود خير الدين في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر

تميزت الفترة التي تولى فيها خير الدين حكم الجزائر خلفا لأخيه عروج بعدة خصائص هامة ميزت حكمه عن حكم أخيه، ومن جاء بعده من الولاة الأتراك:

الأولى: كثرة الثورات وحركات التمرد التي لعب زعماء القبائل، والأمراء المحليون دورا كبيرا في إثارتها لأسباب مختلفة. وقد رأينا

---

(1) Asrar, age, s.217 .

(2) نفس المرجع، ص217؛ وانظر أيضا المدني، ص 314-316.

(3) المرجع السابق، 217.

كيف اندلعت هذه الثورات فور انتشار خبر استشهاد عروج. فتمردت تنس، وشرشال، وبلاد القبائل، ومدينة الجزائر، وسائر المناطق المحاذية لها. لكن الذي يجب التنويه به، هو موقف خير الدين الذي تميز بالحزم الشديد إزاء هذه الحركات ومن كان سببا فيها. فتمكن نتيجة لذلك من إخماد هذه الثورات بسرعة كبيرة. متبعا في ذلك مع كل حالة ما يناسبها من شدة ولين، حسب ما يقتضيه حال الثورة، وطبيعة أسبابها، ومن يقف وراءها. فتمكن بحسن سياسته من القضاء على هذه الثوارت أو تقليصها، مستعملا سلاح الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى. وذلك إما باستمالة زعمائها إلى صفه كما فعل ذلك مرارا مع أمراء بني زيان. أو بكسر شوكتهم وتجريدهم من سلطانهم بحيث لم يعودوا يشكلون خطرا يذكر، وإما بالقضاء عليهم نهائيا حينما يرى أن ذلك هو السبيل المناسب لمثل هؤلاء.

ولكن على الرغم من الحزم الذي أبداه خير الدين نحو هذه الثورات ومثيريها، إلا أنه لم يتمكن من اجتثاثها بشكل نهائي. وغاية ما وفق إليه هو إضعاف زعمائها، أو تسكينها مؤقتا. الأمر الذي أدى إلى اشتعالها مرة أخرى في عصر خليفتيه حسن آغا، وصالح رئيس الذي اقتنع في نهاية الأمر بضرورة القضاء النهائي على مملكة بني زيان سنة 1555. الذين كانت لهم اليد الطولى في إثارة الكثير من هذه الثورات بإيعاز من حلفائهم الإسبان الذين لم يفتؤوا يحلمون بالعودة إلى الجزائر.

الثانية: إلحاق الجزائر رسميا بالدولة العثمانية، وما تلا ذلك من ارتباط السياسة الخارجية للجزائر بسياسة الدولة العثمانية، خصوصا في صراعها مع أوربا المسيحية. فقد أدرك خير الدين بحكم معرفته العميقة بموازين القوى الدولية في ذلك العصر، أنه مهما كان الدعم المعنوي الذي يلقاه من القوى الدينية والشعبية المحلية المحبة له، والمقدرة لنضاله ونضال أخيه عروج؛ ومهما كانت إمكانياته العسكرية، فإنه لا يستطيع أن يتصدى بمفرده لدولة قوية مثل إسبانيا لمدة طويلة. خصوصا وأن إسبانيا لم تكن في ذلك العصر مجرد مملكة تنازعه النفوذ على الجزائر، بل كانت تعتبر أكبر وأقوى دولة أوربية. ولذلك فإنه جعل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية هو الضامن الوحيد لحماية ما حققه من إنجازات بمعية أخيه عروج، ولما سيحققه في مستقبل نضاله الطويل ضد إسبانيا. وهي الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على دعم عمليات إنقاذ المسلمين الذين يعانون مختلف أنواع الإرهاب الديني في إسبانيا.

الثالثة: تحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني. فلم تبق في أيديهم سوى بجاية ووهران. حيث تم في عهد خير الدين تحرير تنس، وشرشال، وجيجل، والجزائر، ودلس، ومستغانم، وهنين، وقلعة سيدي راشد... وغيرها. كما تصدى للحملات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال مدينة الجزائر، وشرشال، وغيرها من المدن التي طردوا منها. حتى يئسوا من العودة إلى الجزائر. فاقتنعوا أخيرا بالاكتفاء بإثارة الثورات، ودعم

المتآمرين على الوجود العثماني في الجزائر من أمراء بني زيان، أو غيرهم من الزعماء المحليين.

الرابعة: بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته. حيث تمكن من نقل المعركة مع أوربا من البر إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط واستطاع العثمانيون أن يسيطروا سيطرة كاملة على البحر المتوسط اعتبارا من معركة بروزة سنة 1538. أما في غرب البحر المتوسط فقد كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر، ويعترضون السفن الأوربية في عرض البحر. حتى صار الإمبراطور شرلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر[1].

الخامسة: بروز ما يمكن تسميته بالأهمية السياسية للجزائر. هذه الأهمية التي فقدتها منذ سقوط دولة الموحدين. فتحولت على إثرها إلى رقعة من الأرض يتنازع السيطرة عليها أمراء الدولة الحفصية والمرينية. بينما تحول بنو زيان إلى لاعب وسط الميدان غاية ما يأمله هو المحافظة على التوازن بين القوتين المتنافستين!!.

لقد صنع خير الدين من الجزائر دولة متميزة عن جارتيها، وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية

---

(1) بلحميسي، مرجع سابق، ص95.

اليوم تقريبا. ولذلك فإن اعتبار خير الدين المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، لا يمكن وصفه بالأمر المجانب للصواب. لأن وقائع تاريخ الجزائر الحديث شاهدة على ذلك. فبنو زيان في أوسع مراحل نفوذهم لم يتجاوزوا مدينة الشّلِفْ جنوبا، ومدينة الجزائر وما جاورها شمالا. وبالرغم من امتداد نفوذ الدولة الزيانية إلى بجاية وقسنطينة شرقا في إحدى فترات تاريخها. فإن ذلك لم يكن سوى لفترة قصيرة، ثم لم يتكرر ذلك بعد أبدا. أما وسط الجزائر وجنوبها فقد كان خاضعا لنفوذ شيوخ القبائل، أو الأمراء المحليين الذين نصبوا أنفسهم في غياب سلطة مركزية قوية. وأما الجنوب الغربي للجزائر فقد كان أما تابعا للمرينيين، أو للزيانيين اسميا في أغلب الأحيان.

وكما يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة، فإليه يعود الفضل أيضا في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية. إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوربا المسيحية ممثلة في إمبراطورية شرلكان وحلفائه.

السادسة: إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر. ومنحهم إقطاعات كبيرة مكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مدنا شكلوا أغلبية سكانها، مثل: البليدة وتنس وشرشال. بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها. وقد رأينا كيف نظم خير الدين 36 حملة بحرية، نقل خلالها

70.000 أندلسي إلى الجزائر. ولم يكتف هؤلاء الأندلسيون بلعب دور كبير في المجال المدني والعمراني والفني فحسب؛ بل كان لهم دور كبير في مساندة الوجود العثماني ضد خصومهم المحليين. إذ شكلوا السند الشعبي الأكثر إخلاصا للأتراك العثمانيين.



الباب الثالث

ردود الأفعال نحو الدخول العثماني إلى الجزائر

الفصل الأول : ردود الأفعال المحلية

الفصل الثاني : السياسة العثمانية في الجزائر

الفصل الأول
ردود الأفعال المحلية

موقف الزعماء المحليين

عرفنا من خلال المباحث التي قمنا بتناولها في هذه الدراسة أن أهم ما تميزت به المرحلة الأولى من الدخول العثماني إلى الجزائر هي تصاعد الثورات وحركات التمرد، التي تولى إشعالها الزعماء المحليون من أمراء، وشيوخ عشائر، وأعيان.

ومن المفيد التذكير بأن أهم شخصيتين هدّدتا الوجود العثماني في الجزائر هما: الشيخ سالم التومي زعيم قبيلة الثعالبة العربية، وشيخ مدينة الجزائر. والثاني هو الشيخ ابن القاضي زعيم جبل كوكو بمنطقة القبائل البربرية الكبرى. ويليهما في الأهمية يحيى بن سالم التومي، ثم احميدة العبد أمير قلعة تنس، وقارة حسن. وسوف نحاول تشخيص مواقف هؤلاء الزعماء كنموذج لمعرفة الدور الذي لعبوه في تثبيت أو عرقلة الدخول العثماني إلى الجزائر. محاولين مراعاة التسلسل التاريخي لوقوع تلك الانتفاضات بصرف النظر عن أهميتها أو خطورتها.

١. موقف الشيخ سالم التومي

من المعلوم أن الشيخ سالم التومي كان شيخا منتخبا من طرف

مجلس أعيان مدينة الجزائر التي كانت اسميا تتبع الدولة الحفصية. وفي الفترة التي نقوم بدراستها، كان يرأس الشيخ سالم التومي هذا المجلس. وهو الذي كلفه باستدعاء الأخوين بربروس للقدوم إلى الجزائر لتحريرها. وذلك في سنة 1514 حينما كان الأخوان مستقرين في جيجل عقب المحاولة الثانية لتحرير بجاية.

وقد عرفنا أن الشيخ سالم عارض دعوة الأخوين بربروس إلى الجزائر رغم أن قدومهما سوف يؤدي إلى تحرير المدينة من التسلط الإسباني. إلا أنه من غير الخفي أن ندرك السبب الذي يقف وراء معارضته لهذه الدعوة. فقد كان دخول الأتراك إلى الجزائر وقيامهم بتحرير المدينة سوف يجعل منهم أبطالا، ويدفع الناس إلى التعلق بهما باعتبارهما مخلصين وحاميين للمدينة. ومن ثم فإن نفوذ الشيخ سالم على المدينة سوف ينتهي بشكل تلقائي. وهو ما لم يكن في مقدوره تحمله بسهولة . لكن الشيخ سالم التومي وجد نفسه في النهاية مضطرا إلى الرضوخ لقرار المجلس ووافق مكرها على استدعاء الأخوين بربروس. وأن يقوم هو نفسه بكتابة رسالة باسمه باعتباره رئيسا للمجلس يدعوهما للقدوم إلى مدينة الجزائر.

وعندما فشلت المحاولة الأولى لتدمير حصن البنيون التي قام بها عروج فور وصوله إلى الجزائر؛ ثم قيام الجنود الأتراك بإساءة معاملة الأهالي مما كان سببا في تصاعد النقمة ضدهم[1]. رأينا الشيخ سالم بدلا من أن يسارع إلى معالجة الأمر وتهدئة الأوضاع، إذا به

---

(1) الوزان، ص، 410؛ الميلي، 3/ 44؛ إلتر، 52.

ينتهز هذه الفرصة لاستغلالها في تصعيد نقمة الأهالي ضد الأتراك، إلى أن انتهى به الأمر إلى قيادة التمرد، بل ومراسلة الحامية الإسبانية للاتفاق معها على طرد الأتراك من الجزائر[1].

ومن الطبيعي أن يتخذ عروج موقفا حازما من الشيخ سالم التومي، وغيره من زعماء الفتنة. فيقوم بإعدام رأسها المحرك لها بسرعة دون تردد، وإعلان نفسه سلطانا على الجزائر[2].

وهكذا كان ضياع نفوذ الشيخ سالم وراء معارضته لاستدعاء الأخوين بربروس، ثم وقوفه وراء حركة التمرد التي أشعل أوارها مع من وافقه من أعيان المدينة المناصرين له. في الحقيقة إن أنانية الشيخ سالم المتطرفة، جعلته يقف موقف المتمرد الخائن. الذي لا يعطي اعتبارا لمستقبل بلده، بل ومعاونة المحتل، والوقوف في طريق من جاء لتحرير بلده أساسا وإنقاذ أهله مما كانوا يعانونه من ظلم واضطهاد.

ب. موقف يحيى ابن سالم التومي

عندما تم إعدام الشيخ سالم التومي، سارع ابنه يحيى بن سالم التومي إلى وهران طالبا من الإسبان مساعدته على الانتقام لأبيه، وتوليه لمشيخة الجزائر مقابل الاستمرار في خضوع الجزائر للإسبان، ودفع الإتاوة التي كانت تدفع لهم قبل مجيء الأتراك. فوجد الإسبان

---

(1) الميلي، 3/ 44؛ إلتر، 52.

(2) الوزان، ص410؛ الجيلالي، 3/ 40؛ جوليان، 2/ 327؛ بن أشنهو، 70؛ *Asrar, s .48*

في ذلك فرصة ذهبية تمكنهم من استرجاع نفوذهم في الجزائر. فقاموا في نفس السنة (1516) بتوجيه حملتهم الأولى لاحتلال المدينة. غير أن عروجا تمكن من التصدي للحملة، ودفعهم إلى الانسحاب مخلفين وراءهم 2.700 قتيلا وعدد كبير من الأسرى[1].

إن الباحث يلاحظ بدهشة كيف صار الإسراع إلى الثورة والتواطؤ مع العدو سمة بارزة في سلوك وزعماء وحكام وأمراء هذه الفترة. فعندما يرى هؤلاء أن مصالحهم باتت في خطر حقيقي أو موهوم، فإنهم لا يترددون في أن يلقوا بمصير البلد وراءهم ظِهريا، مادام ذلك يمكنهم من البقاء مدة أطول على رأس سلطان وهمي ليس له من الحقيقة سوى الاسم.

وقد تكرر ذلك مرارا من أكثر أمراء وحكام هذه الفترة سواء في الجزائر أو في تونس أو في المغرب. وقبل ذلك عاشته الأندلس نفسها التي انتهى أمرها إلى طرد المسلمين منها بشكل نهائي.

ج. موقف أمير تنس احميدة العبد

عندما تمكن عروج من إخماد تمرد أهالي الجزائر، راسل بعض أنصار الشيخ سالم التومي، أمير قلعة تنس مولاي عبد الله الزياني المدعو بحميدة العبد. فسار هذا الأخير على رأس قواته إلى شرق تنس، حيث التقى بقوات عروج في نواحي منطقة الشلف. وهناك

---

(1) عن هذه الحملة انظر: الغنيمي، 3/ 62 (القسم السادس)؛ كاتب جلبي، ص29؛ سيفي، 26؛ الغزوات، 29-30؛ المدني، 181-183.

دارت بينهما معركة أسفرت عن انهزام أمير تنس وفراره إلى الجبال[1].

وحينما نبحث عن الباعث الذي جعل أمير تنس يسعى لمعارضة عروج، مع أن انتصار هذا الأخير يفترض أن يحسب له باعتباره قدم إلى الجزائر لطرد العدو المشترك. لكن كما سبقت الإشارة نرى دائما النظرة الضيقة إلى مصلحة العرش والسلطان وليس مصلحة البلد هي المحرك الأول للعلاقات السياسية بين زعماء هذه الفترة. وهكذا فقد وقف أمير تنس ضد من جاءوا إلى حماية بلده، وسوف نراه يكرر الموقف نفسه في أثناء حكم خير الدين. الأمر الذي يضطر معه هذا الأخير إلى إعدامه بعد استفتاء العلماء في ما يجب عمله بشأنه. وهكذا يتم وضع نهاية له ولفتنه في منطقة تنس بعدما يئس من استقامته وعودته إلى الجادة[2].

إن الثورات التي قادها سالم التومي، ثم ابنه يحيى، واحميدة العبد تعتبر أهم حركات المعارضة للوجود العثماني في الجزائر التي قام بها الزعماء المحليون في فترة حكم عروج. وسوف تستمر حركات التمرد التي يقودها أمثال هؤلاء من الزعماء من ذوي النظرة الضيقة التي لا تبصر سوى المصالح السياسية الشخصية. لتستهلك كل الفترة الأولى من الدخول العثماني إلى الجزائر.

وفي جميع الثورات نجد زعماء التمرد يستخدمون نفوذهم

---

(1) بن أشنهو، ص 110-111.

(2) انظر إلتر، ص 85.

المعنوي مدعومين بالدعاية المضادة التي تهدف إلى تشويه الأتراك، وتضخيم أخطائهم لكي يعطوا لأنفسهم المبرر السياسي لما يقومون به من تآمر ضد من جاءوا لحمايتهم وحماية بلدهم.

كما نلاحظ بسهولة أن هؤلاء الزعماء لم يترددوا في الاستعانة بالعدو مادام قد ضمن لهم بقاءهم على رأس سلطانهم، مقابل التكفل بطرد الأتراك بعد تعريتهم من مساندة الأهالي.

هذا الانطباع يمكن أن ينطبق على الزعماء والأمراء المحليين. أما بالنسبة لأمراء الدولة الزيانية المعاصرين لهذه الفترة فقد آثرنا إرجاء الحديث عنهم في مبحث مستقل.

د. موقف الشيخ أحمد ابن القاضي

عرفنا من سياق الأحداث أن الشيخ أحمد ابن القاضي كاتب الأتراك مستدعيا لهم لكي يقوموا بتحرير المدن الساحلية المحتلة من طرف الإسبان، وساند الأتراك طيلة فترة ولاية عروج.

وحتى حينما استشهد هذا الأخير، لم يستجب ابن القاضي لرسائل التحريض المتكررة التي كان سلطان تونس يرسلها تباعا لحمله على التمرد على خير الدين. فقد جاء في كتاب الغزوات أن سلطان تونس عندما كتب له يحضه على الخروج على خير الدين واعدا إياه بأن يجعله أميرا على الجزائر بعد طرد الأتراك منها، أجابه برسالة جاء فيها:

«يا عجبا !..

أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي

نيه بمثل ما كتبت؟ فإني لا أقدر على خيانته، ولا يساعدني قلبي على المكر به ... فاقطع طمعك مني، فإني لا أتابعك على ما تريد، ولا يحصل مني ندم إن شاء الله..»[1].

وقد عرف خير الدين لابن القاضي مكانته فعيّنه بعد استشهاد عروج، نائبا عنه على منطقة الشرق الجزائري كله، بينما عين أحد أخلص رجاله يدعى محمد علي على منطقة الغرب.

لكن الرغبة في التسلط، وتوسيع النفوذ لم تدعا الشيخ ابن القاضي يكتفي بما هو عليه من سلطان. فطمحت نفسه إلى الاستجابة لإغراءات سلطان تونس. خصوصا وأنه لاحظ اضطراب وضع خير الدين بعد مقتل أخيه عروج. إذ انطلقت حركات التمرد في معظم المناطق التي كانت خاضعة له. أضف إلى ذلك فإن الأسطول الإسباني كان يُتَوقع وصوله إلى مياه الجزائر بين عشية وضحاها. فكان وضع خير الدين يبدو في حكم المنتهي. هكذا كان الجو العام في الفترة التي أعلن فيها ابن القاضي تمرده.

لقد كان الأمل يحدو ابن القاضي لأن يجد نفسه يوما ما ملكا على الجزائر بدلا من خير الدين. فقد كان في نظر نفسه ونظر أنصاره أحق بذلك منه باعتباره في بلده وبين قومه الذين من شأنهم أن ينصروه وينتصروا له. وبالإضافة إلى ذلك فإنه سوف يجد في سلطان تونس سندا وعونا. وحتى الإسبان فإنهم من المتوقع أن لا يعلنوا عداءهم له باعتباره لا يحمل من الطموح ما يحمله خير الدين الذي

---

(1) انظر الرسالة في الغزوات، ص 45.

ربط مصيره بالدولة العدوة الأولى لإسبانيا، أي الدولة العثمانية. كما أن مصير الأندلس لم يكن يعنيه في قليل أو كثير. فقد رأينا كيف منع المهاجرين الفارين من البطش الإسباني من النزول في الجزائر[1]. ومن ثم فإن الإسبان لن يعادوا ابن القاضي بل سوف يباركون تمرده وعصيانه إن لم يسبغوا عليه حمايتهم من الأتراك إن بدا لهم أن يعودوا إلى الجزائر.

إذن كانت الدواعي التي دفعت ابن القاضي إلى التمرد هي:

1. طمعه في أن يكون ملكا بديلا عن خير الدين.
2. اعتماده على بني قومه وأنصاره الذين سوف يكونون سندا وعونا له.
3. ثقته الشديدة في دعم سلطان تونس الذي كان يتوجس خيفة من امتداد نفوذ خير الدين ليصل إلى تونس.
4. توقعه أن يلقى تأييدا من إسبانيا، كونه لا يشكل خطرا عليهم.

وعندما نحاول قراءة موقف خير الدين من ثورة ابن القاضي، فإننا سنجد هذا الأخير قد وقف منها موقف الحازم. فلم يغادر الجزائر إلى بلده الأصلي (تركيا)، رغم أن الظروف التي كان يمر بها تفرض عليه ذلك. لكنه كان عالما بأن سيطرة الشيخ ابن القاضي لن تدوم طويلا. غير أن احتياجه إلى إعادة بناء قوته العسكرية

---

(1) عن منع ابن القاضي للمهاجرين الأندلسيين من النزول إلى الجزائر، انظر: عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، ص 41.

والسياسية المتهالكة أجبرته على المغادرة إلى جيجل[1]. وهناك راح يتحين الفرصة التي تمكنه من استجماع قوته والعودة إلى الجزائر.

وبالفعل فإنه لم تمض سوى سنوات قليلة حتى تمكن خير الدين باشا من إعادة بناء قوته، وتوثيق صلته بغريم ابن القاضي، الأمير عبد الرحمن أمير قلعة بني عباس الذي كان ينافس ابن القاضي في زعامة منطقة القبائل. بالإضافة إلى مراسلاته مع المخلصين له من أعيان وعلماء الجزائر. وما إن أتمّ بناء قوته العسكرية والسياسية حتى عاد إلى الجزائر، حيث اشتبكت قواته مع قوات ابن القاضي في منطقة القبائل وانتهت المعركة بهزيمة هذا الأخير ومقتله على يد أنصاره كما رأينا.

ولم يكن أخو ابن القاضي (حسين ابن القاضي) ذا شأن كبير عندما أعلن ثورته بتحريض من سلطان تلمسان. إذ سرعان ما ولّى هاربا عندما انكسرت شوكته في أول مواجهة مع الأتراك، ليعود معلنا استسلامه، وتخليه عن التمرد والعصيان. وهكذا تمّ إخضاع بلاد القبائل بعد القضاء على هذه الثورة التي أقضّت مضجع خير الدين 5 أعوام[2].

ه. موقف قارة حسن

سبقت الإشارة في موضع سابق من هذه الدراسة إلى أن قارة

(1) كاتب جلبي، **تحفة الكبار**، ص 35.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

حسن كان أحد قادة خير الدين الأتراك. كان يتولى قيادة فرقة عسكرية أرسل على رأسها لقمع بعض حركات التمرد التي انطلقت في نواحي شرشال. فاتصل به ابن القاضي في أثناء ثورته، وأغراه بالتمرد على خير الدين واعدا إياه بأن يوليه على غرب الجزائر كله. فكان أن استجاب له قارة حسن، وأعلن تمرده في الوقت الذي كان فيه خير الدين مشغولا بقمع ثورة ابن القاضي. ولم يكتف قارة حسن بذلك بل كاتب الإسبان مستمدا منهم العون للتصدي لخير الدين[1]. فكان من أثر ذلك أن أنف أهل الجزائر من سلوكه الخائن، وشرعوا يبحثون عن طريق لإبلاغ خير الدين بما يبيته له قارة حسن، وطلبوا منه العودة إلى الجزائر[2].

وعندما فرغ خير الدين من ثورة ابن القاضي توجه إلى قارة حسن، فتمكن من اعتقاله وإعدامه. وهكذا تم القضاء على ثورة كان سببها كما هو معتاد في ثورات الزعماء المحليين للجزائر في هذه الفترة هو التطلع إلى الجلوس على عرش متهالك[3].

و. موقف امير قلعة بني عباس

كانت قلعة بني عباس في منطقة القبائل الصغرى تدار من طرف ملك محلي يدعى عبد العزيز. وكان هذا الملك منافسا لابن القاضي لبسط النفوذ على منطقة القبائل. كما كان ناقما بنفس القدر

---

(1) **الغزوات**، 63.

(2) المصدر نفسه، ص63.

(3) عن ثورة قارة حسن انظر: **الغزوات**، ص52؛ بن أشنهو، ص126.

على خير الدين بربروس لأنه استطاع بسط نفوذه على قسم من المناطق التي كانت خاضعة له. إضافة إلى تحالفه مع الشيخ ابن القاضي الذي جعله واليا على القسم الشرقي من الجزائر، مما يعني ضمنا أن الملك عبد العزيز سوف يكون خاضعا لخصمه ابن القاضي.

وهكذا كان من الطبيعي أن يثور الملك عبد العزيز على خير الدين، معلنا تبعيته للملك الحفصي في تونس بتحريض من هذا الأخير[1]. غير أن ثورة ابن القاضي جعلت الملك عبد العزيز يغير موقفه من خير الدين. فسرعان ما أعلن تبعيته له، ومساندته في قمع ثورة ابن القاضي[2].

ز. موقف ملوك الدولة الزيانية

وبإمعان النظر في مواقف هؤلاء الملوك من الوجود العثماني في الجزائر فإننا لا نجد فرقا جوهريا بينهم. كما أنهم لم يكونوا يتبعون سياسة واضحة يلتزمون بها. فمواقفهم لم تكن نابعة من قناعات سياسية مؤيدة أو معارضة للوجود العثماني في الجزائر، بقدر ما كانت تحركها المصلحة الشخصية المحضة التي تمكن هذا الملك أو ذاك من الوصول أو البقاء في عرش المملكة.

من هذا المنطلق وجدنا هؤلاء الملوك يؤيدون الأتراك تارة، إذا كانت مصلحتهم تقتضي ذلك، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا عليهم،

---

(1) الجيلالي، 3/ 38.

(2) المدني، ص 212-213؛ بروكلمان، ص 450-451.

ويتحالفون مع الإسبان إذا كانت مصلحتهم تقتضي ذلك. ثم يعودون إلى مصافاة الأتراك والتحالف معهم مرة أخرى معتذرين عما بدر منهم سابقا. حتى أنه لم يعد في إمكان الباحث إحصاء عدد المرات التي خانوا فيها عهودهم وطلبوا العفو من الأتراك[1].

كما كانوا يعادون بعضهم بعضا، ويلجؤون إلى الإسبان الذين كانوا يستفيدون من تنافرهم ويتوسطون كحكم بينهم. ويعينون بعضهم على بعض. كما كانوا يأخذون الرهائن إلى وهران عند القائد الإسباني الأعلى لضمان وفاء الملك القائم على عرش تلمسان. حتى إذا قطع العلاقة، أو تحالف مع الأتراك هددوه بقتل الرهائن، أو بقطع المدد، أو معاونة الملك المخلوع أو المتمرد!!.

وانطلاقا مما سبق يمكننا تفصيل القول في مواقف ملوك بني زيان من خلال الفقرات التالية:

1- تذبذب المواقف بين التحالف مع الأتراك والإسبان والاستقلال عنهما:

كانت استعانة أطراف الصراع في البيت الزياني ببعض خصومهم ضد بعض، سلوكا طبيعيا قد درجوا عليه منذ أمد بعيد يرجع إلى ما قبل الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر. فقد كانوا يستعينون بالحفصيين لمواجهة المرينيين، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا عليهم ليغيروا لعبة التحالف فيناصروا المرينيين ضد خصومهم

---

(1) بن أشنهو، ص 107.

الحفصيين. ثم يلزمون الحياد إذا تعادلت القوتان، أو ينقلبوا ضد حليف الأمس.

وفي الفترة التي نقوم بدراستها تميزت سياسة ملوك بني زيان بالتذبذب في مواقفهم وسياستهم بين إعلان التبعية للأتراك العثمانيين في الجزائر حينا، وبين التبعية للإسبان حينا آخر، وبين اتباع سياسة مستقلة عنهما. وذلك حسب ما تقتضيه شروط الإمساك بخيوط اللعبة من طرفيها الإسباني والعثماني.

وفي جميع الأحوال لم يكونوا يترددون في خيانة الأتراك، والتحالف مع الإسبان ضدهم، بل ضد شعبهم إذا ما أعلن تذمره من سياستهم.

ومن أمثلة لعبة التحالف التي اتبعها الزيانيون غداة الدخول العثماني إلى الجزائر أن عروجا عندما استقر له الوضع نسبيا في الجزائر ونواحيها، ورد عليه وفد من أعيان تلمسان يطلب منه التدخل ضد الإسبان الذين تحالف معهم أبو حمو موسى الزياني الذي اغتصب عرش تلمسان من ابن أخيه أبي زيان. فاستجاب عروج لطلب الوفد، وتوجه إلى تلمسان حيث دخلها ونصّب أبا زيان. ولكن هذا الأخير لم يلبث أن شرع في إثارة أهالي تلمسان ضد الأتراك، الأمر الذي دفع عرّوجا إلى قتله[1].

ومن ذلك أيضا، ما أورده صاحب الغزوات من أن المسعود

---

(1) بن أشنهو، ص 74-75.

الذي صار سلطانا على تلمسان فيما بعد، عندما عاد من فاس استعان بخير الدين في الاستيلاء على العرش الزياني. حتى إذا ما تمكن من السلطة انقلب عليه وحالف الإسبان[1]. فما كان من أخيه سلطان تلمسان السابق[2] إلا أن استشفع بأحد العلماء عند خير الدين معتذرا عما سلف منه، طالبا من خير الدين دعمه لاستعادة عرشه[3].

فتم له ذلك، حتى إذا غادر خير الدين الجزائر بسبب ثورة ابن القاضي انقلب عليه محالفا أخا هذا الأخير[4]، ومحرضا له على الثورة والانتقام لأخيه الذي قتل من طرف أتباعه عقب فشل ثورته ضد خير الدين.

وعندما وصلت أنباء هزيمة خير الدين في تونس أمام شرلكان لم يتردد السلطان الزياني محمد بن عبد الله في التقرب من الإسبان. فعرض عليهم في أوت 1535 أن يكون معهم وتابعا لهم. وأن يدفع لهم الضريبة التي كان يدفعها أبوه وجده. وأن يعيد الأسرى الذين وقعوا تحت قبضته سنة 1535 في المعركة التي خاضها جيشه مع القوات الإسبانية التي جاء بها أخوه عبد الله من وهران لانتزاع الملك منه. بل وأبدى استعداده أن يقبض على خير الدين إن التجأ

---

(1) **الغزوات**، ص 45-46؛ كاتب جلبي، ص 33.

(2) كان قد تعاون مع الإسبان وبسببه قتل عروج وإسحاق.

(3) المصدر السابق، ص 46.

(4) المصدر السابق، ص 45-50؛ 64.

إليه بعد هزيمته، ويسلمه إليه[1].

ثم أرسل في 1535 رسالة إلى شرلكان يتوسل فيه أن يقبله تابعا وحليفا، ويمنحه حمايته. وكانت الرسالة مشفوعة بمشروع معاهدة سلام لمدة 10 سنوات موقعة من قبله. وحدد فيها عروضه السابقة. وطلب أن يكف الإسبان عن إيواء أخيه عبد الله وتأييدهم له. وأن يعيد له المناطق الداخلية التي أخذها الأتراك من مملكة تلمسان إذا ما تمكن من احتلال المدن الساحلية كالجزائر، وشرشال، وتنس[2].

إلا أن الإمبراطور لم ير ضرورة لتوقيع معاهدة مع سلطان لا حول له ولا قوة، مذبذب الولاء. في الوقت الذي كان فيه أخوه مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل أن يجلسوه على عرش تلمسان اسما بلا رسم[3]. وهكذا ظل السلطان محمد بن عبد الله يخطب ودّ الإسبان ويتوسل إليهم إلى غاية انكسارهم في حملة شرلكان على الجزائر سنة 1541. فاضطر إلى إعادة النظر في سياسته والخضوع للأتراك من جديد كما رأينا سابقا.

---

(1) انظر نص مشروع المعاهدة التي أرسلها السلطان الزياني في المدني، ص259- 261.

(2) نفسه، 258- 262.

(3) انظر التنازلات التي قدمها عبد الله لدى تنصيبه ملكا على تلمسان من قبل الإسبان في المصدر السابق، ص 236-237.

2- الاستعانة بالأتراك لدعم مواقعهم في الصراع على العرش

كان الأمراء المتصارعون على العرش الزياني كثيرا ما يلجؤون إلى الأتراك طالبين دعمهم في صراعهم على العرش ضد خصومهم ومنافسيهم. وكانت سياسة الأتراك في هذه المرحلة تقوم على دعم أحد أطراف الصراع بغية استمالته ليكون حليفا أو تابعا لهم[1]. وهكذا فعندما استولى أبو محمد الثاني على عرش تلمسان لجأ أخوه المسعود إلى الجزائر طالبا مساندة خير الدين. فأمده خير الدين بما يحتاج إليه من رجال وعتاد على شرط أن يقرأ الخطبة باسم السلطان سليم، وأن يضرب العملة باسمه. فوافق المسعود على ذلك. فاستولى المسعود بفضل هذه المساعدة على تلمسان بينما فر أخوه إلى الإسبان في وهران. واستقر المسعود في تلمسان.

ولكن ما إن عاد الجيش العثماني المساند للمسعود إلى الجزائر حتى خلع المسعود طاعة خير الدين. فبعث إليه خير الدين قوات استطاعت دخول تلمسان دون مقاومة.

في هذه الفترة وفد سلطان تلمسان المخلوع أبو محمد الثاني من وهران على خير الدين معتذرا عما سلف منه في حادثة عروج، فعفا عنه. ثم إن أبا محمد الثاني طلب من خير الدين إعادته إلى عرش تلمسان بعد تنكر المسعود له. فأجابه خير الدين مشترطا عليه ما اشترطه على المسعود. فتوجه أبو محمد الثاني إلى تلمسان

---

(1) بن خروف، ص 28.

ترافقه القوات العثمانية حيث اشتبك مع جيش المسعود الذي مني بهزيمة ثقيلة في أول مواجهة مع الأتراك. ففر المسعود بمن بقي معه من أنصاره، بينما دخل أبو محمد تلمسان واستقر بها[1].

3-إثارة الفتن، والتحريض على الثورة ضد الأتراك

لم يرتح سلاطين تلمسان لوجود الأتراك العثمانيين في الجزائر. واتبعوا كما رأينا سياسات مختلفة تبعا للظروف المحيطة بهم. إلا أنهم عملوا كل ما بوسعهم لزعزعة الاستقرار وتأليب القبائل ضد الأتراك. فمن ذلك أن سلطان تونس أبو عبد الله محمد الحفصي، والسلطان الزياني أبو حمو الزياني اتفقا على تأليب كل من أحمد ابن القاضي في شرق الجزائر، حيث وكلت هذه المهمة إلى السلطان الحفصي، بينما تولى سلطان تلمسان مهمة تأليب محمد ابن علي الذي جعله خير الدين نائبا عنه في غرب الجزائر[2]. فكتب إليه يدعوه للتخلي عن خير الدين والتحالف معه ضده. ولم يكتف بذلك بل قام بتحريض الأعراب في غرب الجزائر، وبذل لهم الأموال الطائلة لاستمالتهم إليه. فما كان من خير الدين إلا أن خرج إليه في جيش كثيف وأخضع الثائرين. ولم يوفق صاحب تلمسان فيما سعى إليه[3].

كما قام مولاي عبد الله بتحريض حسين ابن القاضي، أخي أحمد

---

(1) محمد بن عبد القادر، ص 95- 96.

(2) هايدو، ص 46.

(3) الغزوات، ص 45.

ابن القاضي الذي قتله أنصاره عقب فشل ثورته[1]. لكن خير الدين تمكن من قمع ثورة حسين ابن القاضي الذي استسلم في النهاية كما رأينا ذلك في موضع آخر من هذه الدراسة[2].

ح. موقف العلماء

كان العلماء ينظرون إلى البحارة الأتراك الذين جاءوا إلى الشمال الإفريقي كمجاهدين جاءوا لمناصرة إخوانهم في الأندلس، وإنقاذ الجزائر من الاحتلال الإسباني. ولذلك كانوا على رأس المؤيدين لهم قبل وبعد دخولهم إلى الجزائر. ولم ألحظ أي حركة تمرد أو احتجاج قام بها العلماء وشيوخ الطرق ضد الوجود العثماني في الجزائر. باستثناء الثورة التي قام بها الشيخ أحمد ابن القاضي التي كانت بصفته أميرا وزعيما محليا وليس بصفته عالم دين.

وإذا رحنا نبحث عن الدور الذي لعبه العلماء في تثبيت الوجود العثماني ومساندته في الجزائر فإننا يمكننا أن نشير إليه في النقاط التالية:

1- استدعاء الأتراك لرد العدوان أو ضبط البلاد

كان العلماء وشيوخ الطرق المعروفين بالمرابطين يقومون بتوجيه الدعوة للأتراك للقدوم إلى بلادهم كلما مسّت حاجة إلى ذلك. كمواجهة الاحتلال الإسباني، أو التصدي للفساد الذي يقوم به

---

(1) نفسه، ص 65-66.

(2) انظر ثورة ابن القاضي من هذه الدراسة.

المتصارعون على السلطة والطامعون في الحكم، أو تأديب الخونة من الزعماء المحليين سواء كانوا أمراء أو شيوخ قبائل أو أعيان مدن . فقد رأينا كيف قام الشيخ الفقيه أحمد ابن القاضي بدعوة الأخوين بربروس إلى الجزائر وإقناع أهلها بقبول ولايتهما.

كما أن هذا الشيخ هو نفسه الذي تولى رئاسة الوفد الذي أرسله أهالي مدينة الجزائر إلى إستنبول لكي يطلب من السلطان سليم الأول قبول إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية[1].

2- أداء وظيفة الإفتاء في القضايا السياسية

كان خير الدين يستفتي العلماء كثيرا في الحوادث التي تعرض له؛ سواء تعلق الأمر بموقف سياسي خطير، أو قمع تمرد قام به أحد المشاغبين، أو معاقبة أحد الثائرين أو الخونة.. أو غير ذلك.

ولا شك أن إشراكه للعلماء في اتخاذ قرارات هامة كالتي أشرنا إليها أكسبه احتراما وتقديرا كبيرين ترك انطباعا بأنه لا يستبد بالأمر

---

(1) وانظر الرسالة التي بعث بها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول : الملحق رقم: (2)؛ العروي، *Topkapı SarayıArşivi, No: 645, Şükran Hkkut, s. 55; Uzunçarşılı,* ص4؛ كاتب جلبي، 33؛ *II, 369; Hammer. III,142; Danişmend,II.51-52; Şerefettin Turan, Barbaros Hayreddin Paşa, DİA. V,6*، أوزتونا، **الدولة العثمانية**، 1/ 245؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 2002، ص69؛ المدني، ص196-199؛ بن أشنهو، ص 143-145.

دون العلماء، أو غيرهم من أعيان البلد.

ومن أمثلة رجوعه إلى آراء العلماء في القضايا السياسية التي كانت تعرض له أنه عندما فرغ خير الدين من تحصين مدينة الجزائر، دعا العلماء والأعيان إلى اجتماع عام، ذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكّنهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه. ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكون قد انتهت. وعليهم أن يختاروا واحدا منهم يجعلوه أميرا عليهم[1]. أما هو فقد قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر. فأفتاه العلماء:

«بأنه يتعين عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها، وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضة للعدو الكافر. وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره. والمصلحة التامة تقضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها»[2].

ولما وقع عدد من كبار قادة الإسبان وأعيانهم أسرى في يد خير الدين، بدأ الإسبان يفاوضون خير الدين في فداء هؤلاء الأسرى بمبالغ كبيرة. ولكن العلماء أفتوا بـ:

«قتلهم جميعا نكاية في العدو، ولأنهم عندما يعودون إلى إسبانيا

---

(1) كاتب جلبي، ص33؛ الغزوات، 41؛ الجيلالي، 46-47؛ ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ وانظر أيضا: فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، 113-114.

(2) **الغزوات**، ص41. ابن أبي الضياف، 2/ 10؛ التميمي، **أول رسالة**، ص 119.

فسوف يعودون إلى الجزائر مرة أخرى. خصوصا وأنهم من القادة والكبراء. فنفذ خير الدين ما جاء في فتوى هؤلاء العلماء»[1].

وحينما تمرد أمير تنس على خير الدين وجعل يغير على المناطق الخاضعة له استفتى هذا الأخير العلماء في أمره. فأفتوه بإباحة دم المفسد، ودماء المفسدين من أمثاله[2].

3- الوساطة بين الأتراك وزعماء حركة التمرد

بالإضافة إلى وظيفة الاستشارة الشرعية التي كان يقوم بها العلماء، كانوا يقومون بدور الوسيط بين الشعب، أو زعمائه المحليين وبين القيادة العثمانية الممثلة في خير الدين. وكثيرا ما كان خير الدين يطلب من العلماء استعمال نفوذهم المعنوي للتوسط في إنهاء التمرد دون اللجوء إلى استعمال وسائل القمع والعنف. وأحيانا كانت وساطاتهم تكلل بالنجاح، وأحيانا كان الإخفاق حليفها عندما تصطدم بتصلب زعماء الثورة.

كما كان العلماء أيضا يقومون بنقل مطالب الثائرين، أو التوسط لهم عند خير الدين لكي يعفو عنهم كما سنرى بعد قليل. وهكذا نفهم أن دور العلماء حقيقة كان خطيرا في هذه المرحلة التي كان الصراع بين المسلمين والإسبان يأخذ طابعا دينيا حتى وإن كان في جوهره يحمل أبعادا سياسية واقتصادية واجتماعية كما سبق أن

---

(1) أحمد جواد مولي، الزهرة النيرة، ق 11 (أ)، 13 (ب).

(2) الغزوات، ص 32.

بيناه عند حديثنا عن أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نشير إليها لبيان دور الوساطة الذي كان العلماء يقومون به ما يلي:

- عندما ثارت مدينة الجزائر مرة أخرى بتأثير دعاية مضادة للوجود العثماني قام بها بعض أتباع ابن القاضي من أعيان المدينة الذين رأوا في حركة خير الدين خطرا على مصالحهم الذاتية.
- حاول خير الدين حل المشكل بطريقة سلمية مستعينا بالعلماء الذين حذروهم من عواقب التمرد. ولكن زعماء الثورة رفضوا وساطة العلماء وأصروا على تمردهم. فأصدر العلماء حينئذ فتوى تقضي بوجوب القضاء على رؤوس الفتنة وتحريم التعاون معهم. فقام خير الدين بتفريق الأهالي الثائرين، واعتقال زعماء الثورة وإعدامهم[1].

ط. موقف الأهالي

بشكل عام كان الأهالي مؤيدين للأتراك ومناصرين لهم تبعا لتأييد العلماء والأعيان. وقد رأينا في ثنايا هذه الدراسة كيف أنهم كانوا يقومون بإرسال الوفود الممثلة لهم تدعو الأخوين بربروس إلى القدوم إليهم. كما رأينا حفاوة الاستقبال الذي حضي به عروج عندما حل بالجزائر. ورأينا أيضا قبل ذلك احتفاء أهالي جيجل به

---

(1) انظر تفاصيل هذه الثورة في نفس المصدر، ص52-56؛ محمد بن عبد القادر، ص96.

وبمن معه من البحارة الأتراك.

والحالات التي سجلت فيها معارضة الأهالي لهم كانت محدودة ومقيدة بأسبابها الموضوعية سنشير إليها بعد قليل. وكيفما كان الأمر فقد كان تأييد الأهالي للدخول العثماني إلى الجزائر نابعا من قناعتهم أنهم جاءوا لتخليصهم وحمايتهم من الاحتلال الإسباني. بل لحمايتهم أيضا من جور حكامهم الفاسدين الذين لا همَّ لهم سوى التنازع والصراع على العرش.

وهكذا كانوا يلجؤون إليهم كلما لمسوا من أنفسهم حاجة لاستدعائهم لمواجهة وضع خطير سواء كان احتلالا أو تهديدا أو للتخلص من حاكم فاسد. فقد رأينا في موضع سابق من هذه الدراسة كيف أن الملك الزياني أبي حمو الثالث عندما اغتصب العرش من ابن أخيه أبي زيان، وتحالف مع الإسبان أرسل أعيان مدينة تلمسان يطلبون منه التدخل. فاستجاب عروج لطلب الوفد، وتوجه إلى تلمسان حيث دخلها ونصب أبا زيان[1].

كما استعان أهالي تنس بعروج لإزاحة الأمير الزياني الفاسد يحي الثابتي الخائن الذي تحالف مع الإسبان من أجل أن يساندوه في صراعه على العرش ضد عمه أبا زيان الملقب بالمسعود. فأرسلوا

---

(1) بن أشنهو، ص 74-75؛ جلال يحيى، **المغرب الكبيرة**، القاهرة، (بدون تاريخ)، 3/ 16؛ المطوي محمد العروسي، **السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت 1986، ص 676؛ الزبيري، 33-35؛ الطمار، ص 229؛ الميلي، 3/ 47-51.

له سفينة حربية مشحونة بالجنود. فبعث الأهالي على إثر ذلك إلى عروج يستدعونه لتخليص مدينتهم من الإسبان وعميلهم[1].

ورغم محبة الأهالي للأتراك، وتقديرهم لما يقومون به من دور عظيم، إلا أن بعضهم كان يستجيب بسرعة لحملات الدعاية المضادة لهم، والتي كان يقوم بها الحاسدون والمنافسون لهم من الزعماء المحليين. ولذلك لاحظنا ثورة أهالي الجزائر رغم أنهم هم الذين استدعوا الأخوين بربروس، وثارت مناطق كثيرة ضد خير الدين بفعل الدعاية الكبيرة التي قام بها ابن القاضي وأنصاره. حتى فترت العلاقة بين خير الدين وبين أهالي مدينة الجزائر. وشعر الجنود بالكراهية والنفور منهم بسبب الثورات وحركة التمرد التي قاموا بها بتحريض من ابن القاضي. وقبله من الشيخ سالم التومي ثم من ابنه. فقرر مغادرة مدينة الجزائر إلى جيجل. فتأثر كثير من الأهالي وحزنوا لذلك كثيرا. وخرجوا إلى الميناء لتشييعه وهم يبكون[2].

كما وقف أهالي تلمسان موقفا سلبيا من عروج حينما كان محاصرا من طرف الإسبان وتركوه يواجه مصيره بنفسه مع عدد قليل من رجاله.

ولكن هذه الثورات كان لها في أحيان كثيرة ما يبررها والتي

---

(1) المبحث الخاص بتحرير مدينة قلعة تنس في هذه الدراسة.

(2) كاتب جلبي، ص 35.

نكاد تكون أسبابها تنحصر في أمرين:

أ. الدعاية والتحريض اللذان قام بهما المعارضون للأتراك أمثال الشيخ سالم، وابنه يحيى، وابن القاضي، أبو حمو الزياني.. وغيرهم من الزعماء والأمراء المحليين. علما أن بعض التأييد الذي كان يبديه الأهالي لحركات المعارضة للأتراك قد تكون تحت الإكراه والخوف من انتقام هؤلاء الثائرين. والدليل على ذلك إسراع الأهالي بإرسال تأييدهم لعروج أو لخير الدين فور القضاء على حركة التمرد[1].

ب. رد الفعل العكسي لبعض السلوكيات الفظّة التي قام بها الجنود الأتراك. فقد كان الأهالي يثورون على كل من يسيء معاملتهم. فكما ثاروا على فظاظة الجنود الأتراك في أيام عروج ثاروا على فظاظة ابن القاضي وسوء معاملته لهم، بعد تأييدهم له في ثورته على خير الدين. ولم يترددوا في إرسال وفد عنهم إلى جيجل يدعونه إلى الجزائر معلنين تبعيتهم له ونبذهم لابن القاضي[2].

---

(1) **الغزوات**، ص 62.

(2) نفسه، ص63؛ رضا نور، **تورك تاريخي**، إستنبول، 1925، 2/ 289.

ردود أفعال سلاطين تونس والمغرب

1. ردود أفعال السلطان الحفصي

من نافلة القول التذكير بأن سلطان تونس أبو الحسن الحفصي يعد صاحب الفضل في التمهيد للوجود العثماني ثم العثماني في شمال إفريقيا. فهو الذي فتح جزيرة جربة للبحارة الأتراك كي يتخذوا منها قاعدة انطلاق لهم للإغارة على السفن والسواحل الأوربية، خصوصا الإسبانية منها. ولا شك في أن فعله ذلك لم يكن بريئا من الأغراض المصلحية الذاتية. فقد كان كما أسلفنا من قبل قد اتفق مع الأخوين بربروس على أن يعطياه خُمس ما يغنمون[1]. فمن المؤكد أنه كان يجني مكاسب اقتصادية وسياسية وأمنية كبيرة من جراء هذا الدعم. لأنه بالإضافة إلى الخمس الذي كان يأخذه مقابل هذا الدعم، فإنه كان يتلقى هدايا كبيرة تذهب إلى خزانته الخاصة[2]. كما كان البحارة الأتراك يقومون ببيع غنائمهم لتجار بلده مما يعني تمكنه من فرض ضرائب أخرى طالما أن الحركة التجارية منتعشة بفضل غزوات البحر التي يقوم بها الأتراك. ومن الناحية الدينية والسياسية فإن دعمه للأتراك كان يظهره بمظهر المدافع عن السواحل الإسلامية، المنتصر لمسلمي الأندلس الذين يتعرضون

---

(1) المطوي، ص 673.

(2) الغزوات، ص 15-16.

لشتى ضروب الإرهاب الكنسي. فكان يسعى من وراء ذلك إلى استعادة هيبته المهتزة في نفوس رعاياه[1]. ومن أجل ذلك فليس من المستغرب أن يرحب بالغزاة الأتراك، ما داموا يحققون له كل ذلك، دون أن يتحمل أي عبء مادي أو معنوي مقابل ذلك.

ولكن ذلك كله كان عندما كان الأخوان بربروس مجرد بحارين يغيران على السفن والسواحل الأوربية. لكن عندما توالت انتصاراتهما في البر والبحر، ولاح في الأفق أنهما سيصبحان قوة يمكنها أن تشكل خطرا على الإسبان وعليه بدأ القلق يساوره بشأنهما. وقد تأكدت هذه المخاوف أثناء حصار الأخوين بربروس لبجاية، والذي دام 24 يوما انتهى بنفاد ما لديهما من البارود. فأرسلا إليه يطلبان منه تزويدهما به. فتجاهل طلبهما إلى أن وصلت الإمدادات الإسبانية إلى القلعة. الأمر الذي اضطرهما إلى رفع الحصار عن القلعة. مما كان سببا في تكريس احتلال المدينة التي كانت تابعة له ذات يوم[2].

من خلال هذا الحصار تأكد للسلطان الحفصي أن الأخوين بربروس يحملان طموحا كبيرا يهدف إلى تحرير كامل الساحل الشمال إفريقي انطلاقا من الجزائر. وهذا المشروع الطموح يقتضي بطبيعته إما أن تقف وراءه دولة قوية تسنده، أو تأسيس دولة قوية تحتضنه وتعمل لجسيده في الواقع. وفي كلتا الحالتين كان السلطان

---

(1) نفسه، ص 673.

(2) نفسه، ص 25-26؛ الجيلالي، 3/ 38.

منزعجا من هذا الطموح لأنه لم يكن يحكم المملكة القوية التي من شأنها أن تسند مثل هذا المشروع، ولا هو قادر على تحمل وجود دولة قوية مجاورة لمملكته يمكنها أن تهدد وجوده[1].

ولما أرسل السلطان العثماني سليم الأول الخلعة والسيف المرصع مع بقية الهدايا إلى الأخوين بربروس في تونس، وأرفق ذلك بأمر سلطاني يأمر فيه الملك الحفصي بتقديم شتى أنواع الدعم المادي والمعنوي لهما. أدرك حينها أبو الحسن الحفصي أن الأخوين بربروس لم يعودا مجرد قرصانين بائسين يعيشان على ما يغنماه من غزواتهما، بل ممثلين للسلطان العثماني. فتضاعف خوفه الممزوج بمشاعر الحسد والغيرة المكبوتة[2].

وعندما استقر الأخوان بربروس في الجزائر وشرعا في إخضاع المناطق الداخلية من الجزائر، تضاعفت مخاوف السلطان أبي الحسن الحفصي من القوة النامية على يديهما في الجزائر. ولذلك فإنه ما إن بلغه نبأ استشهاد عروج، وانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، حتى سارع إلى المجاهرة بعداوته، وشرع من فوره في التآمر مع سلطان تلمسان الذي كان يشاطره الشعور نفسه. وهكذا بدأت رحلة المؤامرة والتآمر على الوجود العثماني انطلاقا من المملكتين الحفصية والزيانية[3].

---

(1) المطوي، ص 676.

(2) ابن أبي الضياف، 2/ 11.

(3) بن أشنهو، ص 149.

يقول المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف شارحا الأسباب التي دفعت السلطان الحفصي إلى معاداة خير الدين بربروس:

«ولما علم بذلك (انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية) محمد بن الحسن داخلته الغيرة الملكية، واشتد حذره من خير الدين. وتحقق أنه إذا وصل يده بالدولة العثمانية، سهل عليه الاستيلاء على المملكة التونسية. وندم على إضاعة الحزم. فركب متن الفساد والفتنة بين نواب خير الدين. وكاتب صاحب تلمسان يحذره غائلة خير الدين. وجرت بسبب ذلك حروب يطول شرحها»[1].

جاء في كتاب الغزوات أن الملك أبا الحسن الحفصي كتب إلى أبي حمو الثالث ملك تلمسان عارضا عليه التحالف ضد العثمانيين جاء فيه:

«إن خير الدين باشا بلية أكبر من أخيه عروج، وها هو الآن يستند إلى السلطان سليم خان. فلم يعد لغروره حد، بل صار يتحدى العالم كله بما في ذلك إسبانيا. وقد حسبه السلطان رجلا يُعتمد عليه فمنحه رتبة البيلرباي والباشا والسيف المرصع، والخلعة، والسنجق[2]. وهو الآن يتزود من الأناضول بما يحتاج إليه من رجال وعتاد بشكل دائم. إن الحزم يقتضي أن نكون يدا واحدة حتى نتمكن من القضاء على الأتراك الذين لم يمض على دخولهم شمال إفريقيا عشر سنوات حتى جعلوا أنفسهم

---

(1) المصدر السابق، 2/ 11.

(2) السنجق: الراية.

أسيادا علينا»[1].

وكان من نتيجة هذه المشاورات أن اتفقا على أن يقوم السلطان الحفصي بإقناع ابن القاضي بالتمرد على خير الدين؛ بينما يقوم سلطان تلمسان أبو حمو الثالث بتأليب محمد علي ومن جاوره من القبائل. وتقديم كل أشكال الدعم لهم للقضاء عليه[2].

وبالفعل لم يكتف سلطان تونس بالقول، بل تعداه إلى الفعل فقام بتحريض ابن القاضي الذي اتفق معه بعد تردد على أن يقوم الحفصي بغزو الجزائر – لأنها كانت نظريا تابعة له – على أن يقوم ابن القاضي بمهاجمة خير الدين من الخلف[3].

وعندما علم خير الدين بالدسائس التي يحيكها السلطان الحفصي، كتب إليه يلومه على فعله. لكن السلطان التونسي بدلا من أن يعيد النظر في موقفه، جهز جيشا لغزو الجزائر. فتوجه خير الدين إلى المنطقة الشرقية وعسكر بها. حتى إذا اشتبك الجيشان التونسي والعثماني المكون من الجزائريين، فاجأ ابن القاضي خير الدين بتمرّده وحصره في وسط القوتين الحفصية والجيش الذي معه. فقتل الكثير من رجال خير الدين، ولم ينج منهم سوى عدد يسير من البحارة تمكنوا من الانسحاب إلى جيجل بصعوبة بالغة[4].

---

(1) انظر **الغزوات**، ص 44.

(2) نفسه، ص 46؛ وانظر أيضا: كاتب جلبي، ص 33.

(3) لمزيد من التفاصيل، انظر ثورة ابن القاضي من هذه الدراسة، ص222.

(4) **الغزوات**، ص50؛ محمد بن عبد القادر، ص95؛ إيفانوف، مرجع =

ولم يتوقف السلطان عند حد تحريض ابن القاضي والإعداد لغزو الجزائر؛ بل أرسل إلى أتباعه في قسنطينة محرضا لهم على الثورة. فثار أنصاره في المدينة المذكورة عامي 1526، و1527. غير أن خير الدين وقف بحزم ضد مثيري الشغب من أنصار الحفصيين. وقام بإخماد الثورة، وأعاد السيطرة على المدينة. فكان من نتيجة ذلك أن فقد الحفصيون نفوذهم في جميع المقاطعات الغربية والصحراوية نهائيا بعدما أعلنت هذه المناطق خضوعها التام للعثمانيين[1].

لقد انتهى الأمر بالسلطان الحفصي إلى أن يتحالف مع الإسبان، بل والخضوع لهم بتسليمهم عاصمة ملكه، واستباحتها لهم ليقتلوا ثلث رعاياه على مدى ثلاثة أيام متوالية، وتوقيع الملك معاهدة تبعية للإسبان، وتسليم قلعة عنابة لهم، بالإضافة إلى شروط أخرى سبق أن أشرنا إليها[2].

لقد كان السلطان الحفصي مدركا بأن الإسبان إذا دخلوا تونس فلن يخرجوا منها، ومع ذلك فقد آثر أن يسلمهم البلاد على أن يستولي عليها من جاءوا لتحرير المدن التابعة له.

حقيقة إن سلوك الملك الحفصي هذا يدعو إلى العجب. فقد احتل الإسبان مدنا كانت تابعة لمملكته، مثل بجاية، وعنابة، والقل،

= سابق، ص185.

(1) نفسه، ص186.

(2) **الغزوات**، ص95؛ وانظر أيضا السراج، ص164؛ ابن أبي الضياف، 1/ 971، إيفانوف، ص 698-699.

وطرابلس، والجزائر، ودلس. وكان يُنتظر منه أن يكون يدا واحدة مع العثمانيين لتحرير تلك المدن. وكان يكفيه إعلان تبعيته للدولة العثمانية ليبقى في عرشه. فقد كانت سياسة الدولة العثمانية الإبقاء على الملوك والأمراء المحليين في مواقعهم وعدم تغييرهم. إلا أنه اختار طريق الكيد والتآمر مع خصوم العثمانيين. قبل أن ينتهي به الأمر إلى الارتماء في أعدائه الإسبان.

وهكذا فإننا يمكننا أن نخلص إلى أن موقف السلطان الحفصي من الوجود العثماني في الجزائر كان عدائيا منذ حصار بجاية. واستمر ذلك كسياسة رسمية في ملوك بني حفص إلى أن تم فتح تونس مرة ثانية والقضاء التام على الدولة الحفصية.

ب. ردود أفعال سلاطين المغرب

على خلاف الموقف الذي كان عليه الحفصيون من الدخول العثماني إلى الجزائر؛ فإن الوطاسيين الذين كانوا يعيشون أيام حكمهم الأخيرة في المغرب حاولوا التزام سياسة محايدة نحو ما يجري في الجزائر. ولعل ذلك لكونهم كانوا يعيشون في وضع مختلف عما كانت عليه الدولة الحفصية. فقد علمنا في مدخل هذه الدراسة أن البرتغاليين كانوا يحتلون المناطق المهمة على طول الساحل المطل على المحيط الأطلسي. كما كان الإسبان يحتلون بعض المناطق المهمة في شمال المغرب[1]. فأصبح وضع المغرب بذلك أشبه بوضع الجزائر

---

(1) الوزان، ص 259-261، وانظر أوضاع المغرب قبيل الدخول =

مع فارق بسيط هو عدم وجود فراغ سياسي مثل ما كان حاصلا في الجزائر. فقد كان الوطاسيون لايزالون يديرون شؤون المغرب ولو بشكل اسمي في مناطق كثيرة من المغرب. وحتى عندما ظهرت المقاومة السعدية ضد الاحتلال البرتغالي في الجنوب المغربي، فإن هذه المقاومة لم تكن قد تبلورت في شكل حركة سياسية تهدف إلى إسقاط الوطاسيين إلا في الفترة التي تولى فيها خير الدين بربروس حكم الجزائر.

وعلى الرغم من سياسة الحياد التي سار عليها السلاطين الوطاسيون، إلا أن ذلك لم يمنعهم من إيواء بعض الأمراء الزيانيين الفارين من تلمسان، دون أن يقدموا لهم المساعدة ضد بعضهم بعضا، أو ضد الإسبان، أو ضد العثمانيين. فعندما أطاح عروج بأبي حمو الثالث الزياني عن عرش تلمسان سنة 1517، ذهب هذا الأخير إلى فاس مستجيرا بسلطانها الوطاسي محمد البرتغالي. مستعينا به على استعادة ملكه من عروج. لكن السلطان الوطاسي كان مشغولا بمشاكله الداخلية رفض التورط في حرب ضد عروج[1].

وعندما أعاد الإسبان أبا حمو الثالث إلى عرش الدولة الزيانية بعد مقتل عروج، فرّ اثنان من إخوته هما عبد الله، ومسعود إلى المغرب. فبعث السلطان أبو حمو في طلبهما. لكن السلطان المغربي

= العثماني إلى الجزائر من هذه الدراسة.

(1) المصدر السابق، ص 406- 407.

امتنع عن تسليمهما. بل خيرهما بين الذهاب إلى تلمسان، وبين البقاء في المغرب[1].

وسار أبو العباس الوطاسي الذي خلف والده سنة 1526 على النهج نفسه في استقبال أمراء الدولة الزيانية وإيوائهم دون التورط في أي حركة من حركاتهم، أو إمدادهم بأي عون. سواء كان ذلك ضد العثمانيين، أو الإسبان، أو ضد بعضهم بعضا[2].

وربما بسبب علم الوطاسيين بضعف الزيانيين لم يحاولوا التحالف معهم ضد الأتراك، أو حتى ضد الإسبان.

لكننا نلاحظ أن خير الدين بربروس عندما فرغ من تثبيت الوجود العثماني في الجزائر تطلع إلى فتح وهران . فأرسل على إثر ذلك إلى السلطان الوطاسي المذكور، وإلى أمير باديس (أبي حسون الوطاسي)، وإلى سلطان تلمسان، وغزاة البحر في تونس إلى المساهمة في فتح وهران بما يملكونه من سفن[3].

إلا أن الوطاسيين لم يكن بوسعهم التجاوب مع دعوة خير الدين بسبب انشغالهم بالنزاع مع السعديين الذين استولوا على مراكش، ورفضوا الاعتراف بالتبعية للسلطان الوطاسي. فكان ذلك أحد أسباب عدم تنفيذ خير الدين لحملته على وهران.

---

(1) نفسه، ص 406- 407.

(2) بن خروف، ص 146-148.

(3) بريموداي، **الوثائق المغفلة**، ص 34-35.

وابتداء من سنة 1531 حقق التقارب العثماني – الوطاسي نقلة أكثر أهمية من ذي قبل. فقد ورد في مجموعة المصادر المغفلة لتاريخ المغرب أن خير الدين قام على رأس مجموعة من السفن بالرسو في الموانئ الشمالية لمملكة فاس، والتزود منها بما يحتاج إليه من حبوب وغيرها، للتغلب على المجاعة التي أصابت الجزائر في هذه السنة[1].

ومن جهة أخرى جاء في رسالة مرسلة من حاكم جبل طارق إلى حاكم إشبيلية، مؤرخة في 25 أفريل 1537، أن بربروس في 1531 رسا بـ26 سفينة بتيطوان، والعرائش[2]. ولم نتمكن من معرفة هل هذا الرسو هو نفسه الذي ورد في الفقرة السابقة، أم غيره.

كما ذكر بأنه في سنة 1531 وصل سفير من الجزائر إلى فاس للوقوف على مقدار استعداد الوطاسيين لمحاربة النصارى، حسب ما جاء في رسالة من حاكم مالقة إلى إيزابيلا دي برتغال مؤرخة في 12 أوت 1531[3].

---

(1) المصادر المغفلة لتاريخ المغرب. *Source Inédits Sur L'histoire De Maroc S.I.H.M)* جمع وتحقيق هنري دو كاستري، وآخرون 1/ 1؛ وانظر أيضا: **مجموعة المصادر الأصلية لتاريخ المغرب**، المجموعة الأولى، إسبانيا، 1/ 3.

(2) نفسه، 1/ 3–5.

(3) نفسه، 5/ 61.

وفي عام 1532 بعث خير الدين إلى السلطان الوطاسي يعرض عليه استعداده الكامل لأن يأتي بنفسه إلى أي مركز يريد مهاجمته. كما أرسل في الخطاب نفسه يطلب تزويده بالملح والبارود، فاستجاب السلطان الوطاسي لذلك وأرسل إليه ما يريد[1].

وقد أثار هذا التقارب مخافة الإسبان والبرتغال. فأرسلا تعزيزات إلى قواعدهما في شمال وجنوب المغرب، تفاديا لأي هجوم عثماني - وطاسي محتمل[2].

وفي عام 1535 استقبل السلطان الحفصي في فاس سفارة من الجزائر، أرسلها خير الدين باشا لم يعرف مضمون الرسالة التي حملها السفير. ولكن بعد وصول الوفد بفترة قصيرة قام الوطاسيون بمهاجمة مليلة مما يوحي بأن هذه السفارة كانت لها يد في الهجوم إما بالتشجيع، أو المساندة[3].

وفي أعقاب فشل حملة شرلكان على الجزائر، أرسل حسن آغا خليفة خير الدين في الجزائر مبعوثا إلى السلطان الوطاسي سنة 1541 لشراء سفن[4].

والذي أردنا الوصول إليه من سرد كل هذه السفارات هو

---

(1) المصادر المغفلة، 1/ 41-43.

(2) نفسه، 1/ 1.

(3) وردت هذه المعلومة في رسالة بعثت بها إيزابيلا دي برتغال إلى شرلكان في 17/ 6/ 1535. انظر المصدر نفسه، 5/ 72.

(4) انظر بريموداي، 253.

التدليل على أن موقف الوطاسيين لم يكن موقفا عدائيا للوجود العثماني في الجزائر. بل سارعوا على التعاون معهم طالما أن ظروفهم كانت مواتية لذلك. ويبدو أن الوطاسيين كان هدفهم الاستفادة من هيبة الدولة العثمانية لتخويف أعداء الخارج (إسبانيا والبرتغال) اللّتان كانتا تحتلان المراكز المهمة في الساحل المتوسطي والأطلسي.

وقد كان التقارب العثماني الوطاسي مقلقا للإسبان والبرتغاليين على حدّ سواء. الأمر الذي جعلهم يسارعون إلى تجهيز وتموين مراكز احتلالهم. خصوصا عندما بلغهم وصول سفير الجزائر إلى فاس لمعرفة مدى استعداد الوطاسيين لمحاربة إسبانيا والبرتغال[1]. ولذلك راحوا يعملون على عرقلة التقارب العثماني الوطاسي بعقد اتفاقات مغرية مع السلاطين الوطاسيين، لكي ينفسح لهم القضاء على الأتراك في الجزائر، والأشراف السعديين في جنوب المغرب. وفي هذا الصدد نجد أن البرتغاليين عقدوا هدنة مع السعديين في 25 أفريل 1537 لمدة 3 سنوات، مع إجراء تبادل تجاري بين رعايا البلدين[2]. كما جرت مفاوضات مع الوطاسيين انتهت بعقد هدنة مماثلة لمدة 11 عاما يوم 24 جوان 1541[3].

بل أشارت وثيقة برتغالية إلى أن الأتراك كانوا في صفوف القوات السعدية منذ 1529، ومشاركتهم في تحرير سانتا كروز

---

(1) المصادر الأصلية، 1/ 174.

(2) نفسه، 3/ 44.

(3) نفسه، 3/ 44.

سنة 1541[1].

والذي نخلص إليه مما سبق، أن الوطاسيين حاولوا جاهدين اتخاذ موقف حيادي إزاء الصراع العثماني في الجزائر ضد القوى المحلية. وحاولوا عدم التورط في أي نزاع مع العثمانيين على خلاف ما فعله الحفصيون الذين عملوا كل ما في وسعهم لعرقلة الدخول العثماني في الجزائر بتحريض القوى المحلية للثورة عليهم.

كما سعى الوطاسيون بالإضافة إلى ذلك استخدام العثمانيين كورقة ضغط وتخويف ضد الإسبان والبرتغاليين من خلال التحالفات التي عقدوها معهم. كما استخدموهم أيضا كوسيلة تهديد ضد السعديين، وذلك عندما أعلن أبو حسون الوطاسي تبعيته للعثمانيين.

أما السعديون فبحكم انشغالهم بالتصدي لطرد الاحتلال البرتغالي والإسباني من جنوب المغرب، ونزاعهم مع خصومهم الوطاسيين في الشمال. وجدوا أنفسهم مضطرين لاتباع سياسة الحياد إزاء الدخول العثماني في الجزائر. لكي لا يفتحوا على أنفسهم جبهة صراع جديدة. ولم يترددوا هم أيضا في الاستفادة من أتراك الجزائر في صراعهم ضد الاحتلال البرتغالي، كما فعل خصومهم الوطاسيون.

فقد ورد في مجموعة المصادر الأصلية لتاريخ المغرب، أن الأتراك

---

(1) **الوثائق المغفلة**، ص 8/ 391.

اشتركوا في دعم المقاومة السعدية ضد الاحتلال الإسباني. وذلك بمدهم بمختلف الأسلحة التي كانت تعتبر متطورة باعتبار ذلك العصر. وقد تجلى التعاون العثماني المغربي في تحرير حصن سانتا كروز من الاحتلال البرتغالي سنة 12 مارس 1541[1].

وخلاصة ما يمكن التوصل إليه من موقف سلاطين المغرب نحو الدخول العثماني هو أن كلا من الوطاسيين والسعديين عمل على اتباع سياسة حياد نحو الصراع الذي كان يخوضه العثمانيون لتثبيت وجودهم في الجزائر. فلم يتحالفوا مع أي قوى محلية أو أجنبية ضدهم. كما سعى كل منهما للاستفادة من العثمانيين ضد الإسبان والبرتغاليين. إلا أننا سوف نلاحظ عند حديثنا عن العلاقات الجزائرية - المغربية في هذه المرحلة كيف أن محاولة العثمانيين مد نفوذهم إلى المغرب، جعل الوطاسيين والسعديين يعيدون النظر في سياسة الحياد التي سلكوها في أثناء الدخول العثماني إلى الجزائر.

(1) نفسه، 3/ 391.

الفصل الثاني
السياسة العثمانية في الجزائر

السياسة العامة نحو القوى الدينية

لعب العلماء دورا كبيرا في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر، وإعطاء مصداقية شرعية للمواقف السياسية التي كان ينتهجها الأتراك العثمانيون في داخل وخارج الجزائر. ولذلك فلا غرابة أن نجدهم يحظون بمكانة واحترام كبيرين لدى كل من عروج وأخيه خير الدين بربروس. فعرفا لهم قدرهم وأهميتهم. وجعلا منهم مستشارين لهم في الكثير من القضايا السياسية والدينية. فكان كلّ منهما لا يقطع بأمر هام دون الرجوع إلى رأيهم. الأمر الذي أدى إلى تكوين تحالف قوي بينهم ساهم في تذليل الكثير من العقبات التي كانت تعرقل الدخول العثماني إلى الجزائر خلال هذه الفترة.

وقد تجلت مكانة العلماء عند الأخوين بربروس من خلال الدور المساند للعثمانيين، والذي يمكن إبرازه فيما يلي:

1. إعطاء الصبغة الشرعية للأعمال التي كان يقوم بها عروج، وخير الدين في نضالهما من أجل تحرير المدن الساحلية المحتلة من طرف الإسبان، وتقديم مختلف أشكال الدعم لمسلمي الأندلس.

وتأييد المواقف السياسية والعسكرية التي كان يتخذها الأخوان بربروس في الجزائر. وذلك بإصدار الفتاوى الشرعية المتعلقة بالسلم، والحرب، والصلح المؤيدة للقرارات التي كان تتخذها الإدارة العثمانية في الجزائر. ومن أمثلة ذلك إفتاؤهم لخير الدين بعدم جواز ترك الجزائر والانصراف عنها إلى غيرها بسبب حركات التمرد التي تصاعدت عقب استشهاد عروج. وبطلان جهاده في مكان آخر. لأن جهاده في الجزائر أصبح فرض عين في حقه، ولا يمكن لأحد أن يحل محله. بينما يوجد غيره ممن يمكن أن يجاهد في بلاد الروم أو غيرها[1]. فكان من نتيجة ذلك أن خضع خير الدين لرأي العلماء وقرر استئناف نضاله في الجزائر، حتى تمكن من قمع تلك الثوارت. ومن ذلك أيضا أخذه بفتوى العلماء في أمر كبار القادة والأمراء الإسبان الذين تم أسرهم عقب فشل إحدى الحملات على الجزائر. وكان عددهم 36 أميرا وضابطا. فأرسل الملك شرلكان في فدائهم 100 ألف قطعة ذهبية. إلا أن العلماء أفتوا بعدم جواز قبول فدائهم لأنهم عندما يرجعون إلى بلادهم سوف يكونون أكثر إيذاء للمسلمين. فلم يسع خير الدين سوى أن يقبل برأيهم ويأمر بإعدامهم جميعا.

ثم أرسل الملك الإسباني بعد ذلك عارضا 7.000 قطعة ذهبية مقابل استعادة جثثهم. فأفتى العلماء بأنه لا يجوز بيع الميتة.

---

(1) انظر: الغزوات، ص 41.

فرفض خير الدين بناء على ذلك أيضا أن يعيد الجثث مقابل العرض الذي تقدم به الإسبان[1].

2. الرجوع إلى العلماء في القضايا السياسية الهامة. كاستشارته لهم في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وإرساله لوفد يرأسه الشيخ أحمد بن القاضي الذي كان أحد علماء الدين وأميرا على إحدى المناطق البربرية الكبيرة في جبل كوكو كما سلفت الإشارة إلى ذلك من قبل. وكذلك استشارتهم في أمر معاقبة أهالي مدينة الجزائر الذين تواطؤوا مع الثوار. فتدخل العلماء وأقنعوه بأن أهل المدينة لم يشتركوا جميعا في الثورة، وإنما شارك فيها الأوباش والسفلة. فقبل تدخلهم، واكتفى بمعاقبة رؤساء الثورة[2].

3. قيام العلماء بمهمة الوساطة بين خير الدين وبين الثائرين، سواء كانوا من الزعماء أو الأهالي. فمن أمثلة ذلك توسطهم بين خير الدين وبين زعماء أهالي الجزائر الذين عقدوا اجتماعا تنظيميا للثورة على الأتراك. فتدخل العلماء وبينوا لهم بأن ذلك لا يحل لهم. وعندما أصر الثائرون على تمردهم أفتوا لخير الدين بقتلهم فقام بإعدامهم[3]. وكذلك توسطهم لسلطان تلمسان لدى خير الدين للعفو عنه. فقبل شفاعتهم وعفا عنه رغم خيانته، وتحريضه للإسبان

---

(1) التلمساني، الزهرة النائرة، ق11(أ)، 13(ب)؛ كاتب جلبي، ص32.

(2) المصدر السابق، ص 52.

(3) **الغزوات**، ص 52-56.

والأعراب ضده[1].

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن العلماء كانوا يمثلون السند المعنوي للعثمانيين. ولذلك فإن سياسة خير الدين وقبله عروج كانت تقوم على إشراكهم في الفصل في الكثير من القضايا السياسية، والالتزام الشديد بفتاواهم فيما يتعلق بالمسائل الشرعية. فكان ذلك سببا في توثيق الصلة بين العثمانيين وبين العلماء. الأمر الذي سهّل بشكل كبير إعطاء الصبغة الشرعية والدينية للوجود العثماني بالجزائر.



(1) انظر تفاصيل ذلك في الغزوات، ص 47.

السياسة العامة نحو الزعماء المحليين

عرفنا سابقا أن الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر، والاحتلال الإسباني لسواحلها، ساهما بشكل كبير في دخول العثمانيين إليها. ولم يكن الإسبان هم العقبة الوحيدة التي أعاقت تثبيت الوجود العثماني فحسب؛ بل إن الزعماء المحليين من أمراء وشيوخ قبائل لعبوا دورا كبيرا في عرقلة تحقيق الوحدة السياسية للجزائر، وتحريرها من الاحتلال الإسباني.

ولذلك فقد قضى خير الدين بعد استشهاد أخيه عروج سنوات حكمه للجزائر في صد الهجمات الإسبانية على المدن والقلاع التي تمكن من طردهم منها، والتصدي للثورات التي كان يقودها الزعماء المحليون ضد الأتراك[1]. فقد شعر هؤلاء الزعماء بأن الوجود العثماني يشكل خطرا على وجودهم، ويسلبهم نفوذهم في المناطق الخاضعة لهم. كما رأى بعضهم في الوجود العثماني عائقا يحول دون تمكينهم من توسيع نفوذهم. ولذلك فقد رأينا ردود أفعال هؤلاء الزعماء التي اتسمت بالمعارضة والسرية العلنية، والتواطؤ مع الإسبان، واستغلال أي فرصة لإعلان التمرد والعصيان. حتى إذا تم إخماد تلك الثورات أعلن هؤلاء الزعماء

---

(1) جلال يحيى، المغرب الكبير، 3/ 24.

خضوعهم منتظرين الفرصة للتمرد مرة أخرى.

وهذه المواقف المتذبذبة التي سار عليها هؤلاء الزعماء هي التي تفسر لنا مواقفهم المتناقضة التي سبقت الإشارة إليها في مواضع مختلفة من هذا الكتاب. كتحريض الأمير الزياني الذي نصبه عروج خلفا لعمه أبي حمو موسى بطلب من الأهالي، ثم لم يلبث هذا الأمير أن شرع في تحريض أهالي تلمسان عليه. فما كان من عروج إلا أن قام بإعدامه مع عدد من أمراء البيت الزياني الذين اشتركوا معه بناء على فتوى علماء تلمسان[1]. وكذلك نفس السلوك قام به الشيخ سالم التومي الذي شرع يحرض أهالي الجزائر ضد الأتراك، فأمر عروج بقتله بينما فر ابنه يحيى إلى وهران مستنجدا بالإسبان لاستعادة زعامة أبيه[2]. ونفس الدوافع دفعت الشيخ ابن القاضي إلى التمرد على خير الدين بعد أن كان حليفه الرئيسي كما سلفت الإشارة إلى ذلك.

فكانت السياسة العثمانية إزاء هؤلاء الزعماء تتراوح بين محاولة كسب هؤلاء الزعماء بإبقائهم في مواقعهم القيادية والاكتفاء بقبول تبعيتهم. ويتجلّى ذلك في قراءة الخطبة باسم السلطان العثماني، وسكّ العملة باسمه. بالإضافة إلى دفع الالتزام المالي السنوي إلى الخزينة، والمساهمة في القتال إلى جانب العثمانيين ضد الإسبان، وقمع الثورات التي يمكن أن يعلنها بعض المغامرين من شيوخ العشائر أو الأمراء المحليين.

---

(1) بن أشنهو، 74-75.

(2) بن خروف، **علاقات الجزائر مع المغرب**، مرجع سابق، ص 24.

وإلى جانب ذلك اتبع العثمانيون سياسة شديدة ضد قادة حركات التمرد الذين ألبوا الأهالي على الثورة. فقام عروج بإعدام أبي حمو الزياني، والشيخ سالم التومي، وكذلك أمير تنس الذين كان كلّ منهم يتولى تحريض الأهالي للثورة على العثمانيين. وذلك بعد الرجوع إلى العلماء واستشارتهم بشأنهم. كما اتبع خير الدين نفس السياسة إزاء مؤججي الثورات وزعماء التمرد فقام بإعدام من تمكن منه. فقد أعدم زعماء التمرد الذين ثاروا في مدينة الجزائر عقب استشهاد عروج. وذلك بعد استفتاء العلماء في أمرهم كما رأينا سابقا. كما قام أيضا بإعدام قارة حسن الذي تحالف مع الشيخ ابن القاضي في ثورته على العثمانيين.

وفي بعض الأحيان كان كل من عروج وخير الدين يكتفيان بإضعاف زعيم التمرد دون القضاء عليه. لكسب ولاء قبيلته وأنصاره كما فعل خير الدين مع السلطان الزياني مولاي عبد الله الذي قام بتحريض الإسبان ضد الأتراك. فما كان من خير الدين إلا أن قام بالتوجه إليه وتمكن من الانتصار عليه في ساحة الحرب. ففر السلطان إلى تلمسان حيث قام خير الدين بتعقبه إلى مشارفها. إلا أن السلطان أرسل كبراء دولته، ومشايخها ملتمسا الصلح وبعث معهم 30.000 دينار. لكن خير الدين رفض الصلح معللا ذلك «**بأنّ هذا الرجل ألف التمرد والعصيان والخيانة. إما بتسويل من نفسه، وإما بتحريض من النصارى**»[1]. فلما بلغ السلطانَ رفضُ

(1) الغزوات، ص 80.

خير الدين للصلح خرج إليه بنفسه ورمى بنفسه بين يديه معتذرا راجيا العفو. فعفا عنه[1].

كما اتبع نفس السياسة مع أحد شيوخ القبائل في منطقة جيجل الذي كان يزود الإسبان في بجاية بـ7.000 دينار، 1.000 شاة، و700 رأس من البقر، و14 فرسا بسلاحها سنويا. فضرب خير الدين عليه حصارا حتى اضطره إلى إعلان خضوعه وطلب الصلح على أن يدفع للعثمانيين هذا العدد الذي كان يدفعه للإسبان ويقطع صلته بهم، ويعلن تبعيته وولاءه للعثمانيين[2].

ولإضعاف موقف هؤلاء الزعماء سياسيا، ودفعهم إلى الخضوع والتبعية للإدارة العثمانية في الجزائر كانت سياسة الأتراك تقوم في بعض الأحيان على تأييد من يكون مستعدا للرضا بالتبعية لهم. فقد أيدوا مرارا أمراء البيت الزياني الذين كانوا يتصارعون على العرش. كما أيدوا الشيخ ابن القاضي ضد غريمه ومنافسه على منطقة القبائل البربرية الكبرى في قلعة بني عباس.

وهكذا يمكن أن نقول إن سياسة العثمانيين نحو الزعماء المحليين لم تكن واحدة، بل كانت تسير وفق المواقف التي يقفها هؤلاء الزعماء من الدولة[3].

---

(1) نفسه، ص 80.

(2) نفسه، ص 30، كاتب جلبي، ص 29.

(3) جلال يحيى، المغرب الكبير، 3/ 24.

السياسة العثمانية نحو الأهالي

علمنا سابقا أن الإخوة بربروس وغيرهما من البحارة الأتراك قدموا إلى سواحل شمال إفريقيا للدفاع عن المسلمين في هذه المناطق. حيث كانت سواحلهم تتعرض للغزو والاحتلال الإسباني بالإضافة إلى مساعدة مسلمي الأندلس الذين كانوا يتعرضون إلى ألوان مختلفة من الاضطهاد.

وهذه الصورة التي قدم بها الأتراك إلى الجزائر جعلت الأهالي ينظرون إليهم بمنظار المدافع عن الدين المجاهد في سبيل الله. وكان حصار عروج وخير الدين لمدينة بجاية في أول محاولة لتحريرها سببا في استدعاء أهالي جيجل لهم، ثم تبعهم بعد ذلك أهالي الجزائر. قبل أن تتوالى الدعوات لهم لتحرير بقية المدن المحتلة. وقد حافظ الأتراك العثمانيون على تأكيد هذا الانطباع في نفوس الأهالي من خلال استمرارهم في سياسة التصدي للإسبان طيلة فترة وجودهم مما أكسبهم محبة الأهالي[1].

ومن جهة أخرى أدرك كل من عروج وخير الدين مدى نفوذ العلماء لدى الأهالي وثقتهم فيهم. وأعلمه الأعيان أن البربر يحبون العلماء والأولياء ويبالغون في تعظيمهم. سواء كانوا أحياء أو أمواتا.

---

(1) حمدن خوجة، المرآة، مصدر سابق، ص 88.

فكانت سياسة العثمانيين في الجزائر لاكتساب قلوب الأهالي وولائهم هي إظهار الاحترام الكبير للعلماء والأولياء[1]. والرجوع إليهم للفصل في الكثير من القرارات الحاسمة مثل التبعية للدولة العثمانية، أو إعلان الحرب، أو القضاء على متمرد من المتمردين، أو إرسالهم كوسطاء صلح. فكسبوا بذلك قلوب الأهالي وثقتهم وولاءهم[2].

وفي حال قيام ثورة أو حركة تمرد فإن العثمانيين لم يكونوا يقومون بالانتقام من تلك القبائل الثائرة، بل كانوا يسعون إلى القضاء على الثورة وزعمائها أو إضعاف قدرتهم على إثارة الأهالي من جديد. لكنهم كانوا بمجرد القضاء على الثورة يبادرون إلى رد ما استولوا عليه في أثناء الحرب، ويعوضون لهم قيمة ما أتلف أو دمر[3]. لقد كان الهدف من هذه السياسة هو استمالة هؤلاء المغلوبين نحوهم، وإعادة الطمأنينة إلى قلوبهم، وإشعارهم بأن تلك الحرب إنما كانت لإعادة النظام. وقد أثرت هذه السياسة تأثيرا كبيرا في نفوس الأهالي جعلتهم فعلا يخضعون في النهاية لسلطة العثمانيين عن رضا وطواعية[4].

---

(1) عبد الله شريط، **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**، الجزائر، 1985، ص 148-149.

(2) نفسه، ص 88.

(3) المرجع السابق، 88.

(4) المرجع السابق، 88-89.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة يمكننا أن نلخص ما توصلنا إليه في الفقرات التالية:

1. ترتبط التطورات التي حدثت في منطقة الشمال الإفريقي بشكل وثيق بسقوط غرناطة، واضطرار الآلاف من مسلمي الأندلس إلى الهجرة إلى الجزائر وغيرها من بلدان المغرب العربي. مما كان سببا في بروز حركة المقاومة وتوجيه حملات لإنقاذ المضطهدين من أهالي الأندلس الذين كانوا يتعرضون لشتى صنوف الاضطهاد الديني. فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي شجعت البحارة الأتراك على التوجه إلى غرب البحر المتوسط بغية المساهمة في الدفاع عن إخوانهم. ويعتبر الإخوة بربروس أشهر البحارين الأتراك الذين عرفتهم المنطقة، حيث كان ظهورهم في سواحل شمال إفريقيا نقطة تحول في تاريخ المنطقة بأسرها.

2. استغل الإسبان ضعف الدولة الزيانية وعجزها عن بسط نفوذها في المناطق التي كانت تابعة لها. فقاموا باحتلال وإخضاع جميع المدن الساحلية، وهم واثقون من أن الدولة الزيانية أضعف من أن تتصدى لهم، فضلا عن تقديم الدعم المادي والمعنوي لمسلمي الأندلس.

3. استند الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر إلى جملة من الأسباب الدينية والسياسية والأمنية والاقتصادية. فكان طرد المسلمين من الأندلس، واحتلال سواحل الجزائر أحد أهم أولويات السياسة الخارجية لإسبانيا.

4. أدى الاحتلال الإسباني للجزائر إلى غياب شبه كلي للدور القيادي الذي يفترض أن يقوم به الزعماء المحليّون في مثل هذه الظروف. الأمر الذي دفع الأهالي إلى الالتفاف حول العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في تحفيز الشعب إلى التصدي للإسبان في حدود الإمكانات العسكرية والتنظيمية المتوفرة.

5. لم تتمكن حركة المقاومة الشعبية التي كانت تنطلق من المدن الساحلية المحتلة بتشجيع من العلماء من تحرير سواحل الجزائر، أو تقديم عون جدي للمضطهدين من مسلمي الأندلس. فقام العلماء بدعوة الأخوين عروج وخير الدين بربروس إلى الجزائر وتسليمهم لواء قيادة المقاومة بعد أن بلغتهم انتصاراتهم الكثيرة على الإسبان في عرض البحر المتوسط. واستقبل الأهالي الأتراك استقبال الأبطال وبايعوا عروجا سلطانا عليهم سنة 1516.

6. أدرك الإسبان مدى الخطر الذي سوف تشكله مبايعة أهالي مدينة الجزائر لعروج. فقاموا بتحريض شيخ مدينة الجزائر سالم التومي، ومن بعده ابنه يحيى بن سالم التومي لكي يقوما بتحريض الأهالي على التمرد ضد الأتراك.فاستجاب لهم الشيخ سالم التومي وقام بإثارة بعض أعيان المدينة وأهاليها، إلا أن عروجا تمكن من

قمع ثورة الشيخ سالم وابنه. وتصدى للحملتين الفرنسيتين الأولى والثانية على الجزائر. الأمر الذي جعل صيته ينتشر أكثر ويرسخ صورته في الأذهان بكونه منقذ وحامي الجزائر من الغزو الإسباني.

7. تمكن عروج في الفترة 1512-1518 من تحرير كل من تنس وشرشال ودلس والتصدي للحملات الإسبانية التي كانت تهدف إلى أعادة احتلالها. وفرض على الإسبان الانتقال من الهجوم إلى الدفاع عن الحصون والقلاع التي كانوا يحتلونها. كما تمكن من فرض سيطرته على رقعة تمتد من دلس شرقا على تنس غربا ومن الجزائر إلى المدية جنوبا. إلا أن استشهاده بتلمسان سنة 1518 حال دون تمكنه من تحرير بقية المدن الساحلية في شرق وغرب الجزائر.

8. بايع أهالي مدينة الجزائر خير الدين بربروس بعد استشهاد أخيه عروج في تلمسان. فأدرك هذا الأخير أن تحرير سواحل الجزائر، وإنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني يقتضي دعم دولة قوية كالدولة العثمانية. فأقنع أعيان وعلماء مدينة الجزائر بضرورة مراسلة السلطان العثماني، وإعلان تبعيتهم له حتى يقوم هذا الأخير بفرض حمايته على الجزائر ودعم أهلها للتصدي للإسبان. فاقتنع العلماء وأعيان الجزائر باقتراح خير الدين وأرسلوا وفدا عنهم إلى إستانبول عرضوا من خلاله رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. فقبل السلطان عرضهم وأصبحت الجزائر إيالة تابعة للدولة العثمانية اعتبارا من هذا التاريخ. فكان من أثر ذلك أن سادت موجة من الرعب في جميع أنحاء أروبا وإسبانيا على وجه

الخصوص. لأن هذا الإلحاق يعني نقل جبهة الصراع مع الدولة العثمانية إلى سواحل غرب البحر المتوسط، وتجدد الخوف من إعادة فتح الأندلس على يد الأتراك.

9. جعل العثمانيون من الجزائر إيالة ذات وضعية متميزة، وعين خير الدين بربروس بيلرباي عليها. وفي الوقت نفسه تم تعيينه قائدا عاما للأسطول العثماني. فصارت الجزائر بذلك مركزا للعمليات العسكرية البحرية في غرب المتوسط. وهكذا ارتبطت جميع التطورات السياسية والعسكرية في شمال إفريقيا، وإسبانيا، وغرب أوربا بالجزائر. وكان من أهم الأهداف التي على خير الدين بربروس تحقيقها:

الأوّل: أن يقوم بمضاعفة الهجمات على السواحل والأساطيل والسفن الإسبانية التي تجوب البحر المتوسط حتى لا تتمكن هذه الأخيرة من دعم المجر في حربها ضد الدولة العثمانية.

الثاني: مضاعفة حملاته على المدن والقلاع التي يحتلها الإسبان إلى أن يتم تحريرها. وكذا العمل على إنقاذ أكبر قدر ممكن من مسلمي الأندلس وتأمين نقلهم إلى الجزائر.

10. قضى خير الدين بربروس العشر سنوات الأولى من حكمه (1518- 1528) في التصدي لحركات التمرد التي اندلعت في مناطق مختلفة من الجزائر، قبل أن يتفرغ لتحرير سواحل الجزائر من الاحتلال الإسباني. فتمكن على إثر ذلك من تحرير قلعة البنيون،

والتصدي للحملات الإسبانية التي استهدفت مدينة الجزائر وشرشال. الأمر الذي دفع سلاطين الدولة الزيانية والزعماء المحليين الذين كانوا يتربصون لإعلان تمردهم إلى الخضوع. فاستطاع تثبيت الوجود العثماني في الجزائر بشكل قوي. ولم يتوقف النفوذ العثماني عند حدود الجزائر فحسب، بل حاول خير الدين توسيعه إلى تونس التي قام بغزوها سنة 1535.

11. اتخذ خير الدين بربروس من مدينة الجزائر قاعدة لعملياته العسكرية ومركزا لقيادته بعد أن تمكن من طرد الإسبان من قلعة البنيون. وذلك بدلا من قلعة حلق الوادي التي كانت أول قاعدة للأتراك في الشمال الإفريقي. فكان من نتيجة ذلك أن صارت جميع الطرق البحرية في غرب المتوسط خاضعة لمراقبة البحارين الأتراك في الجزائر.

12. بعد أن صارت الجزائر تابعة للدولة العثمانية، وعين خير الدين بربروس بيلربايا عليها، وفي نفس الوقت قائدا عاما للأسطول العثماني، انتقل صراع الدولة العثمانية مع أوربا من البر إلى غرب البحر المتوسط. وتوج هذا الصراع بانتصار العثمانيين على التحالف الأوربي في معركة بروزة سنة 1538. حيث تمكنوا من فرض سيطرتهم على البحر المتوسط.

13. تعتبر الهزيمة المنكرة التي مني بها الأسطول الإسباني بقيادة شرلكان سنة 1541 أكبر هزيمة يتعرض لها الإسبان في الجزائر. فكان من أثر ذلك أن تغيرت موازين القوى في الجزائر

لصالح الأتراك العثمانيين. حيث شرع الإسبان في الانسحاب من الحصون والقلاع والمدن التي كانوا يحتلونها أو يفرضون سيطرتهم عليها، حتى لم يبق لهم وجود يذكر إلا في بجاية ووهران. وهكذا انفتح الطريق أمام العثمانيين لبسط نفوذهم في الجزائر بشكل نهائي.

14. وقف العلماء والأعيان والأهالي موقفا مساندا للأتراك العثمانيين طيلة الفترة التي واكبت دخولهم. باستثناء حالات نادرة ثار فيها الأهالي وبعض الأعيان استجابة لدعوات التمرد التي قادها الزعماء المحليون الذين وجدوا في الأتراك خطرا على مصالحهم ونفوذهم. ولم يتردد هؤلاء الزعماء في الاستعانة بالإسبان وتحريضهم على غزو الجزائر من أجل أن يعود هؤلاء الزعماء إلى مواقع النفوذ. وهكذا شهدت فترة عروج وخير الدين العديد من حركات التمرد، واكبتها حملات إسبانية تهدف إلى طرد الأتراك وتنصيب زعماء موالين لهم.

15. اتبع الأتراك العثمانيون عند دخولهم إلى الجزائر سياسة متسامحة مع الزعماء المحليين تهدف إلى كسبهم إلى صفها لكي يقطعوا الطريق على الإسبان الذين ما فتئوا يعملون بدورهم على كسب هؤلاء الزعماء وتقديم مختلف أشكال الدعم لمواجهة الأتراك العثمانيين. وهكذا لاحظنا أن العثمانيين حاولوا جاهدين الإبقاء على الزعماء المحليين في مناصبهم مقابل تبعيتهم للسلطة المركزية في الجزائر، والدعاء للسلطان على المنابر، وصك العملة باسمه. إلا أنه بعد استشهاد عروج أدرك خير الدين بربروس أن

هذه السياسة لا تجدي نفعا مع زعماء لا يترددون في التحالف مع أعداء شعبهم، وبيع البلاد لهم، مقابل بقائهم في موقع الصدارة والاستقلال بأنفسهم.

16. قرّب كل من عروج وخير الدين العلماء إليهم، وجعلوا منهم مستشارين لهم. ولم يكونا يقطعان أمرا ذا أهمية مما يتعلق بالسياسة العامة في الجزائر دون أن يرجعا إليهم. فكان من نتيجة هذه السياسة أن اكتسبا مودتهم حتى صاروا الحليف الأول لهما.

17. كان الأهالي ينظرون إلى الأتراك العثمانيين على أنهم مجاهدون جاءوا للدفاع عن دار الإسلام، وحماية إخوانهم في الدين. فعمل الأتراك العثمانيون طيلة فترة وجودهم على ترسيخ هذه الصورة وتثبيتها في واقعهم من خلال حركة الجهاد التي تزعموها ضد الاحتلال الإسباني. وبالرغم من حالات استثنائية استجاب فيها بعض الأهالي لدعوات التمرد التي قادها الزعماء المحليون، إلا أن الانطباع العام عن موقف الأهالي كان مساندا للوجود العثماني بالجزائر.

18. يعتبر الدخول العثماني إلى الجزائر بداية نهاية الدولة الزيانية، واضمحلال نفوذ الزعامات المحلية التي برزت منذ سقوط دولة الموحدين، حيث غاب مفهوم الدولة الواحدة من واقع الحياة السياسية في الجزائر. فكان دخول الأتراك العثمانيين بمثابة إعادة سلطة الدولة الواحدة إلى أذهان الناس.

19. ومن ناحية أخرى فإن خير الدين بربروس ببسطه النفوذ العثماني على الجزائر، يكون قد قام برسم الحدود الجغرافية للدولة الجزائرية الحديثة، التي تقوم اليوم على نفس الرقعة التي أخضعها العثمانيون لنفوذهم في النصف الأول من القرن 16م.

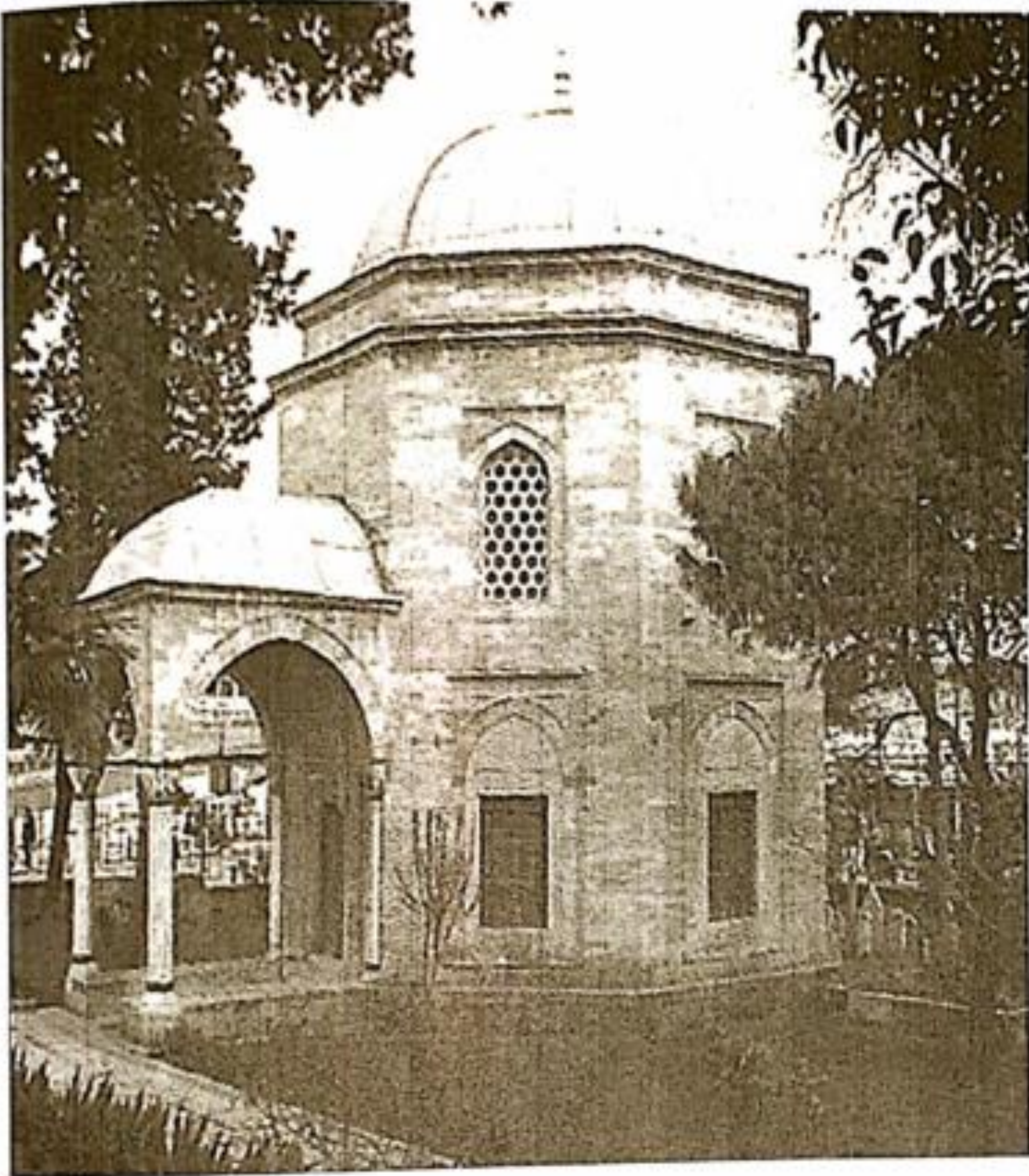
الملاحق والوثائق



الملحق الأول : صورة الرخامة التي كانت موجودة على باب حصن شرشال، مكتوب عليها : «**بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بإذنه بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة**». (وهذا التاريخ يوافق سنة 1518)

ويلاحظ فيها اسم عروج مدونا بأصله التركي الصحيح: أروج. كما يلاحظ اسم والده الذي اختلف الباحثون فيه. وهو يعقوب.

المصدر: متحف برج تامنفوست، الجزائر.



الملحق الثاني : صورة ضريح خير الدين بربروس على ساحل باشكتاش (إستانبول) حيث دفن في قطعة الأرض التي اشتراها بمحاذاة مضيق البوسفور، وأوقفها لكي يدفن فيها حسبما ورد في مذكراته.

الوثيقة الأولى: نسخة من الرسالة التي أرسلها مسلمو الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني (المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 1628).

مترجم مكتوب قاضي وخطيب ومفتي وائمه وتجار واعيان وكافه رعايا وعامه برايای مدينه جزاير

اولی بنده لری مدينه جزايرده ساکن اولان خلقلرک عموما ايصال صلوات ايدرلر فضلاي اهاليسی ضرورتا عرض دعا ايلدکلرندن صکره مقام عالی سلطانيه دعا ايله شهرت بولوب معروضلرمز در ايام اوزره وجوبنه ولزومنه حضرتلری يا ذوي الجلال اعلاي اعلى حضرتلری بودر کيم مقام عظيملرينه بيزده بالمزده بر مرتبه ده تعظيم وارد که ايام اوزره وجوبنه ولزومنه حضرتلری باب مرحمتلری بر وجهله اجلالی ايدرز که مکتوب اوکه مکتومنه واقف دکليز بيز سعادتلو پادشاهمز حضرتلرينه دعا وثنا ايدوب کندولری خالص واولی واولوقه سعادتلرينه امر ايدرز ارسال اولنمشدر وبيزه بر وجهله اعتماد ايلرز که باطنی وظاهری خالص واولی واولوقه سعادتلری اعطا اولنمشدر که شرف اولندیغمز بر خطاب ايدرز بونبره لرمز مقام اشرفلرينه مقام شريفلری غايت تعظيمله عزت ونصرتله اولان کافرلر که حق تعالی ايله اخبار طوائفدن اعدا دينه حادث اولان اخوان الله قد الله ودستاری اولی مو ملک نصرتی وعون الله اولی کافرلرک حق تعالی ايله اخبار وطنلرينه مستولی اولدقلری وطايفه اندلس وطننه ستوتی اولدقده وخرابلرينه اشتغال ايلدیلر وجهاد ترددی جليله در اما تحصيلی بودر که طايفه طاغيه اندلس وطننه مستولی اولدقده وخرابلرينه جزاير باقی غالری وسط دیره سایر بلاده تعدی ايدوب بسكلوبنه بجايه ايله طرابلس الغرب صکره که بيزم شهرمزه اولور جزاير باقی قالدی ديو تشبث ايلدیلر اللهم کلن نقطه کبی غريب جابر قالدق هر جانبدن اهل کفر بيزه مضايقه ويردی بيزهان حبل متين دينه تشبث ايلديک که محنت وشدت مشتق صيقندق پس طايفه طاغيه بيزی طلب ايلدیکه تحت ذمتنه ادخال ايليه بيزدانجی نظر ايدوب کوردکه کر محنت ودخی علمدمز واولادمز واموالمز فسق اولوری بالضروره حق تعالی اهل تثليث اوزره نصرت عيسی ايليمه نشانلرمز دخی علمدمز واولادمز واموالمز فسق صلح ايلدک ويبوقه وفرقه خوفندن منادا الذلک انا لله وانا اليه راجعون بو مضايقه دن صکره که کفار کلوب وخراب وبجايه وطرابلس الغرب قصد ايلديکه کيلد ايله بيزه دخی مستولی اولوب اسير ايلديلر وبربرمزدن تفرقه ايلدیلر ناکاه نا مردين مجاهد ومسلمين ومجاهد في سبيل الله اولان اروج بک بر مقدار غازيلر ايله کلوب بيز داخی اهل تحمل داکرامله استقبال ايلدک بزرا حق قوتدن الله فضيله بيزی خلاص ايدی مشار اليه اروج بک بيزه کلدکدن اول تونس شهرندن بجايه حصارينه کلدی اعدا دينندن الوب اخوان مسلمين ايلديکه حصن پس قلعه مزبوره محاصر فقها ابو العباس احمد بن قاضي ايله محاصره ايدوب ارکانه تزلزل وپروب بنيانی هدم ايلدی پس قلعه ير کيردکلرده کافرلر بينه ارکان اختلال وفتنه لر حلول ايدوب بنيانی ايلديلر قلعه مزبوره نک ايراشيدو سلطانلری مجمع ايدوب عظيم الشان بر تربيب الديلر عنوة قلعه ير داخل اولديلر کافرلر اولدقده بنی قلوب وبعضيکه نوطروقاده اولدی حق تعالی محمل الطيف ايدوب قتل اولندی وطامل سلطانلر اولکافرلر ايله انواع محاربه ومقابله الليل والنهار ايراده ده عزو بردکيم جنکلر ايلديلر ناکه مشار اليه اروج بک کر اصحابندن برجماعت مفارقت ايلديلر مشار اليه جماعه قليله ايله اولکافرلر آراسنده قلدی مشار اليه بيزه کلوب ملاقی اولدقده واعدا دينندن بيزی خلاص قلدی سبب بو اوطنلر ايدی پس مشار اليه اروج بک تلمسان شهرنده بحار به سنده رحمه الله شهيد اولدقده قرنداشی [illegible] في سبيل الله ابو التقی خير الدين خير خلف اولوب بيزه حامی اولوب عدل تامنده وشرع شريف نبويه اتباعنده غيرت ايدوب کوردک منکور حامی حاميا مقام اعلالرينه غايت تعظيمله تعظيم وامر جهاده اشتغالده ورب العبادک رضاسنده مالی ونفسی بذل ايلدکده اولوب اعلاء کلمة الله حريص اولمغين وجمله آمالی سلطنت عليه کوزه منوط وکمال احترامکوزه اوزره منبسط اولدغی اجلدن بيزوم داخی محبتوز اوکر حقنده خالص وثابت اولمشدر محبت ايليالوم کر بيزوملر بيله ابلدر ساعد اقدام اوزره کلوب بيزوملر بيله جهاد في سبيل الله نيت خالص وقلب صادقله توجه ايلمشدر وبيزه وزخاده حق تعالی امرينه اوزره قايم اولمغه اتفاق ايدوب بيز عقيده ايمانيه ده کوکب وحاجه ودليل واضح المناهج بکند ولطال الله عمر بوبنده لری مقام عاليه اعلام ايلدکلری اولدرکه منکور امير خير الدين جانب اعلاکوزه کتمکه عزيمت ايلدی ابلدی بلده مزبوره نک غرغا حب تضرع ايدوب خوفيوبر صعبلر کفره طاغيه دن خوف ايدکوزه دن اوتر وزيرا نصارای بيزه زياده برامن قصدده در بيز خود غايت ضعف ونهايت بونده ايک سبيبدن اوتر و بابلا کوزه فقيه عالم مدرس سيدي ابي العباس احمد بن علي بن احمد ارسال الاطلي بيز منکور امير حضرتلرينه جناب اعلاکوزه کتمک خدمت کارلرينه واقليم بجايه وغرب وشرق اهاليسي مقام اعلالرينه کتمک حقنده وسائر بو بلاده واقع اولان امورمزی بشو مکتوبلرده وارده قدوم مقام اعلالرينه مزبورا اعلام ايلدرکه ولسلام عليکم ورحمة الله وبرکاته وحرر في اوايل شهر ذي القعده من عام خمسة وعشرين وتسعمائة

ذکر او لنان بلده جزايرده جامع اعظم منزوی بو مصتکفلرون عبيدالله وخويم فقراء اهل السنة محمد بن منصور بن علي الطيبي داخی مکتوب کوندر پاره مزده ذکر اولنان قوم ضعفايله منکور خير الدين کلوب ايدتحقيقه اعلاکه کعرب اولدقلرنی ومرة بعداخری فرنلره اولنان محنتلر چکدکلرنی وحاليا دعا دوام دولت پادشاه حبيبه مداومت ايلدکلرنی اعلام ايلمش

الوثيقة الثانية: الرسالة التي أرسلها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. (أرشيف قصر توب كابي سراي، إستانبول. رقم: 6456).وهذا نصّ ترجمتها :

رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأمناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة

إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية. دعاء يبلغها أقصى الأماني، فإن عبيدها بالجزائر يكتبون إلى مقامها العالي معبرين ومعترفين. وإن رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. وإن سعادة أيامكم هي قوتنا. ونحن لزمام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا. فقد أطعنا أمركم، وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم، يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم قصد غير شريف مقامكم العالي.

لقد جرت حوادث جليلة، ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله. ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد. غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة. وبقينا كذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب. ولكن تمسكنا بحبل الله المتين، واتكلنا عليه. غير أن طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته. وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخفوا على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي

والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلى وهران وبجاية وطرابلس. وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة.

آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله أوروج باي مع ثلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا كنا في خوف من عدونا فخلصنا بفضل الله. وأرورج باي المشار إليه جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار(واتصل) بالمسلمين. فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها وشاهد الكفار عندما دخل المسلمون القلعة، وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم.

لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهار، من طلوع الشمس إلى غروبها. وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة أروج القتال بقي المشال إليه يقاتل الكافر مع جماعة قليلة. وكان قد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان.

وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله، أبو التقى خير الدين.وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف. على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثاتبون. كيف لا نحبه وهو المشمر على ساعد الجدّ والإقدام.

ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين

كان قد عزم قصد جنابكم العالي، إلا أن عرفاء البلد المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل ونحن على غاية الضعف والبلاء.

هذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي. وأن المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث والسلام.

أوائل ذي القعدة 925هـ

المصدر: (مجلة تاريخ المغرب، عدد6، 1976، ص116- 120)

الوثيقة الثالثة: نسخة من نص المعاهدة التي عقدت بين السلطان الحفصي المتوكل والإمبراطور شرلكان سنة 1536، والمتعلقة بتسليم عنابة للإسبان. (محفوظات سيمانكاس. رقم: P.R.11-20)

الوثيقة الرابعة: نسخة من المعاهدة التي عقدت بين السلطان الحفصي المتوكل والإمبراطور شرلكان سنة 1536، والمتعلقة بخضوع تونس للإسبان. (أرشيف سيمانكاس، رقم: P.R. 11-20)

الوثيقة الخامسة: رسالة من طرف حسين ابن القاضي إلى الإمبراطور شرلكان سنة 1543. (أرشيف سيمانكاس، نقلا عن المدني، ص: 151)

الوثيقة السادسة: وثيقة بتوقيع ممثلين عن أهالي مستغانم تتضمن إعلان تبعيتهم للإسبان. (أرشيف سيمانكاس، نقلا عن المدني، ص: 150).

قائمة المصادر

أ- المصادر العربية

ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، 1984.

ابن دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، تونس، 1993.

ابن عسكر، **دوحة الناشر**، فاس المغرب، 1307هـ.

ابن غلبون أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار**، تحقيق أيمن البحيري، بيروت، 1998.

أبي زكريا بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد**، الجزائر، 1910.

إتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911**، ترجمة خليفة التليسي، بيروت، 1974.

أحمد السليماني، **تاريخ مدينة الجزائر**، الجزائر، (بدون تاريخ).

أحمد الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء بجاية**، تحقيق محمد بن شنب، الجزائر، 1910.

أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تونس، 1999.

أحمد بن خالد الناصري السّلاوي، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء،

المغرب، 1955.

أحمد بن عبد الرحمن الشعراني الراشدي، **القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط**، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت، 1991.

أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر، 1984.

أحمد جودت باشا، **وقايع دولة عليهء عثمانية من سنة 1188 إلى** 1191هـ (1774-1777)، إستانبول، (بدون تاريخ).

أحمد راسم، **عثمانلى تاريخي**، إستانبول 1326- 1328.

الآغا بن عَودة المَزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق يحيى بوعزيز، بيروت، 1990.

أنطونيو دو مونقير هورتز، **تاريخ مسلمي الأندلس**، ترجمة عبد العال صالح طه، بيروت، 1988.

بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث**، ترجمة عماد خاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1991.

بسام العسلي، **خير الدين بربروس والجهاد البحري**، بيروت، 1986.

بلحميس مولاي، **غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541**. مجلة الاصالة، وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية، الجزائر. العدد 8، السنة 2، ماي، جوان 1972.

بِلقاسم نايِت بلقاسم، **شخصية الجزائر وهيبتها العالمية قبل 1830**، الجزائر، 1985.

التلمساني، محمد بن عبد الرحمن، **الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم (2523).

تيسير بن موسى، **المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني**، طرابلس، 1988.

جان بيرنجييه وزملاؤه. **تاريخ أوربا العام**. منشورات عويدات. بيروت. 1995.

جلال يحيى، **المغرب الكبير**، بيروت، 1881.

جون ب وولف، **الجزائر وأوربا** (1500- 1830)، الجزائر، 1986.

الحسن بن محمد الوزان **وصف إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض، السعودية، 1979.

حسين مؤنس، المغرب الكبير، بيروت، 1981.

حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، 1972.

رولان موسنييه. **تاريخ الحضارات العام**. ترجمة: يوسف أسعد داغر. منشورات عويدات. بيروت. 1994.

سعيد أحمد برجاوي، **الإمبراطورية العثمانية، تاريخها السياسي والعسكري**، بيروت، 1993.

سيد محمد سيد، **دراسات في التاريخ العثماني**، القاهرة، 1996.
شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، (تونس، الجزائر، المغرب) من الفتح الإسلامي إلى 1830**، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، تونس، 1985.
شكيب أرسلان، **تاريخ الدولة العثمانية**، دمشق، 2001.
الشناوي عبد العزيز، **الدولة العثمانية دولة مفترى عليها**، القاهرة، 1980.
شوقي عطا الله، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، القاهرة، 1977.
صلاح العقاد، **المغرب العربي**، القاهرة، 1966.
صواف فائق بكر، **العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ما بين 1876- 1916**، القاهرة 1978.
طيار زادة أحمد عطا، **تاريخ عطا**، إستانبول 1309ه/ 1892م.
عبد الجليل التميمي. **الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن 16**. بحث ألقي في المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية. زغوان. تونس. 1990.
، **الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر**، تونس، (بدون تاريخ).
، **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين**، المجلة التاريخية المغربية، العدد 23-24.
، **رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة**

1551، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، العدد 3 (يناير 1975).
عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، الجزائر (بدون تاريخ).
عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث**، مكة المكرمة، 1994.
عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، بيروت 1984
عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت 1956.
عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، القاهرة، 1994.
عبد الكريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، الرباط، 1977.
عبد الله شريط، **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**، الجزائر، 1985.
عبد الله محمد جمال الدين، **المسلمون المُنَصَّرون**، القاهرة، 1991.
عزيز سامح إلتر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، بيروت، 1989.
علي المنتصر الكتاني، **انبعاث الإسلام في الأندلس**، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعية الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، 1992.
علي رضا سيفي، **تحركات بحرية**، إستانبول، 1928.

عمار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب (1517-1659)**، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ (رسالة ماجستير لم تنشر)، 1985.

فريدون باي، **مجموعة منشئات السلاطين**، إستانبول 1274.

كاتب جلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، إستانبول 1329.

كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 2002.

لوثروب ستودار، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عادل نويهض، بيروت، 1974.

مؤلف مجهول، **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**، تحقيق حسين مؤنس، بيروت، 1991.

مؤلف مجهول، **غزوات عروج وخير الدين**، تحقيق، نور الدين عبد القادر، الجزائر 1934.

مؤلف مجهول، **مخطوط المحكمة**، (مخطوط) بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1100.

محمد البكري الصديقي، **المنح الرحمانية، في الدولة العثمانية**، بيروت 1990.

محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث**، الجزائر، 1985.

محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، بيروت، 1984.

محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر**، الجزائر، (بدون تاريخ).
محمد بن المبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 2004.
محمد بن عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر**، 1984.
محمد بن محمد المقَّري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968.
محمد بن محمد بن السَّرَّاج الأندلسي، **الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية**، تحقيق محمد الحبيب الهبلة، بيروت، 1984.
محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1979.
محمد خيري فارس، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، بيروت 1988.
محمد خيري فارس، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، بيروت 1982.
محمد داوود، **تاريخ تطوان**، تطوان، المغرب، 1959.
محمد رزق، **دراسات في تاريخ المغرب**، الدار البيضاء، المغرب، 1991.
محمد زروق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 الميلاديين**، الدار البيضاء، المغرب، 1987.

محمد عبد الله عنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، القاهرة 1949.
محمد علي عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، دمشق، 1994.
محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العثمانية**، بيروت، 1981.
المطوي، محمد العروسي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت، 1986.
المهدي بوعبدلي، **أضواء على تاريخ الجزائر**، مجلة الأصالة، العدد 8، (الجزائر 1972).
مونتغمري وات، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة، محمد رضا المصري، بيروت، 1994.
نشانجي محمد باشا، **نشانجي تاريخي**، إستانبول (بدون تاريخ).
نيقولا إيفانوف، **تاريخ البلدان العربية**، موسكو، روسيا، 1963.
نيقولا إيفانونف، **الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574)**، ترجمة: يوسف عطا الله، بيروت، 1988.
الوفراني، محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي**، إنجي، المغرب، 1888.
وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، ترجمة عبد القادر زبانة، الجزائر، 1980.
يحيى بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، بيروت، 1995.
، **من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، 1984.

ب- المصادر التركية والأجنبية

Ahmet Akgündüz ve Said Öztürk, Bilinmeyen Osmanlı, İstanbul,1998

Ahmet Asrar, kanuni Sultan Süleyman ve İslam Alemi, İstanbul(tsiz)

Braudel, Les Espagnol et l'Afrique du Nord, Alger,1928

Bursalı Mehmet Tahir, Osmanlı müellifler, İstanbul,1333-1342 (1915-1924)

Büyüktuğral Afif,Prevze Muharebesine ilişkin Belgeler,

Belleten,XLII.(1978)

Cherrier, Negociation de la France dans le levent, Paris,1920

Danişmend Ahmet Lütfi, Lütfi Tarihi, İstanbul,1291

Danişmend İsmail Hami, İzahlı Osmanlı Tarihi kronolojisi, İstanbul,1947

Grolier International Americana Encyclopedia, İstanbul (thz) I.

H.D.de Gramman, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1580), Paris,1887

Hadidi, Tavarih-i Al-i Osman, Hazırlayan, Necdet Öztürk, İstanbul, 1991

Hiedgo de Haedo, Histoire des Rois d'Alger, sadeleştirme Henri de Grammont,1881

Hoca Sa'deddin Efendi,Tacu't-Tevarih,

İstanbul 1279

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, Türk Tarih Kurmu, Ankara 1988

İsmail Soysal, Türk-Fransız Diplomasi Münasebetlerinin İlk devresi. Tarih Dergisi. Eylül, 1951, Mart 1952

İsmail Yiğit,İslam Tarihi,İstanbul 1992

Joseph von Hmmer, Osmanlı Tarihi, çev. Mehmet Ata, İstanbul 1330

Katip Çeçebi, Tuhfetu'l-Kibar fi Esfari'l-Bihar, İstanbul 1329

Kemal Paşazade, Tevarih-i Al-i Osman X. Defter, nşr. Şefaettin Severcan, Ankara 1996

Lütfi Paşa, Tevarih-i Al-i Osman, 1341

Mehmet Özdemir, Endülüs Müslümanları, Ankara, 1994

Mehmet Zeki Pakalın, *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü*, İstanbul 1993

Muhharebat-ı Bahriye Osmaniyye, Deniz Kuvvetlri kumutanlığı, İstanbul, 1991

Mühimme Defeteri

Müneccimbaşı, Sahaifu'l-Ahbar, cev. nedim (şaır) İstanbul 1258

Müzaffer Arıkan ve PaulinoTolede, XIV-XVI. Yüzıllara Türk-İspanyol İlişkileri ve Denizcilik Tarihimizle İlgili İspanyol Belgeler, Ankara, 1999

Pçevi, Tarih-i Pçevi , İstanbul, 1980

Pierre Chaunu, L'Espagne de Charles-Quint, Paris, 1973

Piri reis , Kitab-ı bahriyye, İstanbul, 1935

Serefttin Turan, Barbaros Hayreddin Paşa, Türkiye Diyanet Vakfi, İslam Ansiklopedisi, İstanbul, 2000

Şehabetin Tekindağ,Yeni Kaynak ve Vedsikaların ışığında yavuz Sultan Selim'in İran Seferi, Tarih Dergisi, sayı XVII(1967)

Şükarn Hakkut, Türklerin Kuzey Afrika Gelişi ve Garp Ocakları, Hayat Tarih mecmuatı, (Ocak 1978)

Tavarihi Ali Osman. Hazırlayan: Şarefed-din Turan, TTK Basımevi, Ankara, 1988

Tekindağ Şehabettin, Yeni Kaynak ve Vesikaların ışığında Yavuz Sultan'ın İran seferi, Tarih dergisi, İstanbul, (Mart,1967)

Türk Ansiklopedisi . M.E.B. XVIII. Ankara . 1970

Uluçay, Yavuz Sultan Selim nasıl Padişah Oldu ?, Tarih Dergisi, sayı VII (1954)

Ziya Kazıcı, İslam Tarihi, İstanbul, 1997

Ziya Paşa , Endülüs Tarihi , İstanbul, 1276

Zuhuri Danişmand, Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, İstanbul ,(tz)

تم بحمد الله



من المسائل الأساسية في التاريخ الجزائري الحديث، قضية التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ودور خير الدين باشا في تلك القضية. لارتباطها بإشكالية السيادة في العهد العثماني، وانعكاسها على تشكل الكيان السياسي للجزائر الحديثة ...

وفي هذا الإطار، وضمن هذا التوجه تندرج دراسة أ.دِ محمد دراج حول : **«الدخول العثماني إلى الجزائر 1512-1543»** لتحتلّ مكانها ضمن المكتبة التاريخية العثمانية، لمنهجها الأكاديمي وطرحها العلمي وتناولها الموضوعي.

إن قيمة هذا الجهد العلمي تؤكده العديد من المراجع العثمانية التي ظلت غائبة في أغلب الدراسات التي تعرضت لهذا الموضوع، والتي عرف الأستاذ الباحث كيف يستفيد منها ويوظفها في دراسته من خلال منهج يعتمد على المناقشة والمقارنة في استنتاج المعلومات وإثبات الاستنتاجات ...

هذا؛ ولا يفوتنا ... الإشادة بلغة وأسلوب البحث. فهو يتميز بسلاسة العرض ويجمع بين صحة المعنى وسلامة المبنى. فكان بحق ترجمة أمينة للنسخة الأصلية من الدراسة التي كتبت باللغة التركية ... وهو ما يجعلها ثمرة تفاعل ثقافي وتواصل علمي بين الثقافتين العربية والتركية ...

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

ر.د.م.ك: 978-9961-9963-4-8

